دراسات إسلامية

التصوف
طريق التزكية و الإحسان

تأليف المربي

د. محمد خير فاطمة

النعيمي الحسيني

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على سيد المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد:

فإنَّ المسلم يحار في أمره عندما يجد الصراع قوياً بين أصحاب التصوف والمعادين لهم من علماء الإسلام، فهؤلاء يجعلون التصوف جزءاً هاماً من الإسلام، وأولئك يجعلونه بدعة وخروجاً عن الدين، فأيهم يصدق، وبأيهم يقتدى؟

إنَّ المسلم الذي يتتبَّعُ هذا الأمر ويقوم بدراسته دراسة منهجية دقيقة علمية يجد أن التصوف إنما هو اختصاص في ركن هام من أركان التربية الإسلامية ألا وهو فقه الباطن كما سمّاه علماء الشريعة، أو التربية الروحية كما سمّاه علماء التربية، أو التزكية كما سمّاه القرآن الكريم، أو الإحسان كما سمّاه النبي العدنان ﷺ.

ولو أن أهل التصوف سموا اختصاصهم في تربية النفوس وتزكيتها لتبلغ مقامَ الإحسان تسميةَ القرآن الكريم أو تسمية السنة الشريفة، لكفونا مشاق تلك الحيرة والدراسة ولكفونا هذا الصراع الذي لا طائل منه ولا فائدة.

ففي عهد الصحابة رضي الله عنهم لم يكن هناك حاجة لمثل هذه التسميات الاختصاصية فقد كان الصحابة يتلقون الإسلام متكاملاً من النبي ﷺ عن طريق القرآن الكريم، وسنته الشريفة، إلى أن جاء عهد التابعين ومَنْ بعدهم وأخذ العلماء بالتخصص في فروع الإسلام من فقه وتفسير وحديث ولغة

وغير ذلك، فكان أن قام أناس بالتخصص، في تزكية النفس وتطهير القلب والتمسك بأخلاق الإسلام وسلوكه وآدابه.

ومعلوم أنَّ العلماء قد اصطلحوا على تسمية كلّ علمٍ من العلوم الشرعية وغيرها باسمٍ خاصّ به، فكان أن اختار أصحاب هذا الاختصاص في التربية والتزكية، اسم التصوف.

ولعل انتساب بعض الجاهلين والمغرضين أو المنتفعين أو الدجالين أو غيرهم من أصحاب الأهواء الخاصة إلى أهل التصوف وعلمائهم وظهور إساءاتهم الكثيرة، جعل بعض العلماء والمسلمين يعادون أهل التصوف نتيجة لذلك. وهذا خطأ فاحش.

فليس من الحق والعدل إصدار حكم على أي جماعة بالنظر إلى تصرفات بعض أفرادها الذين لا يعبرون عنها التعبير الصحيح، وإنما إصدار الحكم يجب أن يكون على الآراء والأفكار والاعتقاد والسلوك والأخلاق التي تطرحها تلك الجماعة، وتعمل وفق مقتضاها.

والمتمعن في التصوف وما يدعو إليه في حقيقته وجوهره، يجد أنه من الضروري التمسك به وتبني طرائقه ليتمَّ للمسلم إسلامه، فالتصوف يُعْنى بجانب هام من جوانب الإسلام وهو الجانب العاطفي الروحي النفسي، يُعْنى بجانب الفقه الباطني وتزكية النفس والروح والقلب، جانب الأخلاق والسلوك وهو جانب هام وأساسي في الإسلام لا يمكن الاستغناء عنه أبداً ليكمُل إسلام المسلم وإيمانه، وليصل إلى أحد أركان الدين وهو الإحسان.

من أجل هذا أردت بكتابي هذا أن أقدم:

أولاً– مدخلاً إلى علم التصوف أبين فيه بعض المواضيع الهامة التي تتعلق بالتصوف ليتعرف عليها القارئ.

ثانياً– ذكرت بعض المواضيع الهامة المتعلقة في سلوك هذا العلم ليطلع عليها القارئ ويفهم المقصود منها، ويسعى إلى تطبيقها وسلوكها، ليصل إلى الغاية المرجوة من التصوف المتمثلة في تزكية النفس وتهذيبها والوصول بها إلى مقام الإحسان.

أما العلم الحقيقي بالتصوف والتطبيق العملي له، وسلوك مسالكه، ومعرفة طرقه، والوصول إلى ثماره وكماله، فقد كتبت فيه كتاباً آخر سميته تسمية القرآن تفادياً للقيل والقال وهو

[قد أفلح من تزكى، أو منهج الإسلام في تزكية النفس].

أرجو من اللّه القبول، ورضا النبي الرسول ﷺ وسرور أهل التصوف والنقول.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

المؤلف

د. محمد خير فاطمة

۞ ۞ ۞

الباب الأول:

المدخل إلى علم التصوف

١- ما علم التصوف؟.

٢- تعريف التصوف.

٣- اشتقاق اسم التصوف.

٤- نشأة علم التصوف.

٥- ارتباط التصوف بالشريعة.

٦- ما السبب في أن التصوف لم يظهر إلا بعد عهد الصحابة والتابعين؟

٧- موقف السلف الصالح من التصوف.

٨- موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف.

٩- التصوف المفترى عليه.

١٠- أهمية التصوف.

١١-حاجتنا إلى التصوف.

١٢- منهج التصوف.

ما علم التصوف؟

١) قال ابن عجيبة[١] رحمه اللّه تعالى:

(هو علم يعرف به كيفية السلوك إلى حضرة ملك الملوك، وتصفية البواطن من الرذائل، وتحليتها بأنواع الفضائل، وأوله علم، وأوسطه عمل، وآخره موهبة)[٢].

٢) وقال القاضي شيخ الإسلام زكريا الأنصاري[٣] رحمه اللّه تعالى:

(التصوف علم تُعرف به أحوال تزكية النفوس، وتصفية الأخلاق، وتعمير الظاهر والباطن، لنيل السعادة الأبدية)[٤].

٣) وقال الشيخ أحمد زروق الفاسي[٥] رحمه اللّه:

(التصوف علم قصد لإصلاح القلوب، وإفرادها للّه تعالى عما سواه)[٦].

٤) وقال العلامة حاجي خليفة:

هو علم يعرف به كيفية ترقي أهل الكمال من النوع الإنساني في مدارج سعاداتهم[٧].

---

(١)(ابن عجيبة): أحمد بن محمد بن المهدي، الحسني الأنجري مفسر صوفي من أهل المغرب.مدفون ببلدة أنجرة (بين طنجة وتطوان توفي (١٢٢٤ هـ = ١٨٠٩ م) له كتب كثيرة [الأعلام للزركلي].

(٢) ابن عجيبة: معراج التشوف إلى حقائق التصوف ص٤.

(٣)(زكريا الأنصاري): قاض مفسر، من حفاظ الحديث.ولد في سنيكة (بشرقية مصر) وتعلم في القاهرة وكف بصره وله كتب عديدة توفي (٩٢٦ هـ/ ١٥٢٠ م) [الأعلام للزركلي].

(٤) القشيري:على هامش الرسالة القشيرية ص٧.

(٥)(أحمد زروق): صوفي، فقيه، مالكي، محدث له كتب متعددة. ولد بفاس ، وتوفي بتكرين (٨٩٩ هـ/١٤٩٣ م). [معجم المؤلفين لعمر كحالة].

(٦) أحمد زروق الفاسي: قواعد التصوف، قاعدة ١٣، ص٦.

(٧) حاجي خليفة: كشف الظنون، ج١، ص٤١٣.٤١٤.

ثم قال:

علم التصوف علمٌ ليس يعرفه إلا أخو فطنة بالحق معروفُ
وليس يعرفه من ليس يشهده وكيف يشهد ضوءَ الشمس مكفوفُ

٥) ويعرف ابن ذكوان[١] علم التصوف ببيت من الشعر فيقول:

علمٌ به تصفية البواطن من كدرات النفس في المواطن

- قال العلامة المنجوري[٢] في شرح هذا البيت: (التصوف علم يعرف به كيفية تصفية الباطن من كدرات النفس أي عيوبها وصفاتها المذمومة كالغل والحقد والحسد والغش وحب الثناء والكبر والرياء والغضب والطمع والبخل وتعظيم الأغنياء والاستهانة بالفقراء، لأن علم التصوف يطلع على العيب والعلاج وكيفيته، فبعلم التصوف يُتوصل إلى قطع عقبات النفس والتنزُّهِ عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل إلى تخلية القلب عن غير اللّه تعالى، وتحليته بذكر اللّه تعالى)[٣].

٦) وقال أبو الحسن بن أبي ذر[٤] في كتابه (منهاج الدين) أنشدونا للشبلي[٥]:

---

(١)(ابن ذكوان) أحمد بن عبد الله بن ذكوان، أبو العباس: قاضي القضاة بالأندلس. ولاه المنصور بن أبي عامر القضاء بقرطبة. توفي(٤١٣ هـ / ١٠٢٢ م) [الأعلام للزركلي].

(٢)علي بن محمد بن عبد الله المنجوري البلخي العالم المحدث سمع مالكا وشعبة ذكره الخليلي في الإرشاد وقال ثقة.[لسان الميزان: ابن حجر]

(٣)مصطفى إسماعيل المدني: النصرة النبوية على هامش شرح الرائية للفاسي، ص٢٦.

(٤)ابن أبي ذر: الشيخ العالم الصدوق أبو مكتوم عيسى بن الحافظ الكبير أبي ذر عبد بن أحمد الأنصاري، الأنصاري، الهروي، ثم السروي، توفي (٥٣٠هـ) عن عمر يناهز ثلاث وتسعين سنة.[سير أعلام النبلاء: للذهبي]

(٥)(الشبلي) محمد بن عبد الله الشبلي الدمشقي، أبو عبد الله، بدر الدين بن تقي الدين: فاضل متفنن. من فقهاء الحنفية.ولد بدمشق، وكان أبوه (قيم الشبلية وهي قرية بجانب سمرقند) فيها. ورحل إلى القاهرة، وولي قضاء طرابلس الشام واستمر في القضاء إلى أن توفي بها(٧٦٩ هـ /١٣٦٧ م).[الأعلام للزركلي]

علم التصوف علم لا نفاد له علم سَنِيٌّ سماوي رَبُوبِي
فيه فوائد للأرباب يعرفها أهل الجَزالَة والصنع الخُصُوصِي(١)

٧) وقال ابن خلدون(٢) في مقدمته:

(وهذا العلم ـ يعني التصوف ـ من العلوم الشرعية الحادثة في الملة، وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقةَ الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى اللّه تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في ما يقبل عليه الجمهور من لذة مال وجاه، والانفراد عن الخلق والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف: فَلَمّا فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة)(٣).

٨) وقال العلامة الشيخ محمد أمين الكردي(٤):

(واعلم أن التصوف ويقال له علم الباطن من أجل العلوم قدراً، وأعظمها محلاً وفخراً، وأسناها شمساً وبدراً، وقد فضل اللّه أهله على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات اللّه وسلامه

---

(١) أبو بكر محمد الكلاباذي: التعرف لمذهب أهل التصوف، ص٨٨.

(٢)ابن خلدون: هو عبد الرحمن محمد بن محمد بن الحسن، أبو زيد ، الحضرمي، الأشبيلي الأصل التونسي ثم القاهري، المالكي، المعروف بابن خلدون. عالم ، أديب، مؤرخ، اجتماعي، حكيم. وولي في مصر قضاء المالكية. وأخذ الفقه عن قاضي الجماعة ابن عبد السلام وغيره. توفي: (٨٠٨ هـ) من تصانيفه: العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر وهو المعروف بتاريخ ابن خلدون،وشرح البردة". [الأعلام للزركلي]

(٣) مقدمة ابن خلدون ص٣٢٩.

(٤)(محمد أمين الكرديّ) محمد أمين بن فتح الله الإربليّ الكردي: عالم صوفي واعظ، من أهل إربل. تعلم بالأزهر وتوفي بالقاهرة. له كتب عديدة. توفي(١٣٣٢ هـ / ١٩١٤ م) [الأعلام للزركلي]

عليهم، وجعل قلوبهم معدن الأسرار، واختصهم من بين الأمة بطوابع الأنوار، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق)[١].

ثم يقول: (وفضله أنه أشرف العلوم لتعلقه بمعرفة اللّه تعالى وحبه وهي أفضل على الإطلاق، ونسبته إلى غيره من العلوم أنه أصلٌ لها وشرط فيها إذ لا علم ولا عمل إلا بقصد التوجه إلى اللّه فنسبته لها كالروح للجسد)[٢].

- من هذه الأقوال نجد أن التصوف علم قائم بذاته وهو من أشرف العلوم، وهو علم يختص بعلم الباطن وفقهه، وإصلاح القلب وتزكيته، وتطهير النفس وتهذيبها، ويسعى إلى الوصول إلى مقام الإحسان، و يستحسن هنا أن نستشهد بقول الأستاذ عبد الباري الندوي [٣]:

(فإن أبى شخص أن يعترف بالتصوف كعلم بعينه، وفن بذاته، فَلِمَ لا ينفر ويشمئز من المصطلحات الدينية الأخرى من تفسير ومفسر، وتجويد ومجود، وكلام ومتكلم، وغيرها) [٤].

(١) محمد أمين الكردي: تنوير القلوب ص٤٣٦.

(٢) المصدر السابق، ص٤٣٨.

(٣) عبد الباري الندوي: أستاذ الفلسفة الحديثة في الجامعة العثمانية بحيدر آباد سابقاً.

(٤) عبد الباري الندوي:بين التصوف والحياة.

تعريف التصوف

-يقول الشيخ السهروردي[١] رضي اللّه تعالى عنه: (أقوال المشايخ في ماهية التصوف تزيد على ألف قول) [٢].

- وقال الشيخ أحمد زروق[٣] في قواعده: (وقد حُدّ التصوف ورسم وفسر بوجوه تبلغ نحو الألفين مرجع كلها صدق التوجه إلى اللّه وإنما هي وجوه فيه)[٤].

- إذاً للتصوف تعريفات كثيرة اذكر منها ما يلي:

١. قال الإمام الغزالي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف: هو تجريد القلب للّه تعالى واحتقار ما سواه، أي تخليص القلب للّه تعالى، واعتقاد ما سواه اعتقاداً أنه لا يضر ولا ينفع، فلا يعول إلا على اللّه، فالمراد باحتقار ما سواه اعتقاد أنه لا يضر ولا ينفع، وليس المراد الإزدراء والتنقيص)[٥].

٢. وقال الشبلي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف: ضبط حواسك، ومراعاة أنفاسك)[٦].

---

(١)السهروردي: العلامة، الفيلسوف المنطقي، شهاب الدين يحيى بن حبش بن أميرك السهروردي، كان يتوقد ذكاء. بارعا في أصول الفقه، فصيحا. له عدة مصنفات.توفي سنة (٥٨٧هـ). [سير أعلام النبلاء]

(٢) يوسف خطار محمد: الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية، ص٣٨.

(٣)احمد زروق: احمد بن احمد بن محمد بن عيسى البرلسي، الفاسي، المالكي، الشهير بزروق (شهاب الدين أبو الفضل)صوفي، فقيه، محدث. ولد بفاس، وتوفي في تكرين (٨٩٩ هـ/١٤٩٣م). [معجم المؤلفين: عمر كحالة]

(٤) أحمد زروق الفاسي: قواعد التصوف، القاعدة الثانية.

(٥) أبو اليسر عابدين: حكايا الصوفية ص٢٥-٢٦.

(٦) عبد الوهاب سبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص٩٤.

٣. وقال أبو الحسن الشاذلي رحمه اللّه تعالى:

(التصوف: تدريب النفس على العبودية، وردها لأحكام الربوبية)[١].

٤. وقال الشيخ محيي الدين بن عربي[٢] رحمه اللّه تعالى:

(التصوف هو الوقف مع الآداب الشرعية ظاهراً وباطناً.

وقال أيضاً:

(التصوف خلق فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في التصوف)[٣].

٥. وقال الإمام الجنيد رحمه اللّه تعالى:

(التصوف تصفية القلب عن موافقة البرية، ومفارقة الأخلاق الطبيعية، وإخماد الصفات البشرية، ومجانبة الدواعي النفسية، ومنازلة الصفات الروحانية، والتعلق بالعلوم الحقيقية، واستعمال ما هو أولى على الأبدية، والنصح لجميع الأمة، والوفاء للّه على الحقيقة، واتباع الرسول ﷺ في الشريعة)[٤].

– وأقول: وبعد أن تربيت على يدِ أشياخ التصوف الحقيقيين، وسلكت مسلكهم في تربية نفسي وأنْفُسٍ من خدمتهم من أجيال الشباب الكثيرين منذ أكثر من خمسين عاماً على هذه الطريق.

---

(١) حامد صفر: نور التحقيق، ص٩٣.

(٢)الشيخ محيي الدين بن عربي: محمد بن علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله، أبو بكر الطائي الحاتمي الأندلسي، والمعروف بابن عربي، صاحب التصنيفات الكثيرة في التصوف وغيره، ذكر أنه سمع بمرسية من ابن بشكوال، وسمع ببغداد ومكة ودمشق، توفي(٦٣٨هـ). [فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي].

(٣) شرح كلمات الصوفية ص٣٢٦ نقلاً عن الموسوعة اليوسفية.

(٤) التعرف لمذهب أهل التصوف، ص٢٥.

– أقول: إن التصوف هو طريق تحقيق التزكية للنفس التي ذكرت في القرآن الكريم في عدة آيات، وسبيل تحقيق مقام الإحسان الذي ذكره النبي ﷺ، هذا الطريق الذي يجب أن يسلكه كل مسلم ليكون مطبِقاً الشريعة على أكمل وجه متقيداً بالقرآن والسنة، فبالتصوف يعرف المسلم ربه حق المعرفة، فيسعى إلى تقوية علاقته به التي تجعل منه نموذجاً فذاً ومثالاً واقعياً لحقائق الإسلام والإيمان والإحسان.

۞ ۞ ۞

اشتقاق اسم التصوف

- نزل الوحي على رسول اللّه ﷺ بالإسلام وأخذ الرسول ﷺ يدعو إليه وكان نزول القرآن الكريم على رسول اللّه ﷺ نزولاً منجماً متتابعاً مدة ثلاث وعشرين سنة، وكان الصحابة الكرام كلما نزلت آيات من القرآن تلقوها من رسول اللّه ﷺ وتعلموها وحفظوها وعملوا بما فيها، ثم قاموا بالدعوة إليها.

فالصحابة ﷺ أخذوا تعاليم الإسلام عن النبي ﷺ، وأخذها عنهم من صَحِبَهم من التابعين، ثم أخذها عن التابعين من صحبهم ممن سُمُّوا تابعي التابعين، وهم الذين نَحَوْا بتلك التعاليم منحى تخصصياً، فمنهم من تخصص في القرآن الكريم وما يتعلق به من علوم كالتفسير وغيره، ومنهم من تخصص بالحديث النبوي وما يتعلق به من علوم فرعية كثيرة كعلم الرواية والدراية، ومنهم من تخصص بعلوم اللغة كالنحو والصرف والبلاغة والأدب وغير ذلك، ومنهم من تخصص في علم الفقه وما يتعلق به من الأحكام الشريعة، وقد دونت هذه العلوم المنقولة واستحدثت لها أسماء ومصطلحات متعددة لم تكن في زمن رسول اللّه ﷺ فمن اشتغل بالتفسير سُمي (مفسراً) ومن اشتغل بالحديث الشريف سُمي (محدثاً) ومن اشتغل في اللغة سُمي (لغوياً) ومن اشتغل بالفقه سُمي (فقيهاً) أما من اشتغل بالتربية والأخلاق والسلوك في طريق اللّه سُمي (صوفياً).

- إذن هذه الأسماء لم تكن على عهد رسول اللّه ﷺ وإنما هي مصطلحات وأسماء مستحدثة للعلوم الشرعية التي جاء بها سيدنا محمد ﷺ، فمن تخصص في علم من هذه العلوم أو غيرها فنسب إليه وسُمي باسمه المستحدث لا يتعارض عن تسميته مسلماً، إذْ ليس كل اسم أو وصف لم يأت في القرآن الكريم أو السنة الشريفة يحرم التسمي به بل هو جائز شرعاً فقد سمى اللّه سبحانه وتعالى المسلمين بأسماء عديدة السابقين الصالحين . المخبتين ... وغير ذلك بأعمال اتصفوا بها واستداموا عليها.

- كذلك سُمي بعض الصحابة بأسماء نسبة إلى قبائلهم أو أوطانهم مثل سيدنا أبي ذر (الغفاري) وسيدنا بلال (الحبشي) وسيدنا سلمان (الفارسي) وسيدنا صهيب (الرومي).

- نخلص ممن سبق إلى أن إطلاق التصوف والصوفي على من سلك منهج تزكية النفس في الإسلام لا يناقض ويعارض تسميته مسلماً، ولا يدل على خروج عن الإسلام وتعاليمه، ولا يثير شبهة ما، بل يدل على من أراد أن يتمسك بالسلوك الإسلامي الصحيح، والدين القويم، والتقرب من رب العالمين، كما جاء في القرآن الكريم وهدي النبي ﷺ.

- أما من أراد أن يتعرف على أصل هذا الاشتقاق فإنه سيجد أنه كثرت الأقوال فيه، ومما قيل فيه:

أولاً: أنه من الصوف، وتصوف إذا لبس الصوف، كما يقال تقمّص إذا لبس القميص، فهذا وجه، ولكن القوم لم يختصوا بلبس الصوف، وإن لبسه بعضهم.

- ويرد ابن تيمية على ذلك بذكره ما رواه أبو الشيخ الأصبهاني بإسناده عن محمد بن سيرين أنه بلغه أن قوماً يفضلون لبس الصوف، فقال: إن قوماً يتخيرون الصوف، يقولون: إنهم متشبهون بالمسيح ابن مريم، وهدي نبينا أحب إلينا، وكان النبي ﷺ يلبس القطن وغيره(1).

- بينما يرى أبو نصر السراج الطوسي(2) أن نسبتهم إنما هي إلى ظاهر اللبسة، لأن لبسة الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء ويكثر في ذلك الروايات والأخبار، ألا ترى أن اللّه تعالى ذكر طائفة من خواص أصحاب عيسى عليه السلام فنسبهم إلى

---

(١) ابن تيمية: مجموعة الفتاوى الجزء ١١، التصوف ص٨.

(٢)أبو نصر السراج عبد الله بن علي الطوسي، زاهد. كان شيخ الصوفية، على طريقة السنة. له كتاب في التصوف (اللمع) وهو أفضل ما كتب في التصوف توفي سنة (٣٧٨ هـ /٩٨٨ م) [الأعلام للزركلي]

ظاهر اللِّبْسة فقال ﷻ: ﴿ إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ ﴾[1]وكانوا قوماً يلبسون البياض فنسبهم اللّه تعالى إلى ذلك ولم ينسبهم إلى نوع من العلوم والأعمال والأحوال التي كانوا بها مترسمين، فذلك الصوفية عندي واللّه أعلم[2].

– هذا وأثر عن سيدنا الحسن البصري رضي اللّه عنه أنه قال:

(لقد أدركت سبعين بدرياً كان لُبْسُهم الصوف)[3].

ومن لبس الصوف لم يلبس لحظوظ النفس، وإنما لبسه لستر العورة.

ثانياً: أنه منسوب إلى أهل الصفة المشهورين زمن رسول اللّه ﷺ بالتفرغ للعلم والعبادة وقد كانت حياتهم المثل الأعلى الذي استهدفه رجال التصوف في العصور الإسلامية المتتابعة.

ثالثاً: إنه مشتق من الصف فكأنهم في الصف الأول بقلوبهم من حيث حضورهم مع اللّه تعالى، وتسابقهم في سائر الطاعات وهو عند ابن تيمية غلط أيضاً، فإنه لو كان كذلل لقيل: صَفِّيّ وعند القشيري[4] المعنى صحيح ولكن اللغة لا تقتضي هذه النسبة إلى الصف.

رابعاً: إنه من الصفاء حتى قال أبو الفتح البستي[5] رحمه اللّه تعالى:

---

(١) سورة المائدة:١١٢

(٢) أبو نصر السراج الطوسي: اللُّمَع، ص٤٠.

(٣)أبو نعيم: حلية الأولياء، ١٣٤/٢.

(٤)القشيري عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة النيسابوري القشيري، من بني قشير بن كعب، أبو القاسم، زين الاسلام: شيخ خراسان في عصره، كان زاهدا وعالما بالدين.كانت إقامته بنيسابور وتوفي فيها سنة (٤٦٥ هـ/١٠٧٢م) [الأعلام للزركلي].

(٥)أبو الفتح البستي: علي بن محمد بن الحسين بن يوسف بن محمد بن عبد العزيز البستي، شاعر عصره وكاتبه. ولد في بست (قرب سجستان) وإليها نسبته.توفي (٤٠٠ هـ /١٠١٠ م) [الأعلام للزركلي]

تنازع الناس في الصوفي واختلفوا
وظنه البعض مشتقاً من الصوف
ولست أمنح هذا الاسم غير فتىً
صفا فصوفي حتى سُمي الصوفي[١]

– ويشير الغزالي في كتاب عوارف المعارف إلى هذا المعنى فيقول:

(الصوفي هو الذي يكون دائم التصفية لا يزال يصفي الأوقات عن شوب الأكدار، بتصفية القلب عن شوب النفس، ويعينه على كل هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه، فبدوامِ الافتقار ينقى من الكدر، وكلما تحركت النفس وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة وفر بها إلى ربه، فبدوام تصفيته جمعيته، وبحركة نفسه تفرقته وكدره، فهو قائم بربه على قلبه، وقائم بقلبه على نفسه. قال تعالى: ﴿كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِ ﴾[٢]وهذه القوامية للّه على النفس هو التحقق بالتصوف)[٣].

– ويؤكد هذا المعنى الشيخ محمد أمين الكردي فيقول:

(علم التصوف مأخوذ من الصفاء، والصوفي إن صفا قلبه من الكدر، وامتلأ من العبر، استوى عنده الذهب والمدر[٤]) [٥].

– وقال بعض العارفين[٦]:

(١) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم في شرح الحكم.

(٢) سورة المائدة:٨

(٣) الغزالي: ملحق إحياء علوم الدين، ص٦٤.

(٤) المدر: التراب وقطع الطين اليابس.

(٥) محمد أمين الكردي: تنوير القلوب ص٤٤١.

(٦) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

يا واصفي أنت في التحقيق موصوفي
وعارفي لا تغالط أنت معروفي
إن الفتى من بعهدٍ في الأزل يوفي
صافى فصوفي لهذا سُمِّيَ الصوفي

بينما يرى القشيري: (أن اشتقاق الصوفي من الصفاء بعيد عن مقتضى اللغة) (١).

خامساً: إنه نسبة إلى الصفوة من خلق اللّه. قال ابن تيمية وهو غلط، لأنه لو كان كذلك لقيل صَفَوِيّ.

سادساً: من الصوفة، لأن الصوفي مع اللّه تعالى كالصوفة المطروحة لاستسلامه للّه تعالى.

سابعاً: مشتق من (صوفة) وذلك أن قوماً كانوا في الجاهلية يقال لهم صوفة انقطعوا إلى اللّه تعالى وقطنوا الكعبة فمن تشبه بهم من الناس سموا بالصوفية.

ثامناً: يرى بعض المستشرقين أن الكلمة راجعة إلى أصل يوناني أو بوذي أو غير ذلك وأنها مشتقة من الأصل اليوناني (صوفا) ومعناها الحكمة وهذا رأي فاسد مدسوس لا يوجد له دليل إيجابي قطعاً.

- والذي أراه بعد عرض هذه الآراء أن المتصوفة لقب لأناس اتصفوا بصفات معينة أذكرها لاحقاً، وأن الصوفي اسم جامد أو لقب أطلق على من ينتمي إليهم ليميزه من غيره.

- وهذا ما أكد عليه القشيري حيث قال:

(هذه التسمية غلبت على هذه الطائفة، فيقال: رجل صوفي وللجماعة صوفية، ومن يتوصل إلى ذلك يقال له: متصوف، وللجماعة: المتصوفة، وليس يشهد لهذا الاسم من حيث العربية قياس ولا اشتقاق وإلا ظهر فيه أنه كاللقب. ثم يقول:

---

(١) الرسالة القشيرية ص٢٧٩.

ثم إن هذه الطائفة أشهر من أن يحتاج في تعيينهم إلى قياس لفظ واستحقاق اشتقاق)[1].

– وقد عبر ابن خلدون عن ذلك أيضاً فقال:

(فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، أُخْتُصَّ المقبلون على العبادة باسم الصوفية)[2].

– وأخيراً فلا يهمنا أصل هذا الاشتقاق غير القياسي هل هو من الصوف أو من الصُّفَّة أو من الصف الأول أو الصفاء أو الصفوة وإن كان الظاهر يشير من قريب أو بعيد إلى أنه من هذا الأخير، المهم أن نعرف نشأتهم وحقائقهم وطرائقهم وأخلاقهم وصفاتهم وسلوكهم وأعمالهم.

---

(١) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(٢) ابن خلدون: المقدمة ص٣٢٩.

نشأة علم التصوف

- قال القشيري:

(اعلموا رحمكم اللّه أن المسلمين بعد رسول اللّه ﷺ لم يَتَسَمَّ أفاضلهم في عصرهم بتسمية علم سوى صحبة رسول اللّه ﷺ، إذ لا أفضلية فوقها، فقيل لهم «الصحابة» ولما أدرك العصر الثاني سمي من صحب الصحابة «التابعين» ورأوا ذلك أشرف تسمية، ثم قيل لمن بعدهم «أتباع التابعين». ثم اختلفت وتباينت المراتب، فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية بأمر الدين: «الزهاد والعباد» ثم ظهرت البدع وحصل التداعي بين الفرق فكل فريق ادَّعَوْا بأن منهم زهاداً، فانفرد خواص أهل السنة الراعون أنفسهم مع اللّه تعالى الحافظون قلوبهم عن طوارق الغفلة باسم «التصوف» واشتهر هذا الاسم لهؤلاء الأكابر بعد المائتين من الهجرة)[١].

- ولكن كما سيأتي يبدو أن هذا الاسم كان موجوداً قبل المئتين بقليل ولكنه اشتهر بعدها، ويقول الدكتور حسن إبراهيم حسن[٢]:

(ومن المسائل التي شغلت أفكار المسلمين في ذلك العصر «التصوف» وذلك أن كثيراً من المسلمين الذين اشتهروا بالورع والتقوى لم يجدوا في علم الكلام ما يقنع نفوسهم المولعة بحب اللّه

---

(١) الرسالة القشيرية: ص٣٨٩.

(٢)د.حسن إبراهيم حسن: دكتور في التاريخ والفلسفة، مصري ولد في طنطا وتعلم في الجامعة المصرية القديمة والمعلمين العليا وجامعة لندن ودرس التاريخ الإسلامي في كلية الآداب بالقاهرة واختير عميدا لها، ثم مديرا لجامعة الصعيد فمديرا لجامعة أسيوط وعين للتدريس في جامعة الرباط (بالمغرب) ومات أستاذا في جامعة بغداد. ودفن بالقاهرة سن (١٣٨٨ هـ / ١٩٦٨ م). [الأعلام للزركلي]

سبحانه وتعالى، فرأوا أن يتقربوا إليه عن طريق الزهد والتقشف وفناء الذات في حبه تعالى ومن ثم سموا «بالمتصوفين»[1].

- وقال المدائني[2] عن بعض العلماء: كان رجل من العرب في زمن النبي ﷺ مسرفاً على نفسه، لم يكن يتحرج، فلما أن توفي النبي ﷺ لبس الصوف، ورجع عما كان عليه، وأظهر الدين والنسك، فقيل له لو فعلت هذا والنبي ﷺ حي لفرح بك، قال: كان لي أمانان فمضى واحد وبقي الآخر قال الله تعالى:

﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ﴾[3]فهذا أمان والثاني:

﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾[4]

- هذا وأثر عن سيدنا الحسن البصري رضي الله عنه وكان تابعياً أنه قال:

(لقد أدركت سبعين بدرياً كان لباسهم الصوف)[5].

- كما روى عنه أنه قال: (لقيت صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يقبله وقال: معي أربعة دوانق فيكفيني ما معي)[6].

- وقيل إنّ أول من تسمى بالصوفي هو أبو هاشم الكوفي الذي ولد في الكوفة وأمضى سواد حياته في الشام وتوفي سنة /١٥٠هـ/[7].

---

(١) د. حسن إبراهيم حسن تاريخ الإسلام، ج٣، ص٢٢٠.

(٢)المدائني: أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الله، راوية ومؤرخ، كثير التصانيف، من أهل البصرة.سكن المدائن، ثم انتقل إلى بغداد فلم يزل بها إلى أن توفي (٢٢٥ هـ /٨٤٠ م) [الأعلام للزركلي].

(٣) سورة الأنفال:٣٣

(٤) سورة الأنفال:٣٣

(٥) أبو نعيم: حلية الأولياء، جزء٢ ص١٣٤.

(٦) لأبي نصر الطوسي: اللمع، ص٤٢.

(٧) ابن حجر: الفتاوى الحديثة.

فقد روى عن سفيان الثوري[1] رحمه اللّه أنه قال: (لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء)[2].

– وقيل أن أول من بنى دويرة التصوف بعض أصحاب عبد الواحد بن زيد[3]وهو من أصحاب الحسن البصري رحمه اللّه تعالى.

– ولقد ذكر أن الإمام مالك رحمه اللّه تعالى قال: (من تَفَقَّهَ ولم يَتَصَوَّفَ فقد تَفَسَّقَ، ومن تَصَوَّف ولم يتفقَّهْ فقد تَزَنْدَقَ ومن جمع بينهما فقد تحقَّقَ)[4].

ومن المعلوم أن الإمام مالك رحمه اللّه تعالى توفي سنة ١٧٩هـ في المدينة المنورة وهذا يدل على أن التصوف كان معروفاً بهذا الاسم في هذه الفترة.

– ولكن قيل إنّ أول من حدد نظريات التصوف وشرحها هو ذو النون المصري[5] /٢٤٥هـ/ تلميذ الإمام مالك وأن الذي شرحها وبوبها ونشرها هو الجنيد البغدادي المتوفى سنة /٣٣٤هـ/[1].

---

(١)(سفيان الثوري): أبو عبد الله سفيان بن سعيد بن مسروق الثوري، من بني ثور، أمير المؤمنين في الحديث.كان سيد أهل زمانه في علوم الدين والتقوى. ولد ونشأ في الكوفة وخرج من الكوفة ثم سكن مكة والمدينة. وانتقل إلى البصرة فمات فيها (١٦١ هـ/٧٧٨ م) له عدة كتب في الحديث [الأعلام للزركلي].

(٢) ذكره حاجي خليفة: في كشف الظنون.

(٣)عبد الواحد بن زيد: الزاهد البصري العابد شيخ الصوفية بالبصرة توفي سنة (١٧٧هـ).[الوافي بالوفيات] بالوفيات]

(٤)كتاب: (الشفا للقاضي) شرح ملا علي القارِئ جزء ٥ ص ٤٠٨و ذكرها أيضاً في كتابه (عين العلم و و زين الحلم) جزء ١ ص ٣٣ و نقلها كذلك العلامة العدوي على شرح الإمام أبي الحسن في الفقه المالكي جزء ٢ ص ١٩٥.

(٥)ذو النون المصري: أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم الأخميني المصري، أحد الزهاد العباد المشهورين. من أهل أهل مصر. نوبي الأصل من الموالي.كانت له فصاحة وحكمة وشعر. وهو أول من تكلم بمصر في (ترتيب الأحوال ومقامات أهل الولاية) وتوفي بجيزتها سنة (٢٤٥ هـ /٨٥٩ م). [الأعلام للزركلي]

– (وإن من أخلد ما كتب عن التصوف والصوفية كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف للإمام العالم العارف تاج الإسلام أبي بكر محمد بن إسحاق البخاري الكلاباذي المتوفى سنة(٣٨٠ هـ ٩٩٠م) وهو من أقدم وأدق وأنقى وأصفى ما كتب عن هذا العلم ورجاله كتبه العارف الكلاباذي في العصر الذهبي للتصوف في أوائل القرن الرابع للهجرة القرن الذي بلغ فيه التصوف كماله العلمي والفني واستكمل فيه التصوف علومه ومناهجه وآدابه وسلوكه ومقاماته) (٢).

– ثم بعد ذلك ظهر العديد من علماء التصوف ومشاهيرهم وأصبح لهم طرقاً يسلكونها للوصول إلى غايتهم وانتشر التصوف في جميع أرجاء الأمة الإسلامية وعلى مر العصور والأزمنة، وفي جميع البقاع والأمكنة، حتى وقتنا الحاضر.

---

(١) محمد فايز المط من كنوز الإسلام، ص٩٤.

(٢) مقدمة لجنة نشر كتاب التعرف لمذهب أهل التصوف ص٧.

ارتباط التصوف بالشريعة

– يظن كثير من المسلمين الذين لم يطلعوا على حقائق التصوف أن أصحاب التصوف هم من أهل البدع الخارجين عن الإسلام أو المرتدين عنه، أو البعيدين عن تعاليمه، أو المدسوسين لهدمه.

– لكن المنصف عندما يدرس حقائقهم وأهدافهم وغاياتهم وطرائقهم ويعيش في مدارسهم ويسلك سلوكهم ويتربى في كنفهم، يجد أنهم على الإسلام الحقيقي، والإيمان الكامل، فهم يتمسكون بتعاليم القرآن الكريم، وهدي النبي العظيم ﷺ، وأنهم لا يخرجون عن الشريعة قيد أنملة، وأن تعاليمهم لا تخرج عن منهج التزكية الذي ذكره القرآن الكريم، والسعي إلى مقام الإحسان الذي ذكره النبي العدنان ﷺ.

– وعندما يتدبَّرُ المسلم القرآن الكريم يجد أن هناك آيات متعددة بينت مهمة النبي ﷺ في نشر الدعوة وأنها أربع وهي:

أولاً: تعليم المسلمين آيات القرآن الكريم تلاوة وعملاً وتطبيقاً.

ثانياً: تزكية النفس وهي التربية الروحية.

ثالثاً: تعليمهم أحكام القرآن الكريم وأهدافه ومقاصده.

رابعاً: تعليمهم الحكمة وهي السلوك العملي للمؤمن في هذه الحياة مع كل المخلوقات.

من هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾[1]

(١) سورة الجمعة:٢

- ورجال التصوف قاموا بحمل هذه المهمات خير قيام، ولكن كان اهتمامهم بتزكية النفس أكثر، لأنهم وجدوها السبيل الأمثل لتحقيق المهمات الأخرى، وأنها السبيل الوحيد لإعادة المؤمنين إلى صفاء الإسلام والإيمان، الذي كان على عهد رسول اللّه ﷺ بين صحابته الكرام الذين رباهم النبي ﷺ وزكاهم فكانوا خير أمة أخرجت للناس.

ودفعهم إلى ذلك ما حدث من تغير بعد ذلك في نفوس بعض المسلمين، بسبب الانغماس بالدنيا والشهوات والملذات إثر الفتوحات واختلاطهم بالأمم الأخرى.

- وهذا ما أشار إليه ابن خلدون في مقدمته وهو يتحدث عن علم التصوف قال:

(فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية والمتصوفة)[١].

- ومن الأصول التي اعتمدوها في منهجهم الحديث الصحيح المشهور والذي جرى بين جبريل وهو في هيئة رجل أسود الشعر أبيض الثياب وبين رسول اللّه ﷺ وهو جالس مع أصحابه، هذا الحديث الذي جرى على طريقة الحوار، جبريل يسأل ويصدق وسيدنا محمد ﷺ يجيب سأله عن أركان الدين الإسلام والإيمان والإحسان ولقد اختص كل فريق من العلماء بأحد الأركان فأركان الإسلام اهتم بها أصحاب العقيدة والفقه وأركان الإيمان اهتم بها أصحاب العقيدة والكلام، والإحسان كما عرفه النبي ﷺ: «أن تعبد اللّه كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك»[٢].

---

(١) مقدمة ابن خلدون، علم التصوف ص٣٢٩.

(٢) متفق عليه.

اهتم به الدعاة والمربون والمصلحون وهم أصحاب التصوف، وسعوا إلى تحقيقه ضمن برنامج مستمد من القرآن والسنة من خلال المحبة للّه ورسوله واتباع سنة رسول اللّه في كل الأحوال ومن خلال الذكر والدعوة إلى الصدق والإخلاص والاستقامة وغير ذلك.

- سئل الإمام الحافظ السيد محمد صديق الغماري رحمه اللّه عن أول من أسس التصوف وهل هو بوحي سماوي؟ فأجاب: (أما أول من أسس الطريقة، فلنعلم أن الطريقة أسسها الوحي السماوي في جملة ما أسس من الدين المحمدي، إذ هي بلا شك مقام الإحسان الذي هو أحد أركان الدين الثلاثة التي جعلها النبي ﷺ بعدما بينها واحداً واحداً ديناً بقوله: «هذا جبريل عليه السلام أتاكم يعلمكم دينكم»).

وهو الإسلام والإيمان والإحسان، فالإسلام طاعة وعبادة، والإيمان نور وعقيدة، والإحسان مقام مراقبة ومشاهدة: «أن تعبد اللّه كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك».

- ثم قال السيد محمد صديق الغماري في رسالته تلك: (فإنه كما في الحديث، الدين عبارة عن الأركان الثلاثة، فمن أخل بهذا المقام (الإحسان)، فدينه ناقص بلا شك لتركه ركناً من أركانه، فغاية ما تدعو إليه الطريقة وتشير إليه هو مقام الإحسان بعد تصحيح الإسلام والإيمان)[1].

- هذا وإننا إذا درسنا الشريعة من خلال آيات القرآن الكريم، وما أثر عن النبي ﷺ من الأقوال والأفعال والأحوال، وما دوّن في الكتب حول ذلك نجد أنها تنقسم إلى قسمين:

أولاً: أفعال وهيئات وأمور محسوسة كقيام وقعود وركوع وسجود وتلاوة وتسبيح وأدعية وأذكار، وأحكام ومناسك وغير ذلك وكل ذلك تكفل به أصحاب الحديث ورواته، وعلماء الفقه والشريعة. جزاهم اللّه عن الأمة خيراً. فحفظوا للأمة دينها وسهلوا لها العمل به.

---

(١) انتصار الطريقة الصوفية، للمحدث محمد صديق الغماري ص٦.

ثانياً: كيفيات باطنية كانت تصاحب هذه الأفعال والهيئات عند الأداء وتلازم الرسول ﷺ قياماً وقعوداً وركوعاً وسجوداً، وداعياً وذاكراً، وآمراً وناهياً، وفي خلوة البيت وساحة الجهاد، وهي الإيمان والإخلاص والاحتساب والصبر والتوكل والزهد وغنى القلب والإيثار والسخاء والأدب والتقوى والورع والحياء والخشوع والتضرع والابتهال، وإيثار الآخرة على العاجلة، والشوق إلى لقاء اللّه، إلى غير ذلك من كيفيات باطنية وأخلاق إيمانية، وسلوك إسلامي، وآداب قرآنية نبوية. هي من الشريعة بمنزلة الروح من الجسد، والباطن من الظاهر وتتدرج تحت هذه العناوين تفاصيل وجزئيات وآداب وأحكام تجعل منها علماً مستقلاً، وفقهاً منفرداً فإن سمي العلم الذي تكفل بشرح الأول وإيضاحه وتفصيله والدلالة على طرق تحصيله (فقه الظاهر) سُمي هذا العلم الذي يتكفل بشرح هذه الكيفيات ويدل على طرق الوصول إليها (فقه الباطن)، ولئن تكفل أهل الفقه والحديث والعقيدة والسيرة بعلم الظاهر، فإن أهل التصوف تكفلوا بفقه الباطن وسموا هذا الفقه بالتصوف ولو أنهم سموه بعلم التزكية أو بالإحسان أو بفقه الباطن أو بالتربية الروحية لكان بذلك أجدر وأقرب للواقع، وأبعد عن الخلاف والشقاق الذي نراه حول هذه التسمية.

– وفي هذا الموضوع يقول أبو نصر السراج الطوسي رحمه اللّه:

(أنكرت طائفة من أهل الظاهر وقالوا: لا نعرف إلا علم الشريعة الظاهرة التي جاء بها الكتاب والسنة، وقالوا: لا معنى لقولكم علم الباطن وعلم التصوف، فنقول، وباللّه التوفيق.

إن علم الشريعة علم واحد، وهو اسم واحد يجمع معنيين: الرواية والدراية؛ فإذا جمعتهما فهو علم الشريعة الداعية إلى الأعمال: الظاهرة والباطنة، ولا يجوز أن يجرَّد القول في العلم: أنه ظاهر أو باطن لأن العلم متى ما كان في القلب فهو باطن فيه، إلى أن يجري ويظهر على اللسان؛ فإذا جرى على اللسان فهو ظاهر، غير أنّا نقول:

إن العلم: ظاهر، وباطن، وهو علم الشريعة الذي يدل ويدعو إلى الأعمال الظاهرة والباطنة، والأعمال الظاهرة كأعمال الجوارح الظاهرة، وهي العبادات والأحكام، مثل الطهارة والصلاة والزكاة والصوم والحج والجهاد وغير ذلك؛ فهذه العبادات، وأما الأحكام فالحدود والطلاق والعتاق والبيوع والفرائض والقصاص وغيرها، فهذا كله على الجوارح الظاهرة التي هي الأعضاء، وهي الجوارح، وأما الأعمال الباطنة فكأعمال القلوب وهي المقامات والأحوال، مثل التصديق، والإيمان، واليقين، والصدق، والإخلاص، والمعرفة، والتوكل، والمحبة، والرضا، والذكر، والشكر، والإنابة، والخشية، والتقوى، والمراقبة، والفكرة والاعتبار، والخوف، والرجاء، والصبر، والقناعة، والتسليم، والتفويض، والقرب، والشوق، والوجد، والوجل، والحزن، والندم، والحياء، والخجل، والتعظيم، والإجلال، والهيبة، ولكل عمل من هذه الأعمال الظاهرة والباطنة علمٌ وفقه وبيان وفهم وحقيقة ووجد، ويدل على صحة كل عمل منها من الظاهر والباطن آيات من القرآن وأخبار عن الرسول ﷺ علمه من علمه، وجهله من جهله؛ فإذا قلنا: علم الباطن أردنا بذلك علم أعمال الباطن التي هي على الجارحة الباطنة، وهي القلب، كما أنا إذا قلنا: علم الظاهر أشرنا إلى علم الأعمال الظاهرة التي هي على الجوارح الظاهرة، وهي الأعضاء.

وقد قال اللّه تعالى: ﴿وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗ﴾(1)

فالنعمة الظاهرة ما أنعم اللّه تعالى بها على الجوارح الظاهرة من فعل الطاعات، والنعمة الباطنة ما أنعم اللّه تعالى بها على القلب من هذه الحالات، ولا يستغنى الظاهر عن الباطن ولا الباطن عن الظاهر، وقد قال اللّه ﷻ:

﴿وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡ﴾(2)

---

(1) سورة لقمان: ٢٠

(2) سورة النساء:٨٣

فالعلم المستنبط هو العلم الباطن، وهو علم أهل التصوّف، لأن لهم مستنبطات من القرآن والحديث غير ذلك، ونحن نذكر إن شاء اللّه طرفاً من ذلك؛ فالعلم ظاهر وباطن، والقرآن ظاهر وباطن، وحديث رسول اللّه ﷺ ظاهر وباطن، والإسلام ظاهر وباطن، ولأصحابنا في معنى ذلك استدلالات واحتجاجات من الكتاب والسنة والعقل، وشرحه يطول ويخرج على حدّ الاختصار إلى حد الإكثار، وفيما قلنا كفاية، وباللّه التوفيق)[١].

– وهنا يجب أن نعلم أن الشريعة لها فقهها الظاهري وفقهها الباطني والمسلم الكامل والداعي الناجح هو من يتعلم ويتمسك ويعمل بكلا الفقهين.

فمن تعلم الفقه الظاهري وترك الفقه الباطني فهو لم يتعلم دينه كاملاً، ومن تعلم الفقه الباطني وترك الفقه الظاهري فهو لم يتعلم دينه كاملاً أيضاً.

ومن تمسك بأحدهما ونادى به عالياً دون الآخر فلا يعد دينه كاملاً.

لذلك من ادّعى التصوف ولم يتعلم الفقه الظاهري ولم يعمل به فلا يعتد به ولا يكون قدوة لغيره ولا يمثل الإسلام بكامله.

ومن ادّعى التصوف ولم يتمسك بالشريعة أي بالقرآن والسنة فليس له من الإسلام حظ ولا صلة.

– ولا أدل على هذه الحقائق من الذي ورد عن كبار علماء أهل التصوف في ذلك.

قال الإمام سهل التستري[٢]: (أصولنا ستة: التمسك بكتاب اللّه، والاقتداء بسنة رسول اللّه ﷺ، وأكل الحلال، وكف الأذى، واجتناب الآثام، وأداء الحقوق)[٣].

---

(١) أبو نصر السراج: اللمع ص٤٣-٤٤.

(٢)سهل التستري: هو أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس التستري، أحد أئمة الصوفية وعلمائهم والمتكلمين في علوم الإخلاص والرياضيات وعيوب الأفعال. توفي سنة (٢٨٣ هـ/٨٩٦ م)[الأعلام للزركلي]

(٣) دائرة معارف الشعب، جـ٣ ص٤٨١.

وقال أبو يزيد البسطامي: (لو نظرتم إلى رجل أُعطي الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به حتى تجدوه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود وأداء الشريعة) [١].

ويقول الجنيد: (الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ)[٢].

ويقول أيضاً: (من لم يحفظ القرآن، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن عملنا هذا مقيد بالكتاب والسنة) [٣].

وقال الشيخ أبو القاسم النصر أباذي[٤] رحمه الله:

(أصل التصوف ملازمة الكتاب والسنة وترك الأهواء والبدع ورؤية أعذار الخلائق والمداومة على الأوراد وترك الرخص والتأويلات) [٥].

وقال ابن عطاء الله السكندري[٦]: (من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب ﷺ في أوامره وأفعاله وأخلاقه) [٧].

---

(١) القشيري: الرسالة القشيرية، ص١٣.

(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء، جزء٤،ص٣٧٥.

(٣) المصدر نفسه، جزء٤،ص٣٧٣.

(٤)النصر أباذي: هو أبو القاسم إبراهيم بن محمد النصر أباذي نسبة إلى نصر أباذ محلة من محال نيسابور وهو شيخ نيسابور، المحدث والمؤرخ.صحب الشبلي، وأبا على الروذباري، والمرتعش، وغيرهم. وهو أستاذ أبي عبد الرحمن السلمي. مات بمكة ودفن بقرب الفضيل سنة (٣٦٧هـ) [طبقات الأولياء].

(٥) ابن الملقن: طبقات الأولياء، ص٥.

(٦) تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري المالكي الصوفي الواعظ المذكر، وكان رجلاً صالحاً عالماً يتكلم على كرسي ويحضر ميعاده خلق كثير، وكان لوعظه تأثير في القلوب، وكان له معرفة تامة بكلام أهل الحقائق وأرباب الطريق توفي بالقاهرة سنة (٧٠٩هـ). [النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي]

(٧) أبو نعيم: حلية الأولياء، جزء٤، ص٤٠٠.

وقال أبو حمزة البغدادي[1]: (لا دليل على الطريق إلى اللّه إلا متابعة الرسول ﷺ في أحواله وأقواله وأفعاله) [2].

أما حجة الإسلام أبو حامد الغزالي فقال عن الصوفي: (إن سالك سبيل اللّه قليل والدَّعِيّ فيه كثير ونحن نعرفك علامتين له:

الأولى: أن تكون جميع أفعاله موزونة بميزان الشرع موقوفة على توقيفاته إيراداً وإصداراً وإقداماً وإحجاماً، إذ لا يمكن سلوك السبيل إلا بعد التلبس بمكارم الشريعة كلها.

الثانية: لا يصل إليه إلا من واظب على جملة من النوافل فكيف يصل إليه من أهمل الفرائض)[3].

وقد تحدث الإمام أحمد بن تيمية رحمه اللّه تعالى عن تمسك الصوفية بالكتاب والسنة في الجزء العاشر من مجموعة فتاويه فقال: (فأما المستقيمون من السالكين كجمهور مشايخ السلف مثل الفضيل بن عياض، وإبراهيم بن أدهم، وأبي سليمان الداراني، ومعروف الكرخي، والسري السقطي، والجنيد بن محمد، وغيرهم من المتقدمين ومثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ حماد، والشيخ أبي البيان، وغيرهم من المتأخرين، فلا يسوغون للسالك ولو طار في الهواء أو مشى على الماء أن يخرج عن الأمر والنهي الشرعيين، بل عليه أن يعمل المأمور ويدع المحظور إلى أن

---

(١)أبو حمزة البغدادي: محمد بن إبراهيم البغدادي الصوفي. جالس بشراً الحافي، والإمام أحمد. وصحب السري بن المغلس.وكان بصيرا بالقراءات.وكان كثير الرباط والغزو.توفي سنة (٢٦٩هـ).[سير أعلام النبلاء]

(٢) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق، جزء٦، ص٤١٩.

(٣) أبو حامد الغزالي:ميزان العمل ص١٤٥.

يموت، وهذا هو الحق الذي دل عليه الكتاب والسنة وإجماع السلف، وهذا كثير في كلامهم)[1].

هذا ويصفهم في موضع آخر بأنهم من أكمل صدِّيقي زمانهم[2].

– من كل ما ورد نخلص إلى أن التصوف يدعو إلى التمسك بالكتاب والسنة وما كان مخالفاً لهما فليس من التصوف، وإنما هو بدعة أو دس أو افتراء أو مصلحة ذاتية أو هوى نفس ممن ادعى التصوف، والتصوف منه براء.

۞ ۞ ۞

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج١٠، ص٥١٦–٥١٧.

(٢) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ج١١، ص١٣.

ما السبب في أن التصوف لم يظهر إلا بعد عهد الصحابة والتابعين؟

- يجيب على هذا السؤال المهم الدكتور أحمد علوش[1] فيقول:

(قد يتساءل الكثيرون عن السبب في عدم ظهور هذه الدعوة إلا بعد عهد الصحابة والتابعين والجواب عن هذا: أنه لم تكن ثمة حاجة إليها في العصر الأول، لأن أهل ذاك العصر كانوا أهل تقىً وورع، وأرباب مجاهدة وإقبال على العبادة بطبيعتهم، وبحكم قرب اتصالهم برسول الله ﷺ، كانوا يتسابقون ويتبادرون في الاقتداء به في ذلك كله، فلم يكن ثمة ما يدعو إلى تلقينهم علماً يرشدهم إلى أمر هم قائمون به فعلاً، وإنما مثلهم في ذلك كله كمثل العربي القحِّ، يعرف اللغة العربية بالتوارث كابراً عن كابر حتى إنه ليقرض الشعر البليغ بالسليقة والفطرة دون أن يعرف شيئاً من قواعد اللغة والإعراب والنظم والقريض، فمثل هذا لا يلزمه أن يتعلم النحو ودروس البلاغة، ولكن علم النحو وقواعد اللغة والشعر تصبح لازمة وضرورية عند تفشي اللحن، وضعف التعبير، أو لمن يريد من الأجانب أن يتفهمها ويتعرف عليها، أو عندما يصبح هذا العلم ضرورة من ضرورات الاجتماع كبقية العلوم التي نشأت وتألفت على توالي العصور في أوقاتها المناسبة.

فالصحابة والتابعون، وإن لم يتسموا باسم المتصوفين. كانوا صوفيين فعلاً وإن لم يكونوا كذلك اسماً، وماذا يراد بالتصوف أكثر من أن يعيش المرء لربه لا لنفسه، ويتحلى بالزهد وملازمة العبودية، والإقبال على الله بالروح والقلب في جميع الأوقات وسائر الكمالات التي وصل بها

---

(١) أحمد علوش: هو من الرواد الأوائل الذين نقلوا حقائق التصوف الإسلامي إلى اللغات الأجنبية وكان له اكبر الأثر في تصحيح الأفكار والرد على المستشرقين [نقلاً عن الموسوعة اليوسفية ص١٦].

الصحابة والتابعون من حيث الرقي الروحي إلى أسمى الدرجات، فهم لم يكتفوا بالإقرار في عقائد الإيمان، والقيام بفروض الإسلام، بل قرنوا الإقرار بالتذوق والوجدان، وزادوا على الفروض الإتيان بكل ما استحبه الرسول ﷺ من نوافل العبادات، وابتعدوا عن المكروهات فضلاً عن المحرمات، حتى استنارت بصائرهم، وتفجرت ينابيع الحكمة من قلوبهم، وفاضت الأسرار الربانية على جوانحهم، وكذلك كان شأن التابعين وتابعي التابعين، وهذه العصور الثلاثة كانت أزهى عصور الإسلام وخيرها على الإطلاق، وقد جاء عن رسول اللّه ﷺ قوله: «خير القرون قرني هذا فالذي يليه والذي يليه»(١) فلما تقادم العهد، ودخل في حظيرة الإسلام أممٌ شتى، وأجناس عديدة، واتسعت دائرة العلوم وتقسمت وتوزعت بين أرباب الاختصاص، قام كل فريق بتدوين الفن والعلم الذي يجيده أكثر من غيره، فنشأ بعد تدوين النحو في الصدر الأول علم الفقه، وعلم التوحيد، وأصول الدين، وعلوم الحديث، والتفسير، والمنطق ومصطلح الحديث، وعلم الأصول، والفرائض (الميراث) وغيرها...

وحدث بعد هذه الفترة أن أخذ التأثير الروحي يتضاءل شيئاً فشيئاً، وأخذ الناس يتناسون ضرورة الإقبال على اللّه بالعبودية، والقلب والهمة، مما دعا أرباب الرياضة والزهد إلى أن يعملوا هُم من ناحيتهم أيضاً على تدوين علم التصوف، وإثبات شرفه وجلاله وفضله على سائر العلوم، ولم يكن ذلك منهم احتجاجاً على انصراف الطوائف الأخرى إلى تدوين علومهم . كما يظن ذلك . خطأً بعضُ المستشرقين . بل كان سداً للنقص، واستكمالاً لحاجات الدين في جميع نواحي النشاط، مما لا بد منه لحصول التعاون على تمهيد أسباب البر والتقوى)(٢).

– كما أن أبا نصر السراج الطوسي أجاب على هذا السؤال فقال في باب الرد على من قال:

---

(١) متفق عليه.

(٢) مجلة العشيرة المحمدية عدد محرم (١٣٧٦هـ) من بحث التصوف من الوجهة التاريخية للدكتور أحمد علوش.

لم نسمع بذكر الصوفية في القديم وهو اسم مُحْدَث:

(إن سأل سائلٌ فقال: لم نسمع بذكر الصوفية في أصحاب رسول اللّه ﷺ رضي الله عنهم أجمعين، ولا فيمن كان بعدهم، ولا نعرف إلا العبَّاد والزهَّاد والسيَّاحين والفقراء؛ وما قيل لأحد من أصحاب رسول اللّه ﷺ: «صوفيٌّ»، فنقول وباللّه التوفيق:

الصُّحبة مع رسول اللّه ﷺ لها حرمة، وتخصيص من شمله ذلك، فلا يجوز أن يعلق عليه اسم على أنه أشرفُ من الصحبة، وذلك لشرف رسول اللّه ﷺ وحرمته، ألا ترى أنهم أئمة الزهَّاد والعبَّاد والمتوكلين والفقراء والراضين والصابرين والمخبتين، وغير ذلك، وما نالوا جميع ما نالوا إلا ببركة الصحبة مع رسول اللّه ﷺ، فلمَّا نُسبوا إلى الصحبة التي هي أجلُّ الأحوال استحال أن يفضلوا بفضيلة غير الصحبة التي هي أجلُّ الأحوال وباللّه التوفيق.

– وأما قول القائل: إنه اسم محدث أحدثه البغداديون، فمحال، لأن في وقت الحسن البصري رحمه اللّه كان يُعرف هذا الاسم، وكان الحسن قد أدرك جماعة من أصحاب رسول اللّه ﷺ ورضي عنهم، وقد رُوى عنه أنه قال: رأيتُ صوفياً في الطواف فأعطيته شيئاً فلم يأخذه وقال: معي أربعة دوانيق فيكفيني ما معي).

– ورُوي عن سفيان الثوري رحمه اللّه أنه قال: (لولا أبو هاشم الصوفي ما عرفت دقيق الرياء)[1].

– ولخص ابن خلدون الإجابة على هذا السؤال فقال:

(وهذا العلم يعني التصوف من العلوم الشرعية الحادثة في الملَّة وأصله أن طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية، وأصلها العكوف على العبادة، والانقطاع إلى اللّه تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والزهد في

(١)اللمع، ص٤٢.

ما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه، والانفراد عن الخلق، والخلوة للعبادة، وكان ذلك عاماً في الصحابة والسلف، فلما فشا الإقبال على الدنيا في القرن الثاني وما بعده، وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية)(١).

– ويقول الشاطبي(٢) ناقلاً عن أبي القاسم القشيري ما يلي:

(إنهم إن اختصوا باسم التصوف انفراداً به عن أهل البدع فذكر أن المسلمين بعد رسول اللّه ﷺ لم يتسم أفاضلهم في عصرهم باسم علم سوى الصحبة إذ لا فضيلة فوقها ثم سمى من يليهم التابعين ورأوا هذا الاسم أشرف الأسماء ثم قيل لمن بعدهم اتباع التابعين ثم اختلف الناس وتباينت المراتب فقيل لخواص الناس ممن لهم شدة عناية في الدين: الزهاد والعباد وقال: ثم ظهرت البدع وأدعى كل فريق أن منهم زهاداً وعباداً فانفرد خواص أهل السنة الراعون أنفسهم من اللّه، الحافظون قلوبهم عن الغفلة باسم التصوف)(٣).

– من هذه النصوص السابقة، يتبين لنا أن التصوف ليس أمراً مستحدثاً جديداً، ولكنه مأخوذ من توجيهات القرآن الكريم، وسيرة الرسول ﷺ، وحياة أصحابه الكرام، ومن تبعهم بإحسان، ولم يظهر اسم التصوف في عهد النبي وصحابته لأن الإسلام كلٌ لا يتجزأ وقد ظهر الإسلام في حياتهم كلها، تطبيقاً عملياً، فلما توسعت رقعة الإسلام، وانتشر في ربوع البلاد المختلفة، وحدث الاختلاط بالأقوام الأخرى من جهة، وأخذ العلماء يتخصصون به في ميادين العلوم الإسلامية من جهة أخرى، اهتم أناس بفقه الباطن والتطبيق العلمي للأخلاق والسلوك الإسلامي، والعودة

---

(١) ابن خلدون:المقدمة، علم التصوف ص٣٢٩.

(٢)الشاطبي: هو أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي، الغرناطي، المالكي الشهير بالشاطبي، محدث، فقيه أصولي، لغوي، مفسر. له مؤلفات عديدة، توفي سنة (٧٩٠ هـ/١٣٨٨ م)

(٣) الشاطبي: الاعتصام، جـ١، ص٨٩.

بالإسلام إلى جوهره وحقيقته وأخلاقه وما كان عليه عهد النبي وصحابته وسموا بذلك تسمية تخصصية وهي الصوفية.

- ويؤيد كل ذلك ما قاله الإمام الغزالي في كتاب عوارف المعارف:

(وقيل لم يعرف هذا الاسم إلى المائتين من الهجرة النبوية، لأن في زمن رسول اللّه ﷺ كان أصحاب رسول اللّه ﷺ يسمون الرجل صحابياً لشرف صحبة رسول اللّه ﷺ وكون الإشارة إليها أولى من كل إشارة، وبعد انقراض عهد رسول اللّه، من أخذ منهم العلم سمي تابعياً، ثم لما تقادم زمن الرسالة، وبعد عهد النبوة وانقطع الوحي السماوي، وتوارى النور المصطفوي، واختلفت الآراء وتنوعت الأنحاء، وتفرد كل ذي رأي برأيه، وكدر شرب العلم شوب الأهوية، وتزعزعت أبنية المتقين، واضطربت عزائم الزاهدين، وغلبت الجهالات وكثف حجابها، وكثرت العادات وتملكت أربابها، وتزخرفت الدنيا وكثر خطابها، تفرد طائفة بأعمال صالحة وأحوال سنية وصدق عزيمة وقوة في الدين، وزهدوا في الدنيا ومحبتها، واغتنموا العزلة والوحدة، واتخذوا لنفوسهم زوايا يجتمعون فيها تارة وينفردون أخرى أسوة بأهل الصفة وتهيأ لهم صفاء الفهوم لقبول العلوم، وصار لهم بعد اللسان لسان، وبعد العرفان عرفان، وبعد الإيمان إيمان، كما قال حارثة أصبحت مؤمناً حقاً، حيث كوشف برتبة من الإيمان غير ما يتعاهدها، فصار لهم بمقتضى ذلك علوم يعرفونها، وإشارات يتعاهدونها، فحرروا لنفوسهم اصطلاحات تشير إلى معان يعرفونها، وتعرب عن أحوال يجدونها، فأخذ ذلك الخلف من السلف، حتى صار ذلك رسماً مستمراً وخبراً مستقراً في كل عصر وزمان فظهر هذا الاسم بينهم وتَسَمَّوْا به وسموا به، فالإسلام سمتهم، والعلم باللّه صفتهم، والعبادة حليهم، والتقوى شعارهم، وحقائق الحقيقة أسرارهم)[1].

---

(١) ملحق إحياء علوم الدين، ص٦٦.

موقف السلف الصالح من التصوف

- إن أهم ما يزيل كل لبس أو نقد أو فكرة تعترض المسلم فيما يتعلق بموضوع التصوف، هو موقف ورأي وأقوال السلف الصالح، من العلماء الأكابر، في هذا الموضوع، فموقفهم وأقوالهم وآراؤهم في التصوف -وهم الأقرب من الشريعة وعهد النبوة زمناً وعلماً وتقديراً للأمور- هو الحكم الفصل، لا موقف وأقوال وآراء المبغضين أو الحاسدين أو المغرضين أو مدعي العلم أو غيرهم من الأبواق التي تتحدث بألسنة غيرهم دون علم أو فهم أو تبين.

- هؤلاء السلف الذين كانوا من أكابر العلماء في الفقه وغيره من العلوم الإسلامية والذين اشتغلوا وقتئذ في الدراسة والبحث والاستنباط ومع ذلك لم يمنعهم ذلك من اتباع طريقة التصوف أو مصاحبة أصحابها أو الاستفادة منهم.

- وإليك بعض مواقف السلف الصالح من التصوف من خلال أقوالهم:

أولاً: الإمام مالك رحمه اللّه تعالى:

يقول الإمام مالك رحمه اللّه تعالى: (من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق) [1].

وهذا يدلنا على أن الإمام مالك يدعو إلى الجمع بين فقه الظاهر وفقه الباطن.

ومعنى قوله هذا أي من تعلم الفقه -و هو الفقه الظاهري- ولم يتصوف أي ولم يتعلم -الفقه الباطني- فقد تفسق أي يُخشى عليه من الفسق- أي الخروج عن المقاصد الحقيقية من أحكام الشرع.

(١) كتاب:(الشفا بالقاضي) شرح ملا علي القارئ جزء ٥ ص ٤٠٨و ذكرها أيضاً في كتابه (عين العلم و زين الحلم) جزء ١ ص ٣٣ و نقلها كذلك العلامة العدوي على شرح الإمام أبي الحسن في الفقه المالكي جزء ٢ ص ١٩٥.

وقوله ومن تصوف -أي سار في طريق أهل التصوف-، ولم يتفقه- أي لم يجالس علماء الفقه- فقد تزندق -أي يُخشى عليه من أن يصبح زنديقاً بعيداً عن الدين بتلبسه ببدع نتيجة جهله بالأحكام الشرعية-.

ومن جمع بين الفقه و التصوف ،فقد تحقق- أي وصل إلى الحقيقة الصحيحة في فهم الدين وتطبيقه- .

ثانياً: الإمام أبو حنيفة رحمه اللّه تعالى:

(نقل الفقيه الحنفي الحصكفي[1] صاحب الدر: أن أبا علي الدقاق رحمه اللّه تعالى قال: أنا أخذت هذه الطريقة من أبي القاسم النصر أبادي، وقال أبو القاسم: أنا أخذتها من الشبلي، وهو من السري السقطي، وهو من معروف الكرخي، وهو من داود الطائي، وهو أخذ العلم والطريقة من أبي حنيفة النعمان ﷺ وكل منهم أثنى عليه وأقر بفضله)[2].

وهذا يدلنا أن الإمام أبا حنيفة كان صاحب علم وهو صاحب المذهب، وصاحب طريقة فقد جمع فقه الظاهر وفقه الباطن.

ثالثاً: الإمام الشافعي رحمه اللّه تعالى:

(يقول صحبت الصوفية فاستفدت منهم ثلاث كلمات:

---

(١)ابن الملا الحصكفي: أحمد بن محمد بن علي الحصكفي، فاضل عارف بالأدب، له شعر حسن. أصله من حصن كيفا، ونسبته إليها. ولد في حلب وأقام فيها. له كتب ورسائل كثيرة توفي سنة (١٠٠٣ هـ/ ١٥٩٥م) [الأعلام للزركلي]

(٢) الحصكفي: الدر المختار ج١، ص٤٣ وعليه حاشية ابن عابدين -وكل من ذكر في هذه المقالة من الأشخاص هم من رجالات الصوفية المشهورين- ومع ذلك فإن أخذهم كان عن الفقيه المشهور صاحب المذهب أبي حنيفة.

قولهم: الوقت سيف إذا لم تقطعه قطعك.

وقولهم: نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

وقولهم: العدم عصمة)[1]. أي عدم حب الظهور أمام الآخرين عصمة من الوقوع في الخطأ لأن الظهور لمن لا يحسن الظهور تكسر الظهور.

ويقول أيضاً: (حبب إلي من دنياكم ثلاث: ترك التكلف، وعشرة الخلق بالتلطف، والاقتداء بطريق أهل التصوف)[2].

وهذا يدلنا على أن الإمام الشافعي صحب أهل التصوف وانتفع بهم وحبب إليه الاقتداء بطريقهم.

٤. الإمام أحمد رحمه اللّه تعالى[3]:

مر هذا الإمام بمرحلتين فيما يتعلق بالتصوف:

المرحلة الأولى: عدم ثقته بهم ويدل على ذلك وصيته لولده عبد اللّه: (يا ولدي عليك بالحديث، وإياك ومجالس هؤلاء الذين سموا أنفسهم صوفية، فإنهم ربما كان أحدهم جاهلاً بأحكام دينه).

المرحلة الثانية: الثقة بهم، والدعوة إلى مجالستهم للانتفاع بهم، ومشاورتهم والأخذ بآرائهم. وذلك عندما صاحب أبا حمزة البغدادي الصوفي وعرف أحوال القوم أصبح يقول لولده:

(أيا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة).

---

(١) جلال الدين السيوطي، تأييد الحقيقة العلية، ص١٥.

(٢) العجلوني، كشف الخفاء ومزيل الإلباس، ج١، ص٣٤١.

(٣) انظر الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية، ص٥٥.

وكان الإمام أحمد بن حنبل مع جلالة قدره إذا توقف في مسألة يقول لأبي حمزة البغدادي رضي الله عنه: (ما تقول في هذه المسألة يا صوفي) [1]؟ فما قال له اعتمده.

(ونقل العلامة محمد السقاريني الحنبلي رحمه اللّه تعالى عن إبراهيم بن عبد اللّه العلاني رحمه اللّه تعالى أن الإمام أحمد رحمه اللّه تعالى قال عن الصوفية: لا أعلم قوماً أفضل منهم، قيل إنهم يستمعون ويتواجدون، قال: دعوهم يفرحون مع اللّه ساعة) [2].

٥. الإمام أبو حامد الغزالي رحمه اللّه تعالى:

يقول الإمام الغزالي في كتابه (المنقذ من الضلال) بعد أن فرغ من علوم الشريعة بكتاب «الأربعين» وعلوم الفلسفة القديمة بكتاب (مقاصد الفلاسفة) وكذلك (التهافت) يقول واصفاً التصوف والصوفية: (ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقهم إنما يتم بعلم وعمل، وكان حاصل علمهم قطع عقبات النفس والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة حتى يتوصل بذلك إلى تخلية القلب من غير اللّه تعالى وتحليته بذكر اللّه وكان حينئذ العلم أيسر عليّ من العمل فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه اللّه وكتب الحارث المحاسبي والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي وغير ذلك من كلام مشايخهم حتى اطلعت على كنْهِ مقاصدهم العلمية، وحصلت على ما يمكن أن يحصل المرء من طريقتهم بالتعليم والسماع فظهر لي أن أخص خصائصهم لا يمكن الوصول إليه بمجرد العلم بل بالذوق والحال، وتبدل الصفات، فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال.

والقدر الذي أذكره لينتفع به هو أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق اللّه تعالى.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ص٢٨١.

(٢) ابن مفلح: الفروع، جزء٩، ص٣٥٣.

وأن سيرتهم أحسن السير وطريقهم أصوب الطرق وأخلاقهم أزكى الأخلاق بل لو جمع عقل العقلاء وحكمة الحكماء وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلا وإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، فأيقنت أنهم الفرقة الناجية وماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها: تطهير القلب بالكلية عما سوى اللّه تعالى، وعمادها ومفتاحها الجاري منها مجرى الإحرام في الصلاة: استغراق القلب بالكلية بذكر اللّه، وآخرها: الفناء بالكلية في اللّه)[١].

٦. الإمام القشيري رحمه اللّه تعالى:

وقال الإمام أبو القاسم القشيري رحمه اللّه تعالى في مقدمة رسالته المشهورة متحدثاً عن الصوفية: (جعل اللّه هذه الطائفة صفوة أوليائه، وفضلهم على الكافة من عباده بعد رسله وأنبيائه صلوات اللّه وسلامه عليهم، وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، فهم الغياث للخلق، والدائرون في عموم أحوالهم مع الحق بالحق، صفاهم من كدورات البشرية ورقاهم إلى محل المشاهدات بما تجلى لهم من حقائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، فقاموا بأداء ما عليهم من واجبات التكليف، وتحققوا بما منّه سبحانه لهم من التقليب والتصريف ثم رجعوا إلى اللّه سبحانه وتعالى بصدق الافتقار ونعت الانكسار، ولم يتكلموا على ما حصل منهم من الأعمال أو صفا لهم من الأحوال، علماً منهم بأنه جلّ وعلا يفعل ما يريد، ويختار من يشاء من العبيد، لا يحكم عليه خلق، ولا يتوجه عليه لمخلوق حق، ثوابه ابتداء فضل، وعذابه حكم بعدل، وأمره قضاء فصل)[٢].

---

(١) أبو حامد الغزالي: المنقذ من الضلال، تحقيق د. عبد الرحيم محمود ص١٤٥.

(٢) القشيري: الرسالة القشيرية، ص٢.

٧. الشيخ تاج الدين السبكي[١] رحمه اللّه تعالى:

وقال الشيخ تاج الدين السبكي رحمه اللّه تعالى: (حياهم اللّه وبياهم وجمعنا في الجنة نحن وإياهم، وقد تشعبت الأقوال فيهم تشعباً ناشئاً عن الجهل بحقيقتهم لكثرة المتلبسين بها إلى أن قال وإنهم المعرضون عن الدنيا المشتغلون في أغلب الأوقات بالعبادة) [٢]. ثم تحدث عن تعاريف التصوف إلى أن قال: (والحاصل أنهم أهل اللّه وخاصته الذين ترتجى الرحمة بذكرهم ويستنزل الغيث بدعائهم فرضي اللّه عنهم وعنا بهم)[٣].

٨. الإمام فخر الدين الرازي رحمه اللّه تعالى:

قال العلامة الكبير والمفسر الشهير الإمام فخر الدين الرازي رحمه اللّه تعالى في كتابه اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: (الباب الثامن في أحوال الصوفية: اعلم أن أكثر من حصر فرق الأمة لم يذكر الصوفية وذلك خطأ لأن حاصل قول الصوفية أن الطريق إلى معرفة اللّه تعالى هو التصفية والتجرد من العلائق البدنية، وهذا طريق حسن... وقال أيضاً: والمتصوفة قوم يشتغلون بالفكر وتجرد النفس عن العلائق الجسمانية، ويجتهدون أن لا يخلو سرهم وبالهم عن ذكر اللّه تعالى في سائر تصرفاتهم وأعمالهم، منطبعون على كمال الأدب مع اللّه عز وجل، وهؤلاء هم خير فرق الآدميين)[٤].

---

(١)تاج الدين السبكي: هو أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي نسبته إلى سبك (من أعمال المنوفية بمصر) ، قاضي القضاة، المؤرخ، الباحث وكان طلق اللسان، قوي الحجة.ولد في القاهرة، وانتقل إلى دمشق مع والده، فسكنها وتوفي بها سنة (٧٧١ هـ / ١٣٧٠ م). [الأعلام للزركلي]

(٢) تاج الدين السبكي: معيد النعم ومبيد النقم، ص١١٩.

(٣) المرجع نفسه.

(٤)فخر الدين الرازي: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، ص٧٢.

٩. الإمام ابن عابدين[١] رحمه اللّه تعالى:

وتحدث خاتمة المحققين العلامة الكبير والفقيه الشهير الشيخ محمد أمين المشهور بابن عابدين رحمه اللّه تعالى: عن البدع الدخيلة على الدين مما يجري في المآتم والختمات من قبل أشخاص تزيوا بزي العلم وانتحلوا اسم الصوفية ثم استدرك الكلام عن الصوفية الصادقين حتى لا يظن أنه يتكلم عنهم عامة فقال:

(ولا كلام لنا مع الصُدَّق من ساداتنا الصوفية المبرَّئين عن كل خصلة ردية، فقد سئل إمام الطائفتين سيدنا الجنيد: إن أقواماً يتواجدون ويتمايلون؟ فقال: دعوهم مع اللّه تعالى يفرحون، فإنهم قوم قطعت الطريق أكبادهم ومزق النصب فؤادهم وضاقوا ذرعاً، فلا حرج عليهم إذا تنفسوا مداواة لحالهم، ولو ذقت مذاقهم عذرتهم في صياحهم)[٢].

١٠. الدكتور أبو الوفا التفتازاني:

يقول فضيلة الدكتور أبو الوفا التفتازاني: (ليس التصوف هروباً من واقع الحياة كما يقول خصومه، وإنما هو محاولة الإنسان للتسلح بقيم روحية جديدة، تعينه على مواجهة الحياة المادية، وتحقق له التوازن النفسي حتى يواجه مصاعبها ومشكلاتها.

وفي التصوف الإسلامي من المبادئ الإيجابية ما يحقق تطور المجتمع إلى الأمام فمن ذلك أنه يؤكد على محاسبة الإنسان لنفسه باستمرار ليصحّح أخطاءها ويكملها بالفضائل، ويجعل فطرته إلى الحياة معتدلة، فلا يتهالك على شهواتها وينغمس في أسبابها إلى الحد الذي ينسى فيه نفسه وربه،

---

(١)ابن عابدين: أحمد بن عبد الغني بن عمر المشهور بابن عابدين: فقيه حنفي، ولد ومات في دمشق(١٣٠٧ هـ /١٨٨٩ م). عين أمينا للفتوى مع السيد محمود حمزة مفتي دمشق.[الأعلام للزركلي]

(٢) الرسالة السابعة، شفاء العليل وبل الغليل في حكم الصوفية بالختمات والتهاليل، ص١٧٢.١٧٣.

فيشقى شقاءً لا حد له. والتصوف يجعل من هذه الحياة وسيلة لا غاية، وبذلك يتحرر تماماً من شهواته وأهوائه بإرادة حرة) [1].

❁ ❁ ❁

(١) أبو الوفا التفتازاني: مدخل إلى التصوف الإسلامي.

موقف أئمة الحركة السلفية في الصوفية

- من تعمق في دراسة أهل العلم الحقيقيين والصادقين في مسعاهم، والمخلصين في أهدافهم وغاياتهم ونياتهم، والغيورين على دينهم في نشر العلم الصحيح، والبعد عن البدع والخرافات، والزيغ والانحرافات، والمتمسكين بالقرآن والسنة.

- من تتبع حياتهم وأعمالهم وأفكارهم يجدهم يسيرون نحو هدف واحد وإن اختلفت مسالكهم. ولا يجد بينهم اختلافاً، بل يجد في أقوال بعضهم في بعض إنصافاً ووقوفاً عند الحق، بينما يجد عند بعض من أتى بعدهم وانتسب إليهم، وخاصة من ابتعد عنهم في العلم والعصر، وخالفهم في بعض ما تمسكوا به، يجد عنده الخلل والخلاف والبعد والتمزق والشقاق، والآراء المختلفة التي ربما خرجت عن جوهر الأصل بل خالفته، وسعت في الأرض فساداً.

- انطلاقاً من هذا الكلام فإننا لم نسمع عن أحد من أهل السلف انتقاداً لأهل التصوف إلا لمن شذ عنهم أو انحرف، وأهل التصوف أنفسهم ينبذونه، وكذلك لم نسمع من أهل التصوف انتقاداً لأحدٍ من أهل السلف ولو ابتعد عن طريقتهم ومذهبهم.

- وإذا كان أهل السلف ينطلقون من الكتاب والسنة فإن أهل التصوف أيضاً يعتمدون على الكتاب والسنة فكيف يوجد بينهما اختلاف أو شقاق.

- ويؤيد هذا الكلام ما كتبه الشيخ عبد الحفيظ المكي وهو من علماء مكة المكرمة، فقد ذكر قول الشيخ محمد عبد الوهاب وابن تيمية وابن القيم وابن رجب الحنبلي وابن كثير والحافظ الذهبي وأخيراً ذكر رأي الإمام أحمد بن حنبل وقد قال في المقدمة:

(وهكذا نسمع بين حين وآخر من ينادي بأن التصوف كله باطل وأن الصوفية طائفة زائفة لا علاقة لها بالإسلام، بل إنهم أعداء للدين وأن أصلهم من اليونان أو بوذية الهند.. إلى آخر ذلك من الترهات. وهذا كله أيضاً مع الأسف الشديد باسم (السلفية المسكينة).

مع أن الواقع بخلاف ذلك، فإن الصوفية عند أئمة الحركة السلفية وسادتهم، طائفة إسلامية مثل بقية الطوائف الإسلامية الأخرى كالمحدثين والفقهاء والمتكلمين والمؤرخين والمجاهدين وغيرهم، فيهم المصيب والمخطئ والصالح والطالح، والأصلي والمزيف. ولكن إذا أطلق اللفظ فإنه يراد به دائماً: الصالح والمصيب والصحيح منهم، فمثلاً لو قلنا: «المحدثون» فالمراد بهم عند الجميع المحدثون الصالحون الذين حفظوا على الأمة أحاديث رسول اللّه ﷺ وخدموها وبلغوها ونشروها بالطريقة المرضية كالأئمة: البخاري ومسلم والترمذي وابن حجر العسقلاني والسيوطي والكاندهلوي وغيرهم.

ولا يراد بكلمة (المحدثون) مطلقاً، عند أي أحد، أولئك (الدجالون الكذابون الوضاعون) المنتسبون إلى هذه الطائفة الكريمة، والذين قد بين فسادهم ودجلهم أئمة الجرح والتعديل في كل عصر وزمان كما هو معلوم للجميع.

وهكذا هو الحال في الفقهاء والمتكلمين والمجاهدين والمؤرخين وغيرهم من طوائف المسلمين وهكذا يجب أن يكون الحال في الصوفية أيضاً.

فعندما يقال الصوفية يكون المراد منهم حتماً: الفضيل بن عياض ومعروف الكرخي وأبو سليمان الداراني وبشر الحافي وعبد القادر الجيلاني والجنيد البغدادي وغيرهم ممن سار على نهجهم القويم

من أصحاب الطرق المباركة المتبعة لنهج القرآن الكريم وسنة نبيه والدالين العباد على اللّه ﷻ والمحبِّبين برسول اللّه ﷺ وآله وصحبه) [1].

- فهذا هو قول الحق ومنهج الصدق وسلامة الفكر والإنصاف التام لهؤلاء الذين هم علماء الأمة ومجاهدوها ولن تجد عالماً أو مجاهداً أو تقياً قدم للإنسانية أعظم النفع بعد التابعين إلا وينطبق عليه ذلك الوصف العظيم.

- وهذا هو العلامة ابن القيم وهو من كبار الصوفية كما ذكر الإمام الحافظ ابن رجب الحنبلي بقوله: (وكان عالماً بعلم السلوك وكلام أهل التصوف وإشاراتهم ودقائقهم، له في كل فن من هذه الفنون اليد الطولى) [2].

- وتحدث ابن القيم عن التصوف فقال:

(الدين كله خلق، فمن زاد عليك في الخلق زاد عليك في الدين، وكذلك التصوف قال الكتاني: التصوف: هو الخلق، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في التصوف) [3].

- وذكر أيضاً ما نصه:

(قال أبو عبد الرحمن السلمي: سمعت محمد بن مخلد يقول سمعت جعفراً يقول سمعت الجنيد يقول: (المريد الصادق غني من العلماء)، وقال أيضاً: سمعت الجنيد يقول: (إذا أراد اللّه بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء)) [4].

---

(١) عبد الحفيظ المكي: كتاب موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية.

(٢)ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة جـ٢ ص٤٤٨ عن ترجمة ابن القيم.

(٣) ابن القيم: مدارج السالكين عن تعريف التصوف في جـ٢، ص ٣٠٧.

(٤) المرجع نفسه ص٣٦٦.

- وقال الشافعي ﷺ: (صحبت الصوفية فما انتفعت منهم إلا بكلمتين سمعتهم يقولون: الوقت سيف فإن قطعته وإلا قطعك، ونفسك إن لم تشغلها بالحق وإلا شغلتك بالباطل.

قلت: يا لهما من كلمتين، ما أنفعهما وأجمعهما وأدلهما على علو همة قائلهما ويقظته، ويكفي في هذا ثناء الشافعي على طائفة هذا قدر كلماتهم)[1].

- كذلك لا ننسى ما مر معنا سابقاً مما قاله الشافعي في صحبته للصوفية وانتفاعه الكثير بهم.

- كذلك ولو تتبعنا مؤلفات ابن قيم الجوزية لوجدنا الكثير منها يعتبر من كتب مراجع الصوفية الهامة أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: (مدارج السالكين، عدة الصابرين، زاد المعاد، روضة المحبين، حادي الأرواح، بدائع الفوائد، الوابل الصيب...الخ).

- وهذا الإمام الحافظ الذهبي يذكر في ترجمته للمحدثين كثيراً من المحدثين الصوفيين:

((ابن الأعرابي) [2] الإمام الحافظ الزاهد شيخ الحرم أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم البصري الصوفي صاحب التصانيف وكان ثقة ثبتاً عارفاً ربانياً كبير القدر بُعْدَ الصيت)[3].

- ويذكر أيضاً: ((غندر) وأما غندر الثالث فهو صوفي محدث جوال، لقي الجنيد وطبقته وكتب الحديث وسكن مصر)[4].

---

(١) المرجع السابق جـ٣ ص ١٢٨.

(٢)ابن الأعرابي: أبو سعيد أحمد بن محمد بن زياد بن بشر بن درهم،: مؤرخ من علماء الحديث.من أهل البصرة.تصوف وصحب الجنيد، وانتقل إلى الحجاز فكان شيخ الحرم المكي وتوفي بمكة سنة (٣٤٠ هـ/٩٥٢م). [الأعلام للزركلي]

(٣) الذهبي: تذكرة الحفاظ جـ٣ ٨٥٢.

(٤) المرجع السابق: ص٩٦١.

- ويذكر أيضاً: ((الماليني) الحافظ العالم الزاهد أبو سعد أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد اللّه بن حفص الأنصاري الهروي الماليني الصوفي، ويعرف أيضاً بطاووس الفقراء.. وجمع وحصل من المسانيد الكبار شيئاً كثيراً، وكان ثقة متقناً صاحب حديث ومن كبار الصوفية) [1].

- ويذكر أيضاً: ((أبو نعيم) الحافظ الكبير محدث العصر أحمد بن عبد اللّه بن أحمد بن اسحاق بن موسى بن مهران المهراني الأصبهاني الصوفي) [2].

- وفي نهاية الجزء الرابع وهو الأخير من تذكرة الحفاظ يتحدث الذهبي عمن لزمهم وسمع منهم وبعضهم كان من المتصوفة فيقول ما نصه:

(ولزمت الشيخ الإمام المحدث مفيد الجماعة أبا الحسن علي بن مسعود بن نفيس الموصلي وسمعت منه جمله، وكان ديناً خيراً متصوفاً متعففاً.

وسمعت من مفيد الطلبة المحدث الإمام المتقن اللغوي صفي الدين محمود بن أبي بكر الأرموي ثم القرافي الصوفي.

وسمعت من الإمام المحدث الأوحد الأكمل فخر الإسلام صدر الدين إبراهيم بن محمد بن المؤيد بن حمويه الخراساني الجويني شيخ الصوفية).

- فلو كان الحافظ الذهبي وهو العالم العلامة معادياً للصوفية أو معترضاً عليهم لما ذكرهم في كتبه ولما لزمهم وسمع منهم ورضي أن يكونوا له أساتذة.

---

(١) المرجع نفسه: ص١٠٧٠.

(٢) المرجع نفسه: ص ١٠٩٢.

- وكذلك فإن الحافظ ابن رجب الحنبلي السلفي تلميذ ابن تيمية يتحدث عن العديد من العلماء واصفاً إياهم بالصوفية كإبراهيم بن علي بن أحمد بن فضل الوسطي الصالحي الفقيه الزاهد العابد شيخ الإسلام بركة الشام قطب الوقت تقي الدين أبو اسحاق(١).

- وكذلك يتحدث عن محمد بن عبد اللّه بن عمر بن أبي القاسم البغدادي المقرئ المحدث الصوفي(٢).

- وكذلك ما ذكره الحافظ القاضي ابن أبي يعلى عن تلاميذ الإمام أحمد بن حنبل فكثيراً ما يثني على بعضهم بأنه صوفي، فقد بين أنَّ: (أحمد بن الحسن بن عبد الجبار بن راشد، أبو عبد اللّه الصوفي سمع علي بن الجعد وأبا نصر التمار ويحيى بن معين من آخرين، نقل عن إمامنا أشياء)(٣).

- وبذلك يتجلى واضحاً للعيان من هذه النقول التي أوردناها من كتب رجال الحديث والفقه أن كلمة صوفي تعني أن صاحبها بلغ درجة كبيرة في التقوى ولا يمكن أن يتصور أبداً أن هؤلاء الأئمة الذي قبلت الأمة أحكامهم على صحة الأحاديث النبوية كالإمام الذهبي أن يطلقوا كلمة الصوفية على رجال الحديث والفقه إن كانت دخيلة على المنهج الإسلامي كما يدعي بعض الناس، ويقولون: لماذا نسميهم صوفية واللّه تعالى يقول: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾(٤) فهل غاب عن هؤلاء الأجلاء فهم هذه الآية حتى يتركوا العمل بها ويطلقوها بلا تبصر وروية، إنهم علموا وتيقنوا أن إطلاق هذه الكلمة لا يتعارض مع الآية الشريفة كما سبق أن شرح الإمام

---

(١) ابن رجب الحنبلي: الذيل على طبقات الحنابلة جزء٢ ص٣٢٩.

(٢) المرجع نفسه: جزء٢ ص ٣٥٣.

(٣) ابن أبي يعلى: طبقات الحنابلة جزء١ ص ٣٦.

(٤) سورة الحج: ٧٨.

الشاطبي في كتابه الاعتصام عن سبب هذه التسمية وبدء ظهورها وأنها وصف لقوم التزموا بكل مبادئ الإسلام من العبادة والجهاد في سبيل اللّه والجهر بكلمة الحق.

– وابن تيمية الذي يعده المتسلفة المرجع الأساسي لهم . مر معنا حديثه عن الصوفية وتمسكهم بالكتاب والسنة في كتابه الفتاوى حيث خصهم ببحثٍ تحدث فيه عنهم وعن سلفهم ومتأخريهم ومتقدميهم، وعدد مشايخهم وبعض أقوالهم وأعمالهم، ووصفهم بأنهم من أكمل صديقي زمانهم.

– وتلميذه ابن القيم ألف كتاباً يعد مرجعاً أساسياً عند أهل التصوف وهو مدارج السالكين تحدث فيه عن المقامات والأحوال والمنازل المختلفة التي ينزل بها ويجتازها سالكو طريق الحقيقة.

– وقد مر معنا أيضاً أن الإمام الشاطبي الذي يعده المتسلفة إماماً لهم ويعدونه كتابه (الاعتصام) مرجعاً أساسياً لبعض آرائهم، عقد في كتابه هذا فصولاً كريمة عن التصوف الإسلامي وأثبت أنه من صميم الدين وليس هو مبتدعاً، ووفى المقام حقه من الكلام بما تسلم له العقول والقلوب قائلاً: إن كثيراً من الجهال يعتقدون في الصوفية أنهم متساهلون في الاتباع والتزام ما لم يأت في الشرع التزامه، مما يقولون به ويعملون عليه، وحاشاهم من ذلك أن يعتقدون أو يقولوا به، فأول شيء بنوا عليه طريقهم اتباع السنة، واجتناب ما خالفها.

– كذلك شأن الإمام السبكي وهو من كبار الفقهاء وعلماء الأصول المدافعين عن السنة بإجماع كثير من العلماءِ والمشهور بمحاربته للبدع والخرافات يتحدث عن الصوفية قائلاً: (بأنهم فازوا فوزاً عظيماً وبلغوا من الكمالات ما لم يصل إليه غيرهم)(١).

---

(١) السبكي:العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن الطريق.

- وأخيراً وبعد هذه الحجج الدامغة من أقوال العلماء الأجلاء الذين يعتد بشهادتهم ولا يستغني باحث عن الاستدلال بآرائهم في شتى العلوم المختلفة كالفقه والأصول والتفسير والحديث هل يشك عاقل في نسبة التصوف والصوفية إلى أهل السنة والجماعة الذين يتمسكون بالكتاب والسنة اللّهم إلا إذا كان الهوى والتعصب هو الذي يحول بينه وبين البحث العلمي الصحيح.

- ألا فليتق اللّه من يتكلم في حق هذه الطائفة بغير تثبت من المسلمين ممن ينسب إلى العلم، والأحرى به أن يراجع تلك النصوص التي أوردناها من الكتب المختلفة ليقف على حقيقة أمر هؤلاء الرجال ولا يسارع إلى الحكم عليهم إلا بعد التثبت والتمحيص فالحكمة ضالة المؤمن يلتقطها أنى وجدها وأن يدعَ الهجوم عليهم أو على التسمية التي كثر حولها الخلاف وهل هي لقب أو نسبة فلا مشاحة في الاصطلاح، كما قال الشيخ ابن تيمية والذي يعنينا هو الجوهر والمضمون وما هو عليه هؤلاء القوم من عقائد وآراء.

التصوف المفترى عليه

– لعل من أهم الأسباب التي جعلت كثيراً من المتأخرين يهاجمون التصوف حتى إن بعضهم يصفهم بالمبتدعين أو بالمرتدين ويشن عليهم حرباً ضروساً في أقواله وكتاباته.

– أقول: لعل من أهمها ما يرونه على بعض من تسمى باسم التصوف، والتصوف منهم بَرَاء، فهم يرون منهم استغلالاً أو انحرافاً أو كذباً، أو معاملة سيئة، أو أعمالاً شاذة، أو خروجاً عن تعاليم الشريعة، أو غير ذلك من الأمور التي لا يرضاها عاقل أو مسلم أو محب للّه ﷻ ورسوله ﷺ.

فهل ينبغي إن رأى أحد من أولئك على هؤلاء مثل هذه الأمور أن يشن حرباً على أهل التصوف جميعاً.

– إنّ المنصفين دائماً يرون أنه قد يوجد في كل جماعة أياً كانت بعض المنافقين أو المستغلين أو المنحرفين أو السيئين، وهذا لا يدفعهم إلى الحكم على الجماعة كاملة بأحكام جائرة لأن الحكم يكون على المبادئ والحقائق وليس الحكم على الشواذ من المدعين.

– وبناء على ذلك نرى أن كل ما يخالف تعاليم الإسلام وشرائعه في شيء لا تصح نسبته إلى الصوفية والتصوف وإنما هو من ضلالات المدعين الذين انتسبوا للتصوف زوراً وبهتاناً أو من الأمور المدسوسة على كتبهم بقصد الطعن في هؤلاء القوم وتشويه صورتهم ونهجهم كما حدث في كتب التفسير، فقد دُسّ فيها من الإسرائيليات ما يناقض ما عرف عن هؤلاء المفسرين من حرص على بيان الحق والبعد عن هذه المرويات الملفقة وكذلك ما جاء في بعض كتب الحديث من الأحاديث الموضوعة، وقام العلماء الأجلاء ببيانها ولذلك فإني أرى أن الهوة بين التصوف والمعارضين له نشأت من اقتناعهم بأن هذه الأقوال الباطلة هي من صميم آراء المتصوفة، ولو

أنهم وضعوا الأمور في نصابها ونظروا إليها نظرة فاحصة مستبصرة لوجب عليهم ألا يلصقوا هذه الأقوال الشنيعة بهؤلاء القوم وأن يحسنوا الظن بهم وخاصة أنهم قد لقوا ربهم وأصبحوا بين يدي اللّه تعالى وأفضوا إلى ما قدموا.

– وإليك بعض الأمثلة على ذلك الدس والافتراء على هؤلاء القوم يقول الشيخ عبد الوهاب الشعراني(١): (ومما منّ اللّه تبارك وتعالى به عليّ صبري على الحسدة والأعداء لما دسوا في كتبي كلاماً يخالف ظاهر الشريعة وذلك لما صنفت كتاب: البحر المورود في المواثيق والعهود وكتب عليه علماء المذاهب الأربعة بمصر وتسارع الناس لكتابته فكتبوا منه نحو أربعين نسخة غار من ذلك الحسدة فاحتالوا على بعض المغفلين من أصحابي واستعاروا منه نسخته وكتبوا لهم منها بعض كراريس ودسوا فيها عقائد زائفة ومسائل خارقة لإجماع المسلمين وحكايات وسخريات عن جحا وابن الراوندي وسبكوا في ذلك غضون الكتاب في مواضيع كثيرة حتى كأنهم المؤلف ثم أخذوا تلك الكراريس وأرسلوها إلى سوق الكتب في يوم السوق وهو مجمع طلبة العلم فنظروا في تلك الكراريس ورأوا اسمي عليها فاشتراها من لا يخشى اللّه تعالى ثم دار بها على علماء جامع الأزهر فأوقع ذلك فتنة كبيرة ومكث الناس يدورون في المساجد والأسواق وبيوت الأمراء نحو سنة وانتصر لي الشيخ نصر الدين اللقاني وشيخ الإسلام الحنبلي والشيخ شهاب الدين بن الحلبي كل ذلك وأنا لا أشعر فأرسل لي شخص من المحبين بالجامع الأزهر وأخبرني الخبر فأرسلت نسختي التي عليها خطوط العلماء فنظروا فيها فلم يجدوا فيها شيئاً مما دسه هؤلاء الحسدة...الخ)(٢).

---

(١)عبد الوهاب الشعراني: (أبو المواهب، أبو عبد الرحمن) عبد الوهاب بن أحمد بن علي بن أحمد بن محمد بن موسى الشعراني، الأنصاري، الشافعي، الشاذلي، المصري فقيه، أصولي، محدث، صوفي، مشارك في أنواع من العلوم. ولد في قلقشنده بمصر، وتوفي بالقاهرة(٩٧٣ هـ/ ١٥٦٥ م، له تصانيف كثيرة [معجم المؤلفين]

(٢) عبد الوهاب الشعراني: لطائف المنن والأخلاق، جزء٢، ص١٩٠.

– وقد ذكر ذلك أيضاً المؤرخ الكبير عبد الحي بن العماد الحنبلي[١] حيث قال: (وحسده طوائف فدسوا عليه كلمات تخالف ظاهر الشرع وعقائد زائغة ومسائل تخالف الإجماع فخذلهم اللّه وأظهره اللّه عليهم وكان مواظباً على السنة ومبالغاً في الورع.. الخ) [٢].

– ومن ذلك يتبين واضحاً جلياً أن كل ما نراه في الكتب منسوباً إليهم وهو مخالف للشرع كما في الطبقات الكبرى للشعراني فهو من وضع الزنادقة وقد جاء في كتاب حقائق عن التصوف ما يلي: (وكذلك دسوا على الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه اللّه قال الشعراني (كان رضي اللّه عنه مقتدياً بالكتاب والسنة ويقول: كل من رمى ميزان الشريعة من يده لحظة هلك) إلى أن قال: (وجميع ما عارض من كلامه ظاهر الشريعة وما عليه الجمهور فهو مدسوس عليه) كما أخبرني بذلك سيدي أبو طاهر المغربي ثم أخرج لي نسخة الفتوحات المكية التي قابلها على نسخة الشيخ التي بخطه في مدينة قونية فلم ير فيها شيئاً مما كنت توقفت فيه وحذفته حين اختصرت الفتوحات....

ثم قال الشعراني رحمه الله: إذا علمت ذلك فيحتمل أن الحُسَّدَ دسوا على الشيخ في كتبه كما دسوا في كتبي أنا، فإنه أمر قد شاهدته عن أهل عصري في حقي، فالله يغفر لنا ولهم آمين) [٣].

– وذكر العلامة ابن عابدين الفقيه الحنفي وصاحب أكبر موسوعة في الفقه الحنفي أن الأرجح عنده بالنسبة لما ورد في كتب الشيخ محيي الدين بن عربي مما يخالف الشرع بأنه مفترى عليه

---

(١)عبد الحي بن العماد(أبو الفلاح): عبد الحي بن احمد بن محمد بن العماد العكري، الدمشقي، الصالحي، الحنبلي، المعروف بابن العماد مؤرخ، فقيه، أديب.ولد في صالحية دمشق، وأقام بالقاهرة مدة طويلة، وتوفي بمكة(١٠٨٩ هـ/ ١٦٧٩ م). [معجم المؤلفين]

(٢) عبد الحي الحنبلي: شذرات الذهب، جزء٨، ص٣٧٤.

(٣) عبد القادر عيسى ص٤٠٩ نقلاً عن اليواقيت والجواهر للشعراني جزء١ ص٩.

ولذلك تجد نص عبارته: (لكن الذي تيقنته أن بعض اليهود افتراها على الشيخ قدس اللّه سره)[1].

- بل إن ابن تيمية نفسه يعترف بالدس على السيدة رابعة العدوية[2] حيث يقول: (وأما ما ذكر عن رابعة عن قولها عن البيت الحرام إنه الصنم المعبود في الأرض فهو كذب على رابعة المؤمنة التقية..) [3].

۞ ۞ ۞

---

(١) الحصفكي: الدر المختار، جزء٣، ص٣٠٣.

(٢)رابعة العدوية: أم الخير رابعة بنت إسماعيل العدوية،، مولاة آل عتيك، البصرية: صالحة مشهورة، من أهل البصرة، ومولدها بها.لها أخبار في العبادة والنسك والتصوف، ولها شعر توفيت سنة (١٣٥هـ/٧٥٢م). [الأعلام للزركلي]

(٣) ابن تيمية: مجموعة الرسائل والمسائل، جزء١، ص٨٠.

أهمية التصوف

- عندما نريد أن نتحدث عن أهمية التصوف يجب أن نعرف أن هذه الأهمية ليست نابعة من التصوف في حد ذاته، وإنما هي نابعة من الاختصاص الذي يختص به التصوف.

- فقد بينا سابقاً أن التصوف ليس شيئاً جديداً على الإسلام، ولا منفصلاً عنه، ولا زيادة مضافة إليه: إنه اسم يعبر عن اختصاص بجانب معين من الإسلام إنه جانب مهم، هو جانب التزكية، التزكية التي هي من مهمات النبي ﷺ التي أرسله اللّه بها. قال تعالى مبيناً ذلك:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢ ﴾[1].

- وقد أمرنا اللّه ﷻ في عدد من الآيات بالاهتمام بهذا الجانب في مثل قوله سبحانه:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ ﴾[2].

- وفي قوله تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ ﴾[3].

- كما أن التصوف من جهة أخرى يسعى إلى الوصول إلى مقام الإحسان عند المسلم وهو أحد الأركان الأساسية للدين كما جاء في الصحيح من حديث جبريل مع رسول اللّه ﷺ فقال رسول اللّه ﷺ: « الإِحْسَانُ أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ »[4].

---

(١) سورة الجمعة: ٢.

(٢) سورة الشمس: ٩.

(٣) سورة الأعلى: ١٤.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

– وقد علمنا أن الشارع أمر الإنسان بتكاليف في خاصة نفسه ترجع إلى قسمين:

- قسم يتعلق بأعماله الظاهرة.
- وقسم يتعلق بأعماله الباطنة.

– وبلفظ آخر: أحكام تتعلق بظاهر الإنسان وأحكام تتعلق بباطنه (القلب والنفس).

– أما الأعمال التي تتعلق بظاهره فهي نوعان:

– أوامر ونواه، **فالأوامر** المفروضة كالصلاة والصوم...

– وأما **النواهي** المحظورة كتحريم الزنى والسرقة..

– وأما الأعمال التي تترتب على القلب فهي كذلك نوعان أوامر ونواه، فالأوامر المفروضة: كالإيمان باللّه وملائكته.. وكالإخلاص والتوكل والخشوع والصدق والصبر..

– وأما النواهي المحظورة، كالكفر والنفاق والحقد...

– وهذا القسم الثاني هو المعول عليه في ديننا ألا وهو أعمال القلوب لأنه مَبْنَى الأمور كلها على إخلاص النيات لرب البريات التي لا يعلم بها غيره فقد قرن اللّه سبحانه وتعالى أعمال الظاهر وسلامة الباطن فيها، لأن فساد الباطن يوجب فساد الأعمال الظاهرة، فقال سبحانه:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾[1].

---

(١) سورة الكهف: ١١٠.

– وإلى ذلك أشار النبي ﷺ بقوله: «ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب»[1].

– لأن العمدة يوم القيامة على القلب السليم كما أخبر اللّه سبحانه وتعالى فقال:

﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾[2].

– وكما أخبر سيدنا محمد ﷺ أن محل نظر الرب هو القلب، فقال ﷺ: «إن اللّه لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»[3].

– مما مر معنا نتبين أن التصوف إنما هو العلم المختص بموضوع هام هو فقه الباطن المسمى بعلم الباطن وهو الذي يهتم بالأحكام التي تتعلق بباطن الجسد وهو القلب والنفس وهو ما سماه القرآن أيضاً بالتزكية وسماه النبي بالإحسان.

– وهذا الجانب الذي اهتم به التصوف هو جانب أساسي بل هو الجانب الأهم في الشريعة لأنها تبنى عليه.

– لذلك عدّ كثير من العلماء هذا الاختصاص فرضَ عين لأن تصفية القلب ومداواته، وكبح جماح النفس عن شهواتها وتهذيبها وتزكيتها والسعي بها إلى كمالاتها، للوصول إلى مقام الإحسان من أهم الفرائض العينية وأهم الواجبات الربانية، وقد دل على ذلك كثير من آيات القرآن وسنة النبي ﷺ وأقوال العلماء والفقهاء التي تتحدث عن أعمال القلب كالإخلاص والإيمان وحسن الخلق والصدق والصبر والتوكل والإحسان والبعد عن الرياء والحقد والحسد والنفاق...

– وقد أجمع العلماء على أن الأمراض والآفات القلبية من الكبائر التي تحتاج إلى توبة مستقلة لأن أمراض الباطن كافية لإحباط أعمال العبد ولو كانت كثيرة.

---

(١) متفق عليه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) سورة الشعراء: ٨٨-٨٩.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

- قال الفقيه العلامة الكبير ابن عابدين في حاشيته الشهيرة:

(إن علم الإخلاص والعجب والحسد والرياء فرض عين مثل غيرها من آفات النفوس كالكبر والشح والحقد... إلى أن قال: ولا ينفك عنها بشر، فيلزمه أن يتعلم منها ما يرى نفسه محتاجاً إليه وإزالتها فرض عين ولا يمكن إلاّ بمعرفة حدودها وأسبابها وعلاماتها وعلاجها فإن من لا يعرف الشر يقع فيه)[1].

- وقال حجة الإسلام الإمام الغزالي -بعد أن اختبر طريق التصوف ولمس نتائجه وذاق ثمراته-:

(الدخول مع الصوفية فرض عين، إذ لا يخلو أحد من عيب إلا الأنبياء عليهم الصلاة والسلام)[2].

- (وقال أبو الحسن الشاذلي رضي اللّه عنه: (من لم يتغلغل في علمنا هذا مات مصراً على الكبائر وهو لا يشعر.

- وفي هذا القول يقول ابن علاّن الصديقي[3]: ولقد صدق فيما قال- يعني أبا الحسن الشاذلي-فأي شخص يا أخي يصوم ولا يعجب بصومه؟ وأي شخص يصلي ولا يعجب بصلاته، وهكذا سائر الطاعات) [4].

- ولما كان هذا الطريق صعب المسالك على النفوس الناقصة فعلى الإنسان أن يجتازه بعزم وصبر ومجاهدة حتى يُطهّر نفسه من أدرانها ونقائصها وبعدها عن الله تعالى ورضوانه.

---

(١) ابن عابدين: حاشية رد المحتار، جزء١، ص٣١.

(٢) الفاسي: النصرة النبوية على هامش شرح الرائية، ص٢٦.

(٣)ابن علان أحمد بن إبراهيم بن علان، الصديقي الشافعي النقشبندي: عالم فاضل متصوف، من أهل مكة مولداً ووفاة (١٠٣٣ هـ/١٦٢٤ م) له مؤلفات كثيرة [الأعلام للزركلي].

(٤) ابن عجيبة: إيقاظ الهمم شرح متن الحكم، جزء١، ص٧.

– يقول الفضيل بن عياض رحمه اللّه تعالى: (عليك بطريق الحق ولا تستوحش لقلة السالكين، وإياك وطريق الباطل ولا تغتر بكثرة الهالكين، وكلما استوحشت من تفردك فانظر إلى الرفيق السابق، واحرص على اللحاق بهم، وغض الطرف عن سواهم، فإنهم لن يغنوا عنك من اللّه تعالى شيئاً، وإذا صاحوا بك في طريق سيرك فلا تلتفت إليهم فإنك متى التفت إليهم أخذوك وعاقوك)(١).

– (وقد قال ابن زكرى رحمه اللّه متحدثاً عن التصوف:

به وصول العبد للخلاص روح العبادة بالاختصاص
وذاك واجب على المكلف تحصيله يكون بالمعروف

يعني أن علم التصوف فرض عين على كل مكلف، وذاك أن الغالب أن الإنسان لا ينفك عن دواعي الشر والرياء والحسد، فيجب عليه أن يتعلم ما يتخلص به من ذلك)(٢).

– من كل ما سبق نجد أن التصوف يهتم بجانب مهم من جانبي الإسلام وهو جانب علم الباطن وتزكية النفس والقلب وهو جانب ضروري لا يستغنى عنه ولا يتم الإسلام ولا يكمل الإيمان إلا به.

– من هنا نخلص إلى أن هذا العلم علم التصوف الصافي والعمل به هو فرض عين على كل مسلم.

۞ ۞ ۞

---

(١)المصدر السابق.

(٢)محمد أحمد الفاسي:الدر الثمين والمورد المعين.

حاجتنا إلى التصوف

– لو رجعنا إلى تاريخنا القديم، التاريخ الإسلامي، لأدركنا أنّ الحاجة ماسّة إلى التصوف فهو الذي حفظ روح الدين وجوهره على مدى هذا التاريخ، وهو الذي عمل أتباعُهُ على نشر هذه الدعوة، خاصة بعد الفتوحات، فعن طريق التجارة وغيرها عمل الدعاة المتصوفة على إيصال هذا الدين إلى جميع بقاع هذا العالم شرقه وغربه شماله وجنوبه، فكانوا عاملاً هاماً في نشر هذا الدين ووصوله إلى هذه البلاد البعيدة متحملين مشاقاً قاسية صعبة لم يسهلها عليهم إلا تصوفهم الذي بنى إيمانهم المتين، وعقيدتهم الصادقة، وسلوكهم المستقيم، وإرادتهم القوية، وصبرهم الشديد، فهان عليهم ما لاقوه، وفرحوا بما بذلوه.

– (وتجدر الإشارة أن الطرق الصوفية قد قامت بنشر الإسلام في أصقاع لم تطأها جيوش المسلمين كما حصل في غرب ووسط وجنوب الصحراء الإفريقية حيث اندفعت هذه الطرق إلى الناس في القرى والأماكن النائية تاركة الخطوط التجارية والمسالك المعروفة والمدن الكبرى، فسطرت بذلك مآثر لا ينافسها سواها في مجالها) (١).

– هذا وقال شاتيلي –وهو أحد المؤرخين الغربيين وبعد أن أطال البحث والشرح في كيفية انتشار الإسلام في العالم، وبعد أن عَزَاهُ إلى مشايخ الطرق الصوفية–: (والخلاصة أن الإسلام مدين بكل فتوحاته السلمية وانتشاره في الأقطار لجماعة الصوفية، فمشايخ الطرق هم في الحقيقة الذين يديرون حركة الإسلام الحية، ولا يخفى ما في عملهم هذا من الخطر على المصالح الأوربية) (٢).

– والتتر والمغول اللذان لم تستطع قوة أن تقف أمامهما استطاع هؤلاء الدعاة المتصوفة إيقافهم وصدهم وإجبارهم على التراجع وذلك بفضل دعوتهم إياهم إلى الإسلام، فدخل الإسلام قلوب

---

(١) أحمد الشلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، جزء٦، ص٢١٩.

(٢) عبد الرحمن الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، جزء٣، ص٢٥٣.

ملوكهم ورؤسائهم وقوادهم فأصبحوا على خير كبير بعد الشر المستطير الذي كانوا عليه والذي حملوه للشعوب المستضعفة التي حل بها العار والدمار والفناء.

– وإذا أردنا أن نعرف بعض الأعمال التي قام بها رجالات التصوف فلنستمع إلى الشيخ أبي الحسن الندوي[1] وهو عضو المجمع العلمي العربي بدمشق ومعتمد ندوة العلماء بالهند، يقول في بحث «الصوفية في الهند وتأثيرها في المجتمع»:

(إن هؤلاء الصوفية كانوا يبايعون الناس على التوحيد والإخلاص واتباع السنة، والتوبة عن المعاصي، والظلم، والقسوة، ويرغبونهم في التحلي بالأخلاق الحسنة، والتخلي عن الرذائل، مثل الكبر والحسد والبغضاء، والظلم وحب الجاه، وتزكية النفس وإصلاحها، ويعلمونهم ذكر اللّه، والنصح لعباده، والقناعة والإيثار، وعلاوة على هذه البيعة التي كانت رمز الصلة العميقة الخاصة بين الشيخ ومريديه، إنهم كانوا يعظون الناس دائماً، ويحاولون أن يلهبوا فيهم عاطفة الحب للّه سبحانه، والحنين إلى رضاه، ورغبة شديدة لإصلاح النفس وتغير الحال...)[2].

– ثم تحدث عن مدى تأثير أخلاقهم وإخلاصهم وتعليمهم وتربيتهم ومجالسهم في المجتمع والحياة، وضرب بعض الأمثلة التي تلقي الضوء على هذا الواقع التاريخي ثم تحدث عن الشيخ أحمد الشهيد، رحمه اللّه تعالى، فقال: (إن الناس أقبلوا عليه إقبالاً منقطع النظير، وإنه لم يمر ببلدة إلا وتاب على يديه وبايعه عدد كبير من الناس، وإنه أقام في كلكتا شهرين ويقدر أن الذين كانوا

---

(١)أبو الحسن الندوي رباني الأمة عالم رباني وداعية مجاهد وأديب تميز بجمال الأسلوب وصدق الكلمات ولد بقرية تكية، مديرية رائي بريلي، الهند وقد شارك رحمه الله في عدد من المؤسسات والجمعيات الإسلامية، ومنها تأسيس المجمع العلمي بالهند، وتأسيس رابطة الأدب الإسلامي كما أنه: عضو مجمع اللغة العربية بدمشق، وعضو المجلس التنفيذي لمعهد ديوبند، ورئيس مجلس أبناء مركز أوكسفورد للدراسات الإسلامية. [المجمع الجامع في تراجم العلماء وطلبة العلم المعاصرين]

(٢) أبو الحسن الندوي: المسلمون في الهند.

يدخلون في البيعة لا يقل عددهم عن ألف نسمة يومياً، وتستمر البيعة إلى نصف الليل، وكان من شدة الزحام لا يتمكن من مبايعتهم واحداً واحداً، فكان يمدّ سبعة أو ثمانية من العمائم، والناس يمسكونها ويتوبون ويعاهدون اللّه، وكان هذا دأبه كل يوم سبع عشر أو ثماني عشرة مرة...) [1].

- وتحدث عن شيخ الإسلام علاء الدين رحمه اللّه تعالى، فقال: (إن السنوات الأخيرة من عهده تمتاز بأن كسدت فيها سوق المنكرات من الخمر الحرام والفسق والفجور والميسر والفحشاء بجميع أنواعها، ولم تنطق الألسن بهذه الكلمات إلا قليلاً، وأصبحت الكبائر تشبه الكفر في أعين الناس، وظل الناس يستحيون من التعامل بالربا والادخار والاكتناز علناً، وندرت في السوق حوادث الكذب والتطفيف والغش..) [2].

ثم قال: (إن تربية هؤلاء الصوفية والمشايخ ومجالسهم كانت تنشئ في الإنسان رغبة في إفادة الناس، وحرصاً على خدمتهم ومساعدتهم...) [3].

- وقال الشيخ أبو الحسن الندوي في كتابه: (فلا شك أنه لولا هؤلاء «الصوفية» أصحاب النفوس المزكاة، الذين وصلوا إلى درجة الإحسان وفقه الباطن لانهار المجتمع الإسلامي، إيماناً روحانياً، وابتلعت موجة المادية الطاغية العاتية، الباقية من إيمان الأمة وتماسكها، وضعفت صلة القلوب باللّه، والحياة بالروح والمجتمع بالأخلاق، وفقد الإخلاص والاحتساب، وانتشرت الأمراض الباطنة واعتلت القلوب والنفوس، وفقد الطبيب، وتكالب الناس على حطام الدنيا،

---

(١) المرجع السابق.

(٢) المرجع نفسه.

(٣) المرجع نفسه.

وتنافس أهل العلم في الجاه والمال والمناصب، وغلب عليهم الطمع والطموح، وتعطلت شعبة من أهم شعب النبوة وبنيانها، وهي تزكية النفوس والدعوة إلى الإحسان وفقه الباطن) [١].

– ثم بيّن الأستاذ الندوي أن تأثير هذه المواعظ، ودخول الناس في الدين وانقيادهم للشرع أدّى إلى تعطيل تجارة الخمر، وكساد سوقها في كلكتا، وهي كبرى مدن الهند، ومركز الإنجليز، وكسدت سوقه وأقفرت الخانات واعتذر الخمارون عن دفع الضرائب للحكومة، متعللين بكساد السوق، وتعطيل تجارة الخمر...

ثم قال: (إن هذه الحالة كانت نتيجة أخلاق هؤلاء المصلحين والدعاة الصوفية والمشايخ وروحانيتهم، أن اهتدى بهم في هذه البلاد الواسعة عدد هائل من الناس وتابوا عن المعاصي والمنكرات واتباع الهوى) [٢].

وفي ختام البحث قال الأستاذ الندوي حفظه اللّه تعالى: (لقد كانت هناك بجهود هؤلاء الصوفية أشجار كثيرة وارفة الظلال في مئات من بلاد الهند، استراحت في ظلها القوافل التائهة والمسافرون المتعبون، ورجعوا بنشاط جديد وحياة جديدة)[٣].

– وتحدث الشيخ أبو الحسن الندوي عن الصوفية وأثرها في نشر الإسلام بصدر حديثه عن الصوفي الشهير والمرشد الكبير سيدي الشيخ عبد القادر الجيلاني قدس اللّه روحه، فقال:

(وكان يحضر مجلسه نحوٌ من سبعين ألفاً، وأسلم على يديه أكثر من خمسة آلاف من اليهود والنصارى، وتاب على يديه من العيارين أو المسالحة[٤] أكثر من مائة ألف، وفتح باب البيعة

---

(١) أبو الحسن الندوي: ربانية لا رهبانية ص١٧-١٨.

(٢) المرجع السابق.

(٣) المسلمون في الهند ص(١٤٠-١٤٦)، للعلامة الكبير أبي الحسن الندوي.

(٤) المسالح: الجماعة أو القوم ذوو السلاح.

والتوبة على مصراعيه، فدخل فيه خلق لا يحصيهم إلا اللّه، وصلحت أحوالهم، وحسن إسلامهم، وظل الشيخ يربيهم ويحاسبهم ويشرف عليهم وعلى تقدمهم، وأصبح هؤلاء التلاميذ الروحانيون يشعرون بالمسؤولية بعد البيعة والتوبة وتجديد الإيمان، ثم يجيز الشيخ كثيراً منهم ممن يرى فيه النبوغ والاستقامة والمقدرة على التربية، فينتشرون في الآفاق يدعون الخلق إلى اللّه، ويربون النفوس، يحاربون الشرك والبدع والجاهلية والنفاق، فتنتشر الدعوة الدينية وتقوم ثكنات الإيمان ومدارس الإحسان ومرابط الجهاد ومجامع الأخوة في أنحاء العالم الإسلامي)(١).

– وتحدث الشيخ أبو الحسن الندوي فقال: إنني أقول دائماً:

(لولا وجودهم وجهادهم لابتلعت الهندُ وحضارتُها وفلسفتُها الإسلامَ)(٢).

– وفي هذا الموضوع أيضاً يقول الأستاذ الشيخ أحمد الشرباصي الكاتب الإسلامي المعروف والمدرس في الأزهر الشريف:

(أرأيت إلى كنز وسيع عجيب فيه المال الغزير الذي لا يحصى وفيه أدوية الجسم الشافية التي لا تخون وفيه نور القلب الذي لا يخبو... ماذا يكون شأنك لو أن إنساناً أخبرك بوجود هذا الكنز بمكان ما ورسم لك الطريق إليه وذكر لك ما تحتاجه الرحلة من مجهود وتكاليف.. ألا تحاول أن تبذل جهدك وتستنفِدَ طاقتك وتعمل وسعك حتى تصل إلى هذا الكنز الذي ستجد فيه جاه الدنيا وعز الآخرة؟. كذلك شأن التصوف يا صاح، إنه الدواء المخفي والكنز المطوي والسر العلمي، إنه الدواء الذي يحتاج إليه جسمك وفهمك وخلقك، ولكنك لن تصل إليه ولن تنتفع به حتى تتجه بمشاعرك نحوه وحتى تقبل ببصرك وبصيرتك عليه وحتى تبذل من ذات يدك وذات

---

(١) أبو الحسن الندوي: رجال الفكر والدعوة في الإسلام، ص٢٤٨-٢٥٠.

(٢) أبو الحسن الندوي: روائع إقبال، ص٧.

نفسك ومن وقتك وبحثك ما يهيّئ لك البلوغ إليه والوقوف عليه، فهل فعلت من ذلك شيئاً وقد عرفت الطريق إلى النعيم؟!..

يهمني أن تكون على بصيرة من أمرك، وأن لا تجهل شيئاً جليلاً يطالبك دينك وعقلك بأن تعرفه، ومن هنا يحتم عليك أن تدرس التصوف لتتصوره وتفهمه وتفقهه، وبعد ذلك تحكم له أو عليه، وأزيدك بياناً فأقول لك: إنه قد يكون في التصوف وتاريخه وسير رجاله ما أضيف إليه أو افتراه المفترون عليه، ومن هنا يستتر حق وراء باطل، ومن هنا أيضاً يطالبك دينك بأن تقوم لتهتك حجاب الباطل وتستضيء بنور الحق، فهلا يكفي ذلك لتحريضك على دراسة التصوف؟؟!!

يا أبناء الإسلام!: إن التصوف يحتل من أخلاقكم وتاريخكم جانباً كبيراً وقد ضيعتموه أزمنة طوالاً، فحسبكم ما كان، وأقبلوا على التصوف، ففيه غذاء ودواء، واللّه الهادي إلى سبيل السواء)[1].

- وختاماً لهذا البحث نجد أن الحاجة ماسة لتعلم التصوف وتطبيق سلوكه وخاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه الشهوات والملذات والمبعدات عن الدين وجوهره، وعن الإسلام وأركانه، وعن الإيمان ومبادئه، وعن الأخلاق والسلوك وتعاليمه.

- حيث أصبحنا نرى المسلم يرتاد المساجد للصلاة، وربما سعى لأن يقف في الصف الأول، ونراه يتحدث بل ويجيد التحدث عن الإسلام وتشريعه، ولكننا لو راقبنا واقعه العملي في أسرته أو مع أهله أو جيرانه أو شركائه أو مع من يتعامل معهم لوجدنا الكثير من هؤلاء قد ضلوا السبيل بكلامهم أو أفعالهم، يأكلون أموال اليتامى، وأموال إخوانهم وأخواتهم، ولا يؤدون حقوق الآخرين، ويسعون في الأرض فساداً بالظلم والغش والحسد والحقد والغيبة والنميمة.

---

(١)الشيخ حامد إبراهيم محمد صقر: تصدير كتاب نور التحقيق ، ص٣.١ بتصرف.

– مع هذا الواقع الأليم ألا نحتاج إلى المصلحين والمزكين والمربين الذين يأخذون بأيدي هؤلاء إلى جوهر الإسلام علماً وعملاً وتطبيقاً لشرع الله وسنة نبيه.

– فما أحرانا بأن نعود إلى العلماء العارفين والمزكين المربين، نجالسهم بأدب، ونتعلم منهم ونتأدب بآدابهم، ونتخلق بأخلاقهم، ونسلك طريقهم حتى نفوز بسعادة الدارين الدنيا والآخرة، ومن ثَمَّ نحمل هذه التعاليم وندعو إليها لتعم البلاد، وينعم العباد، ويسود الوداد، حتى نلقى رب العباد وهو عنا راض ﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾[1].

۞ ۞ ۞

(١) سورة البينة:٨.

منهج التصوف

- هو منهج الإسلام، منهج اتباع القرآن والسنة والسلف الصالح يعمل على تزكية النفس وتطهيرها من أدرانها والوصول إلى القلب السليم وإلى الإحسان وإلى محبة اللّه ورسوله وإلى التقوى والورع وإلى التوكل لا التواكل وإلى الإيثار والتعاون وإلى الإخلاص والصدق والصبر والاستقامة.

- كما أنه يعمل على معالجة النفس من أمراضها كالكبر والشح والعجب والحسد والرياء والحقد والغش والغضب والعداوة والبغضاء والطمع والبخل والبطر والخيلاء والخيانة والمكر والخداع والظلم والقسوة.

- معتمداً على وسائل كثيرة منها التوبة والاستغفار، ومراقبة اللّه في كل الحركات والسكنات والأعمال، والخوف منه ومن عقابه والإكثار من الذكر والتسبيح والمحافظة على الفرائض والإكثار من النوافل كصلاة الليل والتهجد إلى غير ذلك من أعمال السلوك والرياضة الروحية وكل هذه المواضيع وغيرها مما يشتمل عليها منهاج التصوف إنما هي جزء هام من الإسلام إنها الجانب الروحي والفقه الباطني والتزكية الإيمانية والإحسان الذي هو أحد أركان الدين.

- يقول الشيخ محمد أمين الكردي شارحاً منهج التصوف: (التصوف هو علم يعرف به أحوال النفس محمودها ومذمومها، وكيفية تطهيرها من المذموم منها، وتحليها بالاتصاف بمحمودها، وكيفية السلوك والسير إلى اللّه تعالى والفرار إليه.

علم التصوف علم ليس يدركه ... إلا أخو فطنة بالحق معروف
وكيف يعرفه من ليس يشهده ... وكيف يشهد ضوء الشمس مكفوف

وموضوعه: أفعال القلوب والحواس من حيث التزكية والتصفية.

وثمرته: تهذيب القلوب، ومعرفة علام الغيوب ذوقاً ووجداناً، والنجاة في الآخرة والفوز برضا اللّه تعالى ونيل السعادة الأبدية، وتنوير القلب وصفاؤه بحيث ينكشف له أمور جليلة، ويشهد أحوالاً عجيبة، ويعاين ما عميت عينه بصيرة غيره.

وفضله: أنه أشرف العلوم المتعلقة بمعرفة اللّه تعالى وحبه وهي أفضل على الإطلاق.

ونسبته إلى غيره من العلوم، أنه أصل لها وشرط فيها، إذ لا علم ولا عمل إلا بقصد التوجه إلى اللّه فنسبته لها كالروح للجسد)[(١)].

– ولقد اتبع هذا المنهج الصحابة الكرام، ومن بعدهم التابعون، وتابعوهم والسلف الصالح والعلماء العاملون، وعلى مر العصور والأيام، وما خالفهم إلا كل جاهل أو حاقد أو حاسد أو مستأجر أو منافق أو ذو أهواء وأغراض.

– فما أحرانا نحن أن نتبع هذا المنهج ونتعلمه ونحافظ عليه ونطبقه وندعو إليه، وكم نحن بحاجة إليه وخاصة في هذا الزمان.

– ولابد لسلوك هذا المنهج من اتباع المعلم المرشد، والشيخ الدال على اللّه عز وجل الذي سلك هذا الطريق وعرف كنهه وصدق فيه فأصبح مرشداً حقاً ومربياً صادقاً يستطيع أن يدل من أراد سلوك هذا الطريق إلى حقائقه والوصول به إلى نتائجه وهي معرفة اللّه المعرفة الحقيقة والعمل على رضائه والسعي إلى طاعته والسير على منهجه حتى يلقاه وهو راض عنه، وينال بذلك سعادة الدارين الدنيا والآخرة، وكذلك يحتاج هذا المنهج إلى صحبة أهله والصدق معهم حتى يتعلم منهم ويستفيد منهم.

---

(١) محمد أمين الكردي: تنوير القلوب، ص٤٣٨.

الباب الثاني:

أنواع التصوف

١- التصوف السُّنِّيُّ.

٢- التصوف البِدْعِيُّ.

٣- التصوف الفلسفيُّ.

الشطح

أنواع التصوف

- ظهر التصوف منذ نشأته إلى هذا الوقت في ثلاثة أشكال:

أولاً التصوف السُّنِّيّ: (وهو المعتبر والمعتمد عند أهل التصوف الحقيقيين).

- وهو ما اعتمد في طريقته وسلوكه على القرآن والسنة، وهذا ما سمي أيضاً بالتصوف السلفي أو التصوف الشرعي كما سماه ابن تيمية[١].

- وهو يدعو للتقيد بالشريعة السَّمْحة بعيداً عن الشطحات الكثيرة، وهذا هو التصوف الذي نتحدث عنه في كتابنا هذا، ونتمسك به وندعو إليه .

- وقد عبر عن هذا التصوف العارف بالله سهل التستري وهو من كبار علمائه بقوله:

(أصول طريقتنا ستة: التمسك بكتاب الله، والاقتداء بسنة رسول الله، وأكل الحلال، وكفُّ الأذى، واجتناب الآثام، وأداء الحقوق) [٢].

- التصوف السني يقوم على الاعتدال والوسطية والتوازن في كل شأن من شؤون الدين والدنيا محققاً قول الله سبحانه وتعالى:

﴿ وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ ﴾ [٣]

---

(١) انظر الفتاوى جزء١٠ ص٥١٧.

(٢)دائرة معارف الشعب، جزء٣، ص٤٨١.

(٣)سورة القصص:٧٧

- وقوله تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمۡ عِندَ كُلِّ مَسۡجِدٖ وَكُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ وَلَا تُسۡرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُسۡرِفِينَ ٣١ ﴾(1)

- وقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَجۡعَلۡ يَدَكَ مَغۡلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبۡسُطۡهَا كُلَّ ٱلۡبَسۡطِ فَتَقۡعُدَ مَلُومٗا مَّحۡسُورًا ٢٩ إِنَّ رَبَّكَ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرَۢا بَصِيرٗا ٣٠ ﴾(2)

إلى غير ذلك من الآيات التي تدعو إلى التوسط والاعتدال وعدم المغالاة أو الإفراط أو التفريط.

- ولقد أشار سماحة المربي الشيخ أحمد كفتارو رحمه الله إلى هذا النوع من التصوف- وهو الذي اعتمده منهجاً في تربية تلامذته- حين قسم التصوف إلى قسمين:

التصوف القرآني، والتصوف الرهباني، وقال منتقداً التصوف الرهباني:

(إن التصوف الرهباني هو الذي حطم وجود العالم الإسلامي الفكري والحضاري، وهو الذي أضعف المسلمين فكرياً وحضارياً.

ثم تحدث عن التصوف القرآني فقال: وأما التصوف القرآني فهو التصوف المعتمد بل النابع من تعاليم القرآن التي توجه إلى الفقه الباطني و التزكية النفسية و التربية الأخلاقية و يعقب على ذلك بقوله: (دعونا من كلمة تصوف ولنعد إلى مصطلح القرآن: التزكية والتربية الروحية والتربية الحكيمة التي تعطي إسلام الحياة المتكاملة فكراً وروحاً وخلقاً ومعاملة).

ثم أضاف قائلاً: (وأما التصوف القرآني بحقائقه الكلية وواقعه فينقسم أيضاً إلى قسمين:

١-التصوف الخلقي.　　　　٢- التصوف التحققي.

---

(١)سورة الأعراف: ٣١

(٢) سورة الإسراء: ٢٩-٣٠.

- **فالتصوف الخلقي**: هو التصوف الذي يجب أن يتحلى به كل مسلم، ولا يستثنى منه أحد، وهو التربية الروحية القرآنية الخلقية بترويض النفس لتمثل أخلاق القرآن كاملة.
- **والتصوف التحققي**: هو إدراك مقام الإحسان كما جاء في حديث رسول الله ﷺ عندما جاءه جبريل وقال: ما الإحسان؟ قال: (أن تعبد الله كأنما تراه، فإن لم تكن تراه فهو يراك).

والإحسان هو أعلى مراتب الإيمان بل هو اليقين الحقيقي وهو الإيمان الشهودي.

فعَنِ الْحَارِثِ بن مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ ، أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ : «كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ؟» قَالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، فَقَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ؟» فَقَالَ: قَدْ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لِذَلِكَ لِيَلِي، وَاظمَأَتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ: «يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ»، ثَلاثًا.[1])[2].

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه الطبراني في الكبير.

(٢) د.محمد شيخاني: التربية الروحية بين السلفيين والصوفيين ص٩٧.

ثانياً– التصوف البدعي:

(وهو المردود و المرفوض عند أهل التصوف الحقيقيين)

– وهو ما ابتدعه بعض من انتسب إلى التصوف، وأدخلوا فيه بدعاً كثيرة تنافي الشريعة وليس لها أصلٌ فيها، وقد جاء في كتاب الاعتصام: (البدعة عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى) [(١)].

– وهذا مرفوض شرعاً ويرفضه أهل التصوف الحقيقيون، وقد ظهر من بعض الصحابة مثل هذا الأمر، فأظهر النبي ﷺ رفضه له وعدم موافقتهم يظهر ذلك واضحاً في الحديث الذي رواه أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ ﵁ يَقُولُ: جَاءَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ إِلَى بُيُوتِ أَزْوَاجِ النَّبِيِّ ﷺ يَسْأَلُونَ عَنْ عِبَادَةِ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا أُخْبِرُوا كَأَنَّهُمْ تَقَالُّوهَا فَقَالُوا وَأَيْنَ نَحْنُ مِنَ النَّبِيِّ ﷺ قَدْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ أَحَدُهُمْ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي أُصَلِّى اللَّيْلَ أَبَدًا. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَصُومُ الدَّهْرَ وَلاَ أُفْطِرُ. وَقَالَ آخَرُ: أَنَا أَعْتَزِلُ النِّسَاءَ فَلاَ أَتَزَوَّجُ أَبَدًا، فَجَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: « أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا أَمَا وَاللَّهِ إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي »[(٢)].

سؤال مهمٌ يجب أن نفهم جوابه: ما البدعة وما حكمها؟

– قال الحافظ ابن حجر في شرح حديث البخاري: (« وشر الأمور محدثاتها» [(٣)].

البدعة لغة: كل شيء أُحدث على غير مثال.

(١) الشاطبي: الاعتصام، جـ١ ص٣٠.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه.

وقال أيضاً في شرح حديث :«نِعْمَتِ البدعة هذه» [1].

البدعة أصلها ما أحدث على غير مثال سابق.

البدعة شرعاً: عرف الإمام النووي البدعة: (هي إحداث ما لم يكن في عهد رسول الله ﷺ)[2].

هذا وقد قسم العلماء البدعة إلى قسمين اثنين: بدعة محمودة، وبدعة مذمومة.

فقد قال الشافعي رحمه الله تعالى: (البدعة بدعتان: بدعة محمودة، وبدعة مذمومة، فما وافق السنة فهو محمود، وما خالف السنة فهو مذموم) [3].

وأخرج البيهقي عن الإمام الشافعي في مناقبه: (المحدثات ضربان: ما أُحدث فيه مما يخالف كتاباً أو سنة أو أثراً أو إجماعاً فهذه البدعة الضلالة، وما أُحدث فيه من الخير لا يخالف شيئاً من ذلك فهو محدثة غير مذمومة) [4].

وقد تحدث العديد من العلماء في البدعة، وأوصلوها إلى خمسة أقسام:

- **واجبة**: مثل تعلم النحو، ونظم أدلة المتكلمين للرد على الملاحدة والمبتدعين...
- **مندوبة**: مثل الأذان على المنائر، وتصنيف كتب العلم وبناء المدارس وغير ذلك...
- **مباحة**: مثل استعمال المنخل، والتوسع في المأكل والمشرب...
- **مكروهة**: مثل تزيين المصاحف وزخرفة المساجد...

---

(١) أخرجه البخاري ومالك.

(٢) تهذيب الأسماء واللغات جزء٣، ص٢٩٨.

(٣) أبو نعيم: حلية الأولياء جزء٩، ص١١٣.

(٤) ابن حجر: فتح الباري، جزء٢٠، ص٣٣٠.

- **محرمة**: وهي ما أحدث مخالفاً السنة، ولم تشمله أدلة الشرع العامة، ولم يحتوِ على مصلحة شرعية.

- ومما يوضح فهم هذا الموضوع حديث النبي ﷺ الذي قال فيه: « مَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً حَسَنَةً فَلَهُ أَجْرُهَا وَأَجْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا بَعْدَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْءٌ وَمَنْ سَنَّ فِي الإِسْلاَمِ سُنَّةً سَيِّئَةً كَانَ عَلَيْهِ وِزْرُهَا وَوِزْرُ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ بَعْدِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَوْزَارِهِمْ شَيْءٌ»[١].

- هذا وقد سنّ بعض الصحابة أموراً في العبادات في عهد النبي ﷺ فوافقهم عليها وأقرّها، وأُخذ بها على أنها سنة حسنة، والأمثلة في ذلك كثيرة[٢] أذكر منها مثالاً واحداً على سبيل الذكر لا الحصر: عَنْ رِفَاعَةَ بْنِ رَافِعٍ الزُّرَقِيِّ قَالَ كُنَّا يَوْمًا نُصَلِّى وَرَاءَ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمَّا رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرَّكْعَةِ قَالَ: «سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ». قَالَ رَجُلٌ وَرَاءَهُ رَبَّنَا وَلَكَ الْحَمْدُ ، حَمْدًا كَثِيرًا طَيِّبًا مُبَارَكًا فِيهِ ، فَلَمَّا انْصَرَفَ قَالَ «مَنِ الْمُتَكَلِّمُ». قَالَ أَنَا. قَالَ: «رَأَيْتُ بِضْعَةً وَثَلاَثِينَ مَلَكًا يَبْتَدِرُونَهَا ، أَيُّهُمْ يَكْتُبُهَا أَوَّلُ»[٣].

قال الحافظ ابن حجر وهو يشرح الحديث: (يستدل به على جواز إحداث ذكر في الصلاة غير مأثور إذا كان غير مخالف للمأثور، وعلى جواز رفع الصوت بالذكر ما لم يشوش)[٤].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن جرير بن عبد الله.

(٢) انظر كتاب المؤلف:د.محمد خير فاطمة اتباع لا ابتداع ص ١٨.

وانظر كتاب الشيخ يوسف خطار محمد الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية ص٤٨٩ وما بعدها.

(٣) أخرجه البخاري والنسائي وأبو داود وأحمد وابن خزيمة.

(٤) ابن حجر: فتح الباري جزء٣، ص١٨٨.

– ومن هذا القبيل أيضاً ما سنه الصحابة الكرام بعد النبي ﷺ واجتهدوا به ووافقهم عليه جموع الصحابة وهو أمور كثيرة أذكر منها ثلاثة للتبيان لا للحصر[1]:

١) قتال أبي بكر ﷺ لمانعي الزكاة واستباحة دمائهم حتى يذعنوا لهذا الركن حتى قال قولته المشهورة: (والله لو منعوني عقالا كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لقاتلتهم على منعه).

فقال عمر : (فو الله ما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال فعرفت أنه الحق)[2].

٢) جمع القرآن في كتاب واحد على عهد سيدنا أبي بكر ﷺ وقد توقف فيه زيد بن ثابت وقال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما كيف تفعلان ما لم يفعله النبي ﷺ ثم علم أنه مصلحة، فوافق على جمعه.[3]

وقد ذكر الشاطبي أن هذا العمل واجب وسماه مصلحة وأبى أن يسميه بدعة.

٣) جمع سيدنا عمر ﷺ المسلمين في صلاة التراويح في رمضان على قارئ واحد:

فعن عبد الرحمن بن عبد القاري أنه قال: خرجت مع عمر بن الخطاب ﷺ ليلة في رمضان إلى المسجد فإذا الناس أوزاع متفرقون يصلي الرجل لنفسه ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب ثم خرجت معه ليلة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم قال: عمر نعم البدعة هذه[4].

(١) للتوسع أكثر انظر كتاب المؤلف د.محمد خير فاطمة اتباع لا ابتداع ص٢٢ وما بعدها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) انظر القصة في صحيح البخاري.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه.

وعن أبي إسحاق الهمداني قال : خرج علي بن أبي طالب في أول ليلة من رمضان والقناديل تزهر وكتاب الله يتلى في المساجد فقال نور الله لك يا ابن الخطاب في قبرك كما نورت مساجد الله بالقرآن [١].

مما سبق يجب أن نفهم جيداً معنى البدعة، وأن البدعة بدعتان بدعة محمودة وبدعة مردودة، والبدع المردودة هي الضلالة فقط.

- وهذا ما أكد عليه الإمام الشافعي في قوله: (ما أُحدث وخالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً أو أثراً فهو البدعة الضالة، وما أحدث من الخير، ولم يخالف شيئاً من ذلك فهو المحمود)[٢].

- وعلينا أن نعي **القاعدة الأصولية المشهورة** بين أهل العلم: (ترك النبي ﷺ لشيء لا يدل على حرمته، ما لم يأتِ حديث أو أثر بالنهي عن الشيء المتروك بمقتضى تحريمه أو كراهيته) [٣].

- كل ذلك يجعلنا ألا نحكم على أمر نراه من أهل التصوف في طرقهم أنه بدعة، وأنها ضلالة، وهي في النار إلا إن تأكدنا بأنها مخالفة للقرآن والسنة وإجماع الصحابة، وليس لها دليل في هذه الأصول.

- ومن هذا القبيل فإن ذكر الناسِ الله ﷻ فُرادى أو جماعات، جهراً أو سراً بالصيغ المشروعة، من البدع الحسنة التي لها أدلتها من الشرع، وكذلك القيام لأهل العلم والفضل، وتقبيل يد العلماء والأفاضل، واستعمال السُّبحة (المِسبحة) في الذكر، والاحتفالات بمولد النبي ﷺ كلها لها أصلٌ في الشرع أيضاً[٤].

---

(١) ابن شاهين: كنز العمال.

(٢)أخرجه البيهقي في مناقبه.

(٣)انظر د.محمد سليمان الأشقر: أفعال الرسول ﷺ ودلالتها على الأحكام التشريعية.

(٤)راجع كتاب المؤلف: د.محمد خير فاطمة اتباع لا ابتداع.وكتابه المولد النبوي الشريف اتباع لا ابتداع.

- أما ما نراه من مظاهر الاختلاط بين الذكور والإناث في حفلات الذكر والموالد، واستعمال الآلات الموسيقية المتعددة - غير الدف – والأناشيد التي تتعدى ذكر الله ﷻ ومناجاته ودعاءه، والحديث عن النبي ﷺ وأخلاقه وصفاته وحبه، وحركات الرقص والتفنن بها أثناء ذلك، فكل ذلك وما شابهه بدعة مردودة مذمومة ضالة.

- **وأخيراً**: أقول لقد أسهبت في الحديث عن البدعة، وما يتعلق بها لأوضح للقارئ أن عليه أن يميز عندما يرى أي بدعة تظهر من أهل التصوف هل هي بدعة حسنة، أم بدعة سيئة قبل أن يحكم عليها بالضلالة والنار، أو يتأثر بأقوال الجهلة أو المغرضين.

- فإن خالفت الشرع فإن كل مؤمن صادق الإيمان يرفضها ويأباها، ولا يمكن له أن يمارسها أو يتغاضى عنها أو يقبلها، وأن يعلم أن أهل التصوف الحقيقيين لا يرضون عنها ولا يوافقون عليها، ولا يمكن أن تصدر منهم.

- وما ظهر من بدع من بعض المتصوفة، فإنما ظهر من المريدين المتأخرين منهم الذين لم يتقيدوا بشيوخهم الحقيقيين من أهل التصوف والطرق الصوفية المؤصلة، وهذا يدعو أن لا ينكر التصوف وأهله جملة وتفصيلاً، وإنما تنكر أعمال هؤلاء المبتدعين الجهلة.

- وإن وجد للبدعة أصلٌ في الدين فإنها تعدّ بدعة حسنة لا يُعارَض أهلها ويُتركون وشأنهم.

۞ ۞ ۞

ثالثاً– التصوف الفلسفي

(وهو مرفوض ومردود عند أهل التصوف الحقيقيين)

– وهو التصوف الذي تأثر بالفلسفات القديمة من يونانية أو رومانية أو فارسية أو هندية أو غيرها، وظهر على دعاتها انحراف في العقيدة أو التعاليم الإسلامية، وأهم هذه الانحرافات أقوالهم في وحدة الوجود والحلول والاتحاد، فهم يتصورون في وحدة الوجود إتحاد الحق بالخلق، وأن لا شيء في هذا الوجود إلا الحق، وأن الكل هو وأنه هو الكل، وأنه عين الأشياء، ففي كل شيء له آية تدل على أنه عينه، وهذا لا شك فيه كفرٌ وزندقة وهو أشد ضلالة من أباطيل اليهود والنصارى وعبدة الأوثان.

– والإيمان الحقيقي عند كل مسلم هو اعتقاده: (أن وجود الله ﷻ ذاتي، أي لا تأثير لغيره به، إذ أن الله تعالى هو الأول فليس قبله شيء.

– قال ﷺ: «كَانَ اللَّهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ»[(١)].

– أما وجود الموجودات فهو حاصل من إيجاد الله ﷻ لها، ومستمر بإمداد الله تعالى لها بالوجود، ولو انقطع الإمداد لعادت عدماً.

– وعليه فمن نظر إلى الموجد الممدِّ سبحانه وتعالى رآه هو الموجود حقيقة، ومن لاحظ الإمداد رأى الأشياء عدماً لولاه سبحانه، فوجودها ليس ذاتياً كوجود الله ﷻ، ولذلك قالوا: الوجود الحقيقي واحد وهو الله سبحانه وتعالى، ووجود غيره لا يشابه وجوده) [(٢)].

– عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عمران بن حصين.

(٢)الشيخ يوسف خطار: محمد الموسوعة اليوسفية، ص٤٣٥.

« أَصْدَقُ كَلِمَةٍ قَالَهَا الشَّاعِرُ كَلِمَةُ لَبِيدٍ أَلاَ كُلُّ شَيْءٍ مَا خَلاَ اللَّهَ بَاطِلٌ»[(١)].

– وأما القائلون بالحلول والاتحاد فهم يعتقدون أن الله سبحانه وتعالى قد حل في جميع أجزاء الكون في البحار والجبال والصخور و الأشجار والإنسان والحيوان...الخ أو بمعنى أن المخلوق عين الخالق فكل الموجودات المحسوسة والمشاهدة في هذا الكون هي ذات الله تعالى وعينه، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً، ولا شك أن هذا القول كفر صريح يخالف عقيدة الإسلام وشرعه.

– ينبغي للمسلم أن يعلم أن هذه الأفكار مرفوضة من وجهة النظر الإسلامية، ولا يمكن لأي مسلم قبولها لتصادمها مع مبدأ تنزيه الباري فهو الخالق لجميع المخلوقات، والمبدع لها من العدم.

– وعليه أن يعلم أن هذه الأفكار إن ثبتت على مدعيها ولم تكن مدسوسة عليهم لا يمكن قبولها على أنها من التصوف، فالتصوف بريء منها، ولا علاقة له بها لأنها تتصادم مع اعتقاد المسلم الذي جاءت به الشريعة الإسلامية.

– ولقد نُسِبَ إلى كثير من علماء التصوف الحقيقيين مثل هذه الأقوال وهم منها براء فهي مدسوسة عليهم من أعدائهم أو أن كلامهم لم يقصدوا به ما فهمه أعداؤهم، وكثير منهم دافع عن نفسه بالحقيقة وأظهر اعتقاده الحق، فقد قال الشيخ محيي الدين بن عربي: (تعالى الحق أن تحله الحوادث أو يحلها. وقال في عقيدته الوسطى أعلم أن الله تعالى واحد بالإجماع ومقام الواحد يتعالى أن يحل فيه شيء أو يحل هو في شيء أو يتحد في شيء) [(٢)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) محيي الدين بن عربي: الفتوحات المكية في العقيدة الصغرى.

- وقال في باب الأسرار: (لا يجوز لعارف أن يقول: أنا الله ولو بلغ أقصى درجات القرب وحاشا العارف من هذا القول حاشاه إنما يقول: أنا العبد الذليل في المسير والمقيل)(١).

- ثم قال: (من قال بالحلول فهو معلول فإن القول بالحلول مرض لا يزول، وما قال بالاتحاد إلا أهل الإلحاد، كما أن القائل بالحلول من أهل الجهل والفضول)(٢).

- وأما قول أبي يزيد البسطامي رحمه الله: (سبحاني ما أعظم شاني) فهو في معرض الحكاية عن الله، وليس عن نفسه، وكذلك قول من قال: (أنا الحق) محمول على الحكاية أيضاً، ولا يظن بهؤلاء العارفين الحلول والاتحاد، كذلك غير مظنون بعاقل فضلاً عن المتميزين بخصوص المكاشفات واليقين والمشاهدات.

- وما أجمل إنصاف ابن تيمية أثناء توضيحه لكلام السادة الصوفية في هذا الشأن والدفاع عنهم فقد قال ما نصه :

(وأما ما ورد من كلام علماء السادة الصوفية في كتبهم مما يفيد ظاهرة الحلول والاتحاد فهو إما مدسوس عليهم بدليل ما سبق من صريح كلامهم في نفي هذه العقيدة الضالة، وإما لم يقصدوا به القول بهذه العقيدة الضالة، ولكن المغرضين حملوا المتشابه من كلامهم على هذا الفهم الخاطئ ورموهم بالكفر والضلال، أما العلماء المنصفون فقد فهموا كلامهم على معناه الصحيح الموافق لعقيدة أهل السنة والجماعة، وأولوه بما يلائم ما ورد عنهم من نصوص صحيحة موافقة لعقيدة أهل السنة والجماعة.

- ومن هذا القبيل قول ابن تيمية رحمه الله تعالى: وأما قول الشاعر في شعره:

---

(١)المصدر السابق.

(٢) المصدر نفسه كما في اليواقيت والجواهر جـ١ ص٨٠-٨١.

أنا من أهوى ومن أهوى أنا

فهذا إنما أراد به الشاعر الاتحاد المعنوي كاتحاد أحد المحبين بالآخر الذي يحب أحدهما ما يحبه الآخر، ويبغض ما يبغضه، ويقول مثلما يقول، ويفعل مثلما يفعل، وهذا تشابه وتماثل لا اتحاد العين بالعين إذا كان قد استغرق في محبوبه، حتى فني به عن رؤية نفسه، كقول الآخر:

غبت بك عني فظننت أنك أني

فهذه الموافقة هي الاتحاد السائغ) (١).

- وقال ابن تيمية رحمه الله في تبرئة السادة الصوفية من هذه التهمة الباطلة ما نصه:

(ليس أحد من أهل المعرفة بالله يعتقد حلول الرب به أو بغيره من المخلوقات، ولا اتحاده به، وإن سمع شيء من ذلك منقول عن بعض أكابر الشيوخ فكثير منه مكذوب، اختلقه الأفاكون من الاتحادية الإباحية الذين أضلهم الشيطان، وألحقهم بالطائفة النصرانية) (٢).

- وقال أيضاً: (كل المشايخ الذين يقتدى بهم في الدين متفقون على ما اتفق عليه سلف الأمة وأئمتها من أن الخالق سبحانه مباين للمخلوقات، وليس في مخلوقاته شيء من ذاته، ولا في ذاته شيء من مخلوقاته، وأنه يجب إفراد القديم عن الحادث، وتميز الخالق عن المخلوق، وهذا في كلامهم أكثر من أن يمكن ذكره هنا) (٣).

- في هذا الموضوع لابد أن نشير إلى موضوع جانبي يتعلق به، ويتحدث به أهل التصوف، وهو موضوع (الشطح).

---

(١) مجموع رسائل ابن تيمية ص٥٦.

(٢) مجموع الفتاوى جزء ١١ ص٧٤ و٧٥.

(٣) مجموع الفتاوى جزء ٢ ص٢٢٣.

الشطح

الشطح **في اللغة**: هو الحركة، يقال: شَطَحَ يَشْطَحُ إذا تحرك.

- ألا ترى أن الماء الكثير إذا جرى في نهر ضيق ففاض من حافتيه، يقال: شطح الماء في النهر.
- الشطح عند أهل التصوف: عبارة عن كلمات تصدر من بعض الصوفية بعبارات مستغربة في وصف وجدٍ (شعور نفسي) فاض بقوته وهاج بشدة غليانه ووهجه في حالة الغيبوبة وغلبة شهود الله تعالى عليهم بحيث لا يشعرون حينئذ بغير الحق، وهذه الكلمات لو صدرت عنه وعقله معه لأنكرها، وهذه الحالة غير محمودة عند الصوفيين.
- ومن الذين ذكر عنهم الشطحات أبو يزيد البسطامي والحلاج ومحيي الدين بن عربي.
- ومع أن هؤلاء الرجال من المتصوفة قد أنكروا ما نسب إليهم في هذا الموضوع.

أو أنهم فسروا شطحاتهم بما يدفع التهم عنهم، (فقد نقل عن بن عربي أنه قال:

يا من يراني ولا أراه   كم ذا أراه ولا يراني

فلما سمع بعض أصحابه هذا البيت قال له: كيف تراه ولا يراك، فأجاب مرتجلاً في لباقة عجيبة:

يا من يراني مجرماً   ولا أراه آخذاً

كم ذا أراه منعماً   ولا يراني لائذاً[(١)].)[(٢)].

- لكن بعض المعاصرين لهم والمنكرين قد اتهموهم بالزندقة والكفر، وقاموا بتجييش العلماء والحكام عليهم مما أدى إلى قتل بعضهم على أقوالهم تلك.
- ولكن المنصفين والمحبين لهم عللوا أقوالهم وفسروها بما يبعد الزندقة والكفر عنهم.

---

(١) لائذاً هنا: بمعنى مراوغاً ومنكراً، أي: يستر عليَّ تقصيري ونقصي ويسامحني.

(٢) موسوعة التراث الإنسانية، إصدار وزارة الثقافة المصرية، جزء١ ص١٥٦.

- فمنهم من عدَّ أن هذه الشطحات قد دست عليهم من أجل الإيقاع بهم، فلا يمكن لهؤلاء الرجال أصحاب الإيمان والتقوى والعلم والزهد أن يقع منهم مثل هذه الكلمات.

- ومنهم من قال: إن الشطحات يعفى عنها لأهل الأحوال والمواجيد الصحيحة كما حصل مع الرجل الذي أضل راحلته في الصحراء وعليها طعامه وشرابه ومتاعه، وعندما وجدها أصابه حال سرور، فأخطأ من شدة فرحه.

فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: « لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضِ فَلاَةٍ فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ: مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ.أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ »[(١)].

- وفي الإجمال: فإن أهل التصوف الحقيقيين من العلماء العاملين، والمربين المرشدين، وأهل الله الصادقين، ينبهون بل ويشددون على أن العالم يجب ألا يظهر منه أي كلام أو ألفاظ تخالف الشريعة، ولو لم يقصد ذلك، بل عليه أن يكون كلامه وجميع ألفاظه مقيدة بالشريعة، ولا حاجة لكلام وألفاظ تحتمل أكثر من معنى، أو له مفهوم ومقصود غامض لا يفهمه كل الناس، ويحتاج إلى تأويل وتفسير وتوضيح، وذلك حتى لا يخوض الناس في مثل هذا الموضوع من جهة، وحتى لا ندع المجال لأعداء التصوف للطعن ومحاربة هذا الطريق المرشد إلى الله ﷻ وإلى اتباع القرآن والسنة المطهرة من أجل تعميق الإيمان، وتزكية النفس، وتطهير الروح، وطمأنينة القلب، وانشراح الصدر، والذي نحن في أشد الحاجة إليه في هذا الزمان العصيب.

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

الباب الثالث:

السلوك في طريق التصوف

١- البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي و الانتساب إليه و مصاحبته و الالتزام بإرشاداته و توجيهاته.

٢- مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين.

٣- أداء الفرائض بكمالها و التقرب إلى الله بنوافلها.

٤- الإكثار من ذكر الله في كل الأحوال مع الصلاة على النبي ﷺ.

٥- السعي على سلامة القلب و صلاحه

٦- التزام المقامات والأحوال التي تُبَلِّغُهُ الطريق وتدله عليه.

السلوك في طريق التصوف

– يقول الإمام القشيري تحت عنوان الشريعة والحقيقة: (الشريعة أمر بالتزام العبودية، والحقيقة مشاهدة الربوبية[1]، وكل شريعة غير مؤيدة بالحقيقة فأمرها غير مقبول، وكل حقيقة غير مقيدة بالشريعة فأمرها غير محصول.

والشريعة جاءت بتكليف من الخالق، والحقيقة أنباء عن تصريف الحق، فالشريعة أن تعبده، والحقيقة أن تشهده، والشريعة قيام بما أمر، والحقيقة شهود لما قضى وقدر، وأخفى وأظهر.

سمعت أبا علي الدقاق[2] رحمه الله يقول: (إياك نعبد) حفظ للشريعة، و(إياك نستعين) إقرار بالحقيقة.

واعلم أن الشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت بأمره، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث إنّ المعارف[3] به سبحانه أيضاً وجبت بأمره)[4].

– فبعد الأبحاث النظرية عن علم التصوف وما يتعلق به، كان لابد من دراسة حقائق التصوف؟ وكيف يمكن سلوك طريقه؟ وهذا أهم شيء يجب أن يبحث عنه من أراد التعرف حقاً على طريق أهل التصوف الذين هم أهل الله ﷻ وخاصته، وأهل الصفاء والنقاء، وأهل الولاية والعرفان،

---

(١) مشاهدة الربوبية: أي رؤيتها بالقلب، ويعبر عن ذلك بأن الشريعة معرفة السلوك إلى الله تعالى، والحقيقة دوام النظر إليه، والطريقة سلوك طريق الشريعة أي العمل بمقتضاها.

(٢) أبو علي الدقاق: هو الحسن بن علي بن محمد الدقاق، النيسابوري الشافعي صوفي، فقيه، أصولي. توفي سنة (٤٠٥ هـ/ ١٠١٥ م). [الأعلام للزركلي]

(٣) إن المعارف: أي معرفة العارفين النفس.

(٤) القشيري: الرسالة القشيرية، ص٨٢..

وأهل التقى والنقاء، أحباب الله والدعاة إليه، وأهل الإخلاص والصدق مع الله، وأهل القرب والاستقامة.

فمن أراد أن يسلك مسلكهم، وأن يتتبع خطاهم وجب عليه أن يسعى للسير في خمسة مطالب:

المطلب الأول: البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي والانتساب إليه ومصاحبته والالتزام بإرشاداته وتوجيهاته.

المطلب الثاني: مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين.

المطلب الثالث: أداء الفرائض بكمالها و التقرب إلى الله بنوافلها.

المطلب الرابع: الإكثار من ذكر الله في كل أحواله مع الصلاة على النبي ﷺ.

المطلب الخامس: السعي إلى سلامة القلب وصلاحه.

المطلب السادس : التزام المقامات والأحوال التي تُبَلِّغه الطريق وتدله عليه.

المطلب الأول

البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي

و الانتساب إليه ومصاحبته والالتزام بإرشاداته وتوجيهاته.

– إن أول طريق التصوف لمن أراد أن يسلكه أن يبحث عن شيخ مربٍ يلتزمه حتى يشرف على تربيته، ويوجهه إلى الطريق المستقيم، وهذا لابد منه لكل سالك أي طريق في هذه الحياة، فمن أراد أن يكون نجاراً لابد أن يكون له معلم، وكذلك مَنْ أراد أن يكون حداداً أو طالباً أي صنعة أخرى فلابد أن يكون له معلم وكذلك من أراد أن يتعلم أي علم فلابدّ أن يكون له معلم، فمن أراد أن يتقن علم الطب أو الهندسة أو غير ذلك فلابدّ من معلم وأستاذ يتقن هذا العلم أو ذاك، وكل مطلب في هذه الحياة لابد لمن أراد أن يسلك مسلكه ممن يدله على الطريق ويرشده إلى الصواب، وهذا أمر بديهي، فكيف بمن أراد أن يسلك طريق الله ﷻ طريق الصلاح والفلاح، طريق الحياة والنجاح، وهو أعظم طريق وأشرفه، فلابد لسالكه من مرشد ومربٍ وعارف بالله يدله على الطريق، ويساعده على سلوكه، يشير سبحانه وتعالى إلى ذلك بقوله:

﴿ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعۡنَا مُنَادِيٗا يُنَادِي لِلۡإِيمَٰنِ أَنۡ ءَامِنُواْ بِرَبِّكُمۡ فَـَٔامَنَّاۚ رَبَّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرۡ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلۡأَبۡرَارِ ﴾[1]هذه الآية تشير إلى أن الإيمان لابد له ممن يدعو إليه حتى يؤمن الناس، أي لابد من مربٍ ومرشد ومعلم يوضح للناس الطريق نحو الإيمان بالله ويعلمهم كل ما يتعلق بهذا الطريق حتى يبلغوا حقيقة هذا الطريق علماً وفهماً وتطبيقاً وسلوكاً.

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٣.

- ولهذا اختار الله ﷻ النبي محمداً ﷺ ليكون نبي هذه الأمة فوجهه وعلمه وأدبه بواسطة الوحي عن طريق جبريل.

- ولقد كان النبي ﷺ المرشد والمربي والموجه للصحابة الكرام.

- وكذلك كان كل صحابي أستاذة ومربياً للتابعين، وكان التابعون أستاذة لمن تبعهم وهكذا انتقلت العلوم إلينا بفضل العلماء، الذين حملوه إلينا، قال رسول الله ﷺ:

«وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلاَ دِرْهَمًا وَرَّثُوا الْعِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ»(١).

- وهذه سنة من سنن الله في خلقه، فقد قال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾(٢)

فدلت هذه الآية على أن قضية المعلم الهادي والدليل المرشد ضرورية لزومية طبعاً وشرعاً، ومن هنا أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين وهادين ومعلمين ومرشدين، ومن هنا جاء أمر الله باتخاذ القدوة الصالحة فقال سبحانه:

﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْآخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾(٣)

- فكان النبي ﷺ المربي الأول للمؤمنين كلفه الله ﷻ بهذه المهمة فقال سبحانه:

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١٦٤﴾﴾(٤)

- وعندما ذكر الله أنماطاً من أهل القدوة الصالحة الداعية إليه تعالى، قال لرسوله:

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢) سورة الرعد:٧

(٣) سورة الأحزاب:٢١

(٤) سورة آل عمران:١٦٤.

﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقۡتَدِهۡ ﴾[1]

- من هنا نرى أن اتخاذ الشيخ العالم المربي واجب لأنّ ما لا يتم الواجب إلا به، فهو واجب وهو ثابتٌ كما رأيت عقلاً وطبعاً وشرعاً مؤيّدٌ بالواقع العلمي والعملي والتاريخي، وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى أهمية القدوة والمرشد بآيات كثيرة منها قوله تعالى:

﴿ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ﴾[2]

- وقوله ﷻ: ﴿ وَٱتَّبِعۡ سَبِيلَ مَنۡ أَنَابَ إِلَيَّۚ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[3]

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿ ٱلرَّحۡمَٰنُ فَسۡـَٔلۡ بِهِۦ خَبِيرٗا ۝٥٩ ﴾[4]

- إن المناهج التربوية جميعاً، وفي كل مجالات التربية والتعليم تحتم وجود معلم ومتعلم فكيف بمن أراد أن يسلك طريق معرفة الله تعالى والوصول إليه، وهو غاية وجود الإنسان في هذه الدنيا التي حدّدها الله سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ۝٥٦ ﴾[5]

قال مجاهد رضي الله عنه: إلا ليعرفوني[6].

- ومعرفة أي شيء لابد لها من معرِّفٍ، فكيف بمعرفة الله ﷻ.

---

(١) سورة الأنعام: ٩٠

(٢) سورة الأنبياء:٧

(٣) سورة لقمان:١٥

(٤) سورة الفرقان:٥٩

(٥) سورة الذاريات: ٥٦

(٦)تفسير القرطبي.

- قال الشيخ أبو حامد الغزالي: (يحتاج المريد إلى شيخ وأستاذ يقتدي به لا محالة ليهديه سواء السبيل، فإن سبيل الدين غامض، وسبل الشيطان كثيرة ظاهرة، فمن لم يكن له شيخ يهديه قاده الشيطان إلى طرقه لا محالة، فمن سَلك سُلك البوادي المهلكة بغير خفير فقد خاطر بنفسه وأهلكها، ويكون المستقل بنفسه كالشجرة التي تنبت بنفسها، فإنها تجف على القرب، وإن بقيت مدة وأورقت لم تثمر، فمعتصم المريد شيخه فليتمسك به) (١).

- وقال أيضاً مؤكداً على اتباع المرشد: (فما يجب في حق سالك طريق الحق أن يكون له مرشد ومربٍ ليدله على الطريق، ويرفع عنه الأخلاق المذمومة، ويضع مكانها الأخلاق المحمودة، ومعنى التربية أن يكون المربي كالزارع الذي يربي الزرع، فكلما رأى حجراً أو نباتاً مضراً بالزرع قلعه وطرحه خارجاً، ويسقي الزرع مراراً إلى أن ينمو ويتربى، ليكون أحسن من غيره، وإذا علمت أن الزرع محتاج للمربي علمت أنه لابد للسالك من مرشد البتة لأن الله تعالى أرسل الرسل عليهم الصلاة والسلام للخلق ليكونوا أدلاء لهم ويرشدوهم إلى الطريق المستقيم، وقبل انتقال المصطفى عليه الصلاة والسلام إلى الدار الآخرة قد جعل الخلفاء الراشدين نواباً عنه ليدلوا الخلق إلى طريق الله، وهكذا إلى يوم القيامة، فالسالك لا يستغني عن المرشد البتة) (٢).

- وقال الإمام ابن عطاء الله السكندري: (وينبغي لمن عزم على الاسترشاد وسلوك طريق الرشاد أن يبحث عن شيخ من أهل التحقيق سالكاً للطريق، تاركاً لهواه، راسخ القدم في خدمة مولاه، فإذا وجده فليمتثل ما أمر، ولينتهِ عما نهى عنه وزجر) (٣).

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين جـ٣ ص٦٥.

(٢) أبو حامد الغزالي: خلاصة التصانيف في التصوف ص١٨.

(٣) تاج الدين بن عطاء الله السكندري: مفتاح الفلاح في ذكر الكريم الفتاح ص٣٠.

– فلابد إذا للمسلم الذي يريد أن يسلك طريق التصوف، طريق معرفة الله ﷻ من أن يبحث عن هذا العالم الذي من أهم شروطه أن يكون عالماً بكتاب الله وسنة رسوله وبعلوم الشريعة وآدابها، وعلوم السلوك ومدارجه، وينبغي أن يكون موصوفاً بصفات أهل العلم الصادقين والمخلِصين والمخلَصين، والأتقياء الورعين، والأولياء المقربين.

– وقد تحدث الشيخ الأكبر بن عربي قدس الله سره عن هؤلاء المربين فقال:

(الشيوخ نواب الحق في العالم كالرسل عليهم الصلاة والسلام بزمانهم، بل هم الورثة الذين ورثوا علم الشرائع عن الأنبياء عليهم السلام غير أنهم لا يشرعون فلهم رضي الله عنهم حفظ الشريعة في العموم وليس لهم التشريع، ولهم حفظ القلوب، ومراعاة الآداب في الخصوص، وهم من العلماء بالله بمنزلة الطبيب.

والشيوخ هم العارفون بالكتاب والسنة، قائلون بها في ظواهرهم، متحققون بها في سرائرهم، راعون حدود الله تعالى، ويوفون بعهد الله ﷻ، قائمون بمراسم الشريعة لا يتأولون في الورع، آخذون بالاحتياط، مجانبون لأهل التخليط، مشفقون على الأمة، لا يمقتون أحداً من العصاة، يحبون ما أحب الله، ويبغضون ما أبغض الله، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر المجمع عليه، يسارعون في الخيرات، ويعفون عن الناس، ويوقرون الكبير، ويرحمون الصغير، يميطون الأذى عن الطريق، طريق الله وطريق الناس، يؤدون حقوق الناس يبرون عباد الله، هينون لينون، رحماء بين خلق الله)[1].

– وقد يسأل سائل كيف الوصول إلى هذا العارف بالله والهادي إليه؟ وكيف الاهتداء إليه والوصول إلى معرفته؟ وما هي شروطه وأوصافه؟

---

(١) أبو سعيد التونسي: حقيقة الصوفية ص٢٩.

- إن أفضل من أجاب على هذا السؤال فضيلة الشيخ عبد القادر عيسى رحمه الله فقال [1]:

(حين يشعر الطالب بحاجته إليه كشعور المريض بحاجته إلى الطبيب، عليه أن يصدق العزم، ويصحح النية، ويتجه إلى الله تعالى بقلب ضارع منكسر، يناديه في جوف الليل، ويدعوه في سجوده وأعقاب صلاته: اللهم دلني على من يدلني عليك، وأوصلني إلى من يوصلني إليك

- وعليه أن يبحث في بلده، ويفتش ويسأل عن المرشد بدقة وانتباه غير ملتفت لما يشيعه بعضهم من فقد المرشد المربي في هذا الزمان.

- فإذا لم يجد أحداً في مدينته فليبحث عنه في مدن أخرى، ألا ترى المريض يسافر إلى بلدة ثانية للتداوي إذا لم يجد الطبيب المختص، أو حين يعجز أطباء مدينته عن تشخيص دائه، ومعرفة دوائه.

- ومداواة الأرواح تحتاج إلى أطباء أمهر من أطباء الأجسام.

وللمرشد شروط لابد منها حتى يتأهل لإرشاد الناس وهي أربعة:

١- أن يكون عالماً بالفرائض العينية.

٢- أن يكون عارفاً بالله تعالى.

٣- أن يكون خبيراً بطرائق تزكية النفوس، ووسائل تربيتها.

٤- أن يكون مأذوناً بالإرشاد من شيخه.

(١) عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف ص٦٨ وما بعدها.

١- **أما الشرط الأول فينبغي أن يكون المرشد عالماً بالفرائض العينية:** كأحكام الصلاة والصوم والزكاة، وأحكام المعاملات والبيوع ...الخ ، وأن يكون عالماً بعقيدة أهل السنة والجماعة بالتوحيد.

٢- **وأما الشرط الثاني فينبغي أن يتحقق المرشد بعقيدة أهل السنة عملاً وذوقاً بعد أن عرفها علماً ودراية**، فيشهد في قلبه وروحه صحتها، ويشهد أن الله تعالى واحدٌ في ذاته، واحدٌ في أفعاله، ويتعرف على أسماء الله تعالى ذوقاً وشهوداً.

٣- **وأما الشرط الثالث فلابد أن يكون قد زكى نفسه على يد مربٍ ومرشد** فخبَرَ مراتب النفس وأمراضها ووساوسها، وعرف أساليب الشيطان ومداخله وآفات كل مرحلة من مراحل السير، وطرائق معالجة كل ذلك بما يلائم حالة كل شخص وأوضاعه.

٤- **وأما الشرط الرابع فلابد للمرشد أن يكون قد أجيز من شيخه بهذه التربية وهذا السير**، فمن لم يشهد له الاختصاصيون بعلم يدعيه، لا يحق له أن يتصدر فيه....

- قال ابن سيرين رحمه الله : (إِنَّ هَذَا الْعِلْمَ دِينٌ فَانْظُرُوا عَمَّنْ تَأْخُذُونَ دِينَكُمْ)(١).

- وقد أوصى رسول الله ﷺ ابن عمر رضي الله عنهما بذلك فقال: «يا ابن عمر لا يغرنَّك ما سبق لأبويك من قبلي فإن العبد لو جاء يوم القيامة بالحسنات كأمثال الجبال الرواسي ظن أنه لا ينجو من أهوال ذلك اليوم يا ابن عمر دينك دينك إنما هو لحمك ودمك فانظر عمن تأخذ خذ عن الذين استقاموا ولا تأخذ عن الذين مالوا» (٢).

- ثم اعلم أن من علامات المرشد أموراً يمكن ملاحظتها:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه ابن عدي عن ابن عمر رضي الله عنهما.

- **منها**: أنك إذا جالسته تشعر بنفحة إيمانية، ونشوة روحية، لا يتكلم إلا بالله، ولا ينطق إلا بخير، ولا يتحدث إلا بموعظة أو نصيحة، تستفيد من صحبته كما تستفيد من كلامه، تنتفع من قربه كما تنتفع من بعده، تستفيد من لحظه كما تستفيد من لفظه.

- **ومنها**: أن تلاحظ في إخوانه ومريديه صور الإيمان والإخلاص، والتقوى والتواضع، وتتذكر وأنت تخالطهم المثل العليا من الحب، والصدق والإيثار، والأخوّة الخالصة، وهكذا يعرف الطبيب الماهر بآثاره ونتائج جهوده، حيث ترى المرضى الذين شفوا بإذن الله على يديه، وتخرجوا من مصحه بأوفر قوة، وأتم عافية.

علماً أن كثرة المريدين والتلاميذ وقلتهم ليس مقياساً وحيداً، وإنما العبرة بصلاح هؤلاء المريدين وتقواهم، وتخلصهم من العيوب والأمراض واستقامتهم على شرع الله تعالى.

- **ومنها**: أنك ترى تلامذته يمثلون مختلف طبقات الأمة، وهكذا كان أصحاب رسول الله فالظفر به يدفع الطالب للتمسك به، والتزام مجالسه، والتأدب معه، والعمل بنصحه وإرشاده في سبيل الفوز بسعادة الدارين) [١].

- وفي هذا الموضوع للنبي ﷺ توجيه عظيم، فقد سئل النبي ﷺ فقيل: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَيُّ جُلَسَائِنَا خَيْرٌ ؟ قَالَ: «مَنْ ذَكَّرَكُمُ اللَّهَ رُؤْيَتُهُ ، وَزَادَ فِي عِلْمِكُمْ مَنْطِقُهُ ، وَذَكَّرَكُمْ بِالآخِرَةِ عَمَلُهُ» [٢].

۞ ۞ ۞

---

(١) عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف: ص٦٨ وما بعدها.

(٢) أخرجه أبو يعلى في مسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما.

المطلب الثاني

مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين

- لابد لمن أراد أن يسلك طريق التصوف من الصحبة، والمقصود بالصحبة البحث عن الأصحاب الذين يسلكون هذا الطريق، ويسيرون مع المربي بصدق وإخلاص، ليصحبهم وينتفع بصحبتهم، فيتعلم منهم ما ينقصه من أمور الدين والدنيا، ويمارس معهم ما تعلمه، ويرى فيهم النموذج الحي لما يتعلمه، ينصحونه تارة، ويبادلونه عواطفه وحياته تارة أخرى، ويشاركونه في فرحه ومسراته، وفي آلامه وامتحاناته.

- وللصحبة أثر كبير في التربية والتزكية، لذلك أمر الله ﷻ المؤمنين بمصاحبة الصالحين.

- فقال سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾ ﴾[1]

- بل أمر الله ﷻ أن يصبر المؤمن نفسه مع الأصحاب، وألا يبتعد عنهم أو يزهد فيهم، كما أمر سبحانه بالابتعاد عن أصحاب السوء: ﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴿٢٨﴾ ﴾[2]

- وبين الله ﷻ ما سيؤول إليه الأمر يوم القيامة لمن ابتعد عن صحبة الصالحين، وصاحب أهل السوء، فقال سبحانه:

---

(١) سورة التوبة:١١٩

(٢) سورة الكهف:٢٨

﴿ وَيَوْمَ يَعَضُّ ٱلظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَٰلَيْتَنِي ٱتَّخَذْتُ مَعَ ٱلرَّسُولِ سَبِيلًا ﴿٢٧﴾ يَٰوَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ﴿٢٨﴾ لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ ٱلذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَآءَنِي ۗ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِلْإِنسَٰنِ خَذُولًا ﴿٢٩﴾ ﴾[1]

- وتحدث سبحانه عن نتائج الصحبة يوم القيامة فقال:

﴿ ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾[2]

كما لفت النبي ﷺ الأنظار إلى أثر الصاحب على صاحبه منبهاً إلى أهمية البحث عن الصاحب التقي فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « الرَّجُلُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ »[3].

- وقد حذر النبي ﷺ من قرناء السوء فقال: «إياك وقرين السوء فإنك به تعرف»[4].

- قال الإمام علي رضي الله عنه يحث على مصاحبة التقي والابتعاد عن الدنيء[5]:

وصاحب تقياً عالماً تنتفـــع بـه ... فصحبة أهل الخير ترجى وتطلـــبُ

وإياك والفســاق لا تصحبنهـــم ... فصحبتهم تعــدي وذاك مجـــربُ

- وقال أيضاً كرم الله وجهه:

---

(١) سورة الفرقان:٢٧-٢٩

(٢) سورة الزخرف:٦٧

(٣) أخرجه أبو داود والترمذي.

(٤) أخرجه ابن عساكر عن أنس بن مالك.

(٥) السفاريني: غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، جزء٤، ص٦٥.

واحذر مُؤَاخاة الدنــــيء فإنـــــه يعدي كما يعدي الصحيحَ الأجربُ

واختر صديقك واصطفيه تفاخرا إن القريـــــن إلى المقارن ينســـب

- وقال أيضاً كرم الله وجهه منبهاً من ضرر مصاحبة الجهال[1]:

فلا تصحب أخا الجهــلِ وإيــــــاك وإيـــــــاهُ

فكم من جاهــــل أردى حليماً حين آخـــــــاهُ

يقاس المــــرء بالمـــــرءِ إذا مــــا المرء ماشــــاهُ

وللشيء من الشـــــيء مقـــاييس وأشبــــــاه

وللقلب على القلـــب دليلٌ حيـــــن يلقـــاه

- وقال عدي بن زيد متحدثاً عن طريقة انتقاء الأصحاب[2]:

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحـب الأردى فتردى مع الردي

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينــه فكـــل قريــــــن بالمقـارن يقتــــدي

فإن كان ذا شر فجانبــــه سرعـــة وإن كان ذا خــــير فقـــاربه تقتـدي

- كما ميز النبي ﷺ بين الجليس الصالح والجليس السوء وأثر كل منهما فقال ﷺ:

« إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السَّوْءِ كَحَامِلِ الْمِسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ فَحَامِلُ الْمِسْكِ إِمَّا أَنْ يُحْذِيَكَ وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»[3].

---

(١) ابن عبد ربه الأندلسي: العقد الفريد ص١٩٧.

(٢) الماوردي: أدب الدنيا الدين ص٢٠٦.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي موسى رضي الله عنه.

- وينبغي لسالك طريق الصوفية أن يحب أصحابه السالكين لهذا الطريق ففي محبتهم يجد حلاوة الإيمان، وقد روى أنس بن مالك ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال: « ثَلاَثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلاَوَةَ الإِيمَانِ أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لاَ يُحِبُّهُ إِلاَّ لِلَّهِ ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ »[١] .

- كما ينبغي لهذا المسلم أن يستقيم على صحبتهم وتفقد أحوالهم وزيارتهم وكل ذلك مدعاة لمحبة الله له، فقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ: « أَنَّ رَجُلاً زَارَ أَخًا لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى فَأَرْصَدَ اللَّهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكًا فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ أَيْنَ تُرِيدُ قَالَ أُرِيدُ أَخًا لِي فِي هَذِهِ الْقَرْيَةِ. قَالَ هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرُبُّهَا قَالَ: لاَ غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي اللَّهِ ﷻ. قَالَ فَإِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكَ بِأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيهِ »[٢].

- وعنه ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ:« مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الْجَنَّةِ مَنْزِلاً »[٣].

- هذا وإن أثر الصحبة الصالحة لا ينتهي في الدنيا وإنما يمتد إلى الآخرة فالمتصاحبون في الله ﷻ في ظل الله يوم لا ظل إلا ظله.

- فقد روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال:«سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلُّهُ» وذكر منهم «وَرَجُلاَنِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ»[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) أخرجه الترمذي في سننه.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه.

- وعنه أيضاً قال، قال رسول الله ﷺ:« إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَيْنَ الْمُتَحَابُّونَ بِجَلاَلِي الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لاَ ظِلَّ إِلاَّ ظِلِّي»[1].

- وقد بين النبي ﷺ مكانة الصحبة الصادقة في الله ﷻ وهي مكانة يغبطهم عليها الأنبياء والشهداء يوم القيامة، فقد روى عمر بن الخطاب ﵁ أن النبي ﷺ قال: (« إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لأُنَاساً مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ وَلاَ شُهَدَاءَ يَغْبِطُهُمُ الأَنْبِيَاءُ وَالشُّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى». قَالُوا يَا رَسُولَ اللَّهِ تُخْبِرُنَا مَنْ هُمْ. قَالَ: « هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ وَلاَ أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا فَوَ اللَّهِ إِنَّ وُجُوهَهُمْ لَنُورٌ وَإِنَّهُمْ عَلَى نُورٍ لاَ يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ وَلاَ يَحْزَنُونَ إِذَا حَزِنَ النَّاسُ». وَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴾[2])[3].

- من كل ما مر معنا سابقاً نجد أنه لابد للمسلم الذي أراد أن يسلك طريق التصوف، طريق أهل الله ﷻ، من أن يبحث عن هؤلاء الأصحاب ويصاحبهم ويسير معهم في هذا الطريق، ليكونوا له عوناً على سلوكه بصدق وإخلاص واستقامة.

۞ ۞ ۞

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) سورة يونس:٦٢.

(٣) أخرجه أبو داود في سننه.

المطلب الثالث

أداء الفرائض بكمالها و التقرب إلى الله بنوافلها

– التقرب إلى الله بأداء الفرائض بكمالها والتقرب إلى الله بنوافلها هي من أهم واجبات السالك لطريق التصوف، طريق التزكية والإحسان، وذلك تحقيقاً لما روى أبو هريرة ﷺ قال : قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا ، وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » [1].

– في هذا الحديث عدة إشارات منها أن العبد إذا أدى الفرائض والنوافل بكمالها وتمامها أصبح موالياً لله وأصبح الله ولياً له يدافع عنه فإن عاداه أحد حاربه الله ومن حاربه الله قصمه.

– ومنها أن التقرب إلى الله ﷻ يكون على مقامين وكل مقام له منازل متفاوتة، ودرجات متعددة، فهناك مقام قرب الفرائض وهو المطلوب أولاً وهذا القرب أحب شيء إلى الله ﷻ وذلك بأن يؤدي العبد جميع فرائض الله تعالى عليه وما أوجبه عليه كاملة من غير نقصٍ، ويدخل في ذلك ترك جميع المحرمات.

– وهناك مقام قرب النوافل التي تؤدي إلى حب الله لمن أداها فإذا أحبه الله ﷻ ألهمه الله ألا يسمع ولا يبصر إلا ما يحبه الله ولا يستعمل يده ولا رجله إلا في طاعة الله عند ذلك ينال الإجابة عند سؤال الله ودعائه وإن استعاذ الله مما يكره أعاذه وإن أراد شيئاً حقق طلبه وأمله.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

- والفرائض كثيرةٌ ليست فقط الفرائض الخمس التي ذُكرت في حديث النبي ﷺ:

«بُنِيَ الإِسْلاَمُ عَلَى خَمْسٍ شَهَادَةِ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلاَةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ» [(١)].

- فهذه الفرائض الخمس هي أهم الفروض الإسلامية وأوجبها وهي متعينة الأداء على كل مُكلف ويجب عند أدائها أن تؤدى بكمالها وأركانها وواجباتها وبخشوعها وما يرتبط بها من أمور متعددة كي يكون أداؤها كاملاً كما يحب الله ويرضى لذلك يجب تعلم فقهها بشكل كامل صحيح وأداؤها بشكل كامل تام، كما يجب الوصول بها إلى الغايات التي تتحقق بأدائها.

- وأول أركان الإسلام الشهادتان: (أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله) فالنطق بالشهادتين هو أول واجب على كل مسلم مكلف، وهذه الكلمة هي عنوان الإسلام المجيد، وهي بعينها نور الإيمان وآية التوحيد، ويجب أداؤها بإخلاصها، فقد روى زيد بن أرقم قال، قال رسول الله ﷺ: «من قال لا إله إلا الله مخلصا دخل الجنة» قيل: وما إخلاصها قال: «أن تحجزه عن محارم الله ﷻ» [(٢)].

- وقال رسول الله ﷺ: «وقول لا إله إلا الله لا يترك ذنبا ، ولا يشبهها عمل »[(٣)].

- لذلك أمرنا النبي ﷺ أن نجدد إيماننا بالإكثار من ذكرها، فقال ﷺ: «جَدِّدُوا إِيْمَانَكُمْ». قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَكَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا قَالَ: «أَكْثِرُوا مِنْ قَوْلِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ »[(٤)].

- ولا يدخل الجنة إلا من ملك المفتاح و قد بين النبي ﷺ حقيقة هذا المفتاح فقال:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط عن زيد بن الأرقم ﵁.

(٣)أخرجه الحاكم في مستدركه عن أم هانئ رضي الله عنها.

(٤)أخرجه أحمد عن أبي هريرة ﵁.

«مِفْتَاحُ الْجَنَّةِ شَهَادَةُ أَنَّ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ»[1] .

- وقيل لوهب بن منبه[2]: (أليس لا إله إلا الله مفتاح الجنة ؟ قال بلى ولكن ليس مفتاح إلا له أسنان[3] فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك وإلا لم يفتح لك) [4] .

والركن الثاني للإسلام هي فريضة الصلاة التي يجب أن تؤدى بأركانها و شروطها و يجب المحافظة عليها في أوقاتها وخاصة مع الجماعة و ألا تُؤخر أو تُهمل و أن تحقق قول الله ﷻ : ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَۖ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾[5]

- وأن تحقق أيضاً قول النبي ﷺ : (مَنْ لَمْ تَنْهَهُ صَلاتُهُ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ، لَمْ يَزْدَدْ مِنَ اللَّهِ إِلا بُعْدًا)[6].

- وقوله ﷺ في الحديث القدسي: (قال الله تعالى ليس كل مُصَلٍّ يصلي إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتي وكفَّ شهواته عن محارمي ولم يصر على معصيتي وأطعم الجائع وكسا العريان ورحم المصاب وآوى الغريب كل ذلك لي وعزتي وجلالي إن نور وجهه لأضوأُ عندي من نور الشمس

---

(١)أخرجه أحمد عن معاذ رضي الله عنه.

(٢)وهب بن منبه: أبو عبد الله وهب بن منبه الابناوي الصنعاني، مؤرخ، كثير الأخبار عن الكتب القديمة، عالم بأساطير الأولين ولاسيما الإسرائيليات، يعد في التابعين، أصله من أبناء الفرس الذين بعث بهم كسرى إلى اليمن. ولد ومات بصنعاء سنة (١١٤هـ/٧٣٢م) وولاه عمر بن عبد العزيز قضاءها. [الأعلام للزركلي]

(٣)(له أسنان . .) أي وأسنان هذا المفتاح فعل ما أمر الله تعالى به وترك ما نهى الله عنه.

(٤)ابن رجب الحنبلي: جامع العلوم والحكم بشرح خمسين حديثا من جوامع الكلم.

(٥)سورة العنكبوت: ٤٥.

(٦) أخرجه الطبراني في الكبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

على أن أجعل الجهالة له حلماً والظلمة نوراً يدعوني فألبيه ويسألني فأعطيه ويقسم عليَّ فأبُرّه أكلؤه بقوتي وأستحفظه ملائكتي مثله عندي كمثل الفردوس لا يتسنى ثمرها ولا يتغير حالها)[1].

- وكذلك القول في الصوم يجب أن يؤدى بما وجه إليه القرآن والسنة بكماله وتمامه ومقصده وغايته ليحصل المطلوب والفائدة المرجوة منه يبين ذلك قول الله ﷻ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾[2] فأهم غاية مرجوة من الصيام أن يصل الإنسان إلى كمال التقوى.

- كذلك يبين النبي ﷺ ذلك في قوله: « مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ »[3] .

- وقول النبي ﷺ:« لَيْسَ الصِّيَامُ مِنَ الأَكْلِ وَالشَّرْبِ فَقَطْ. إِنَّمَا الصِّيَامُ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ. فَإِنْ سَابَّكَ أَحَدٌ أَوْ جَهِلَ عَلَيْكَ فَقَلْ : إِنِّي صَائِمٌ إِنِّي صَائِمٌ »[4].

وقوله ﷺ: « رُبَّ صَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ صِيَامِهِ الْجُوعُ وَالْعَطَشُ وَرُبَّ قَائِمٍ حَظُّهُ مِنْ قِيَامِهِ السَّهَرُ »[5].

- وعَنْ عُبَيْدٍ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّ امْرَأَتَيْنِ صَامَتَا وَأَنَّ رَجُلاً قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ هَا هُنَا امْرَأَتَيْنِ قَدْ صَامَتَا وَإِنَّهُمَا قَدْ كَادَتَا أَنْ تَمُوتَا مِنَ الْعَطَشِ. فَأَعْرَضَ عَنْهُ أَوْ سَكَتَ ثُمَّ عَادَ وَأُرَاهُ قَالَ بِالْهَاجِرَةِ قَالَ يَا نَبِيَ اللَّهِ إِنَّهُمَا وَاللَّهِ قَدْ مَاتَتَا أَوْ كَادَتَا أَنْ تَمُوتَا. قَالَ « ادْعُهُمَا ». قَالَ: فَجَاءَتَا قَالَ: فَجِيءَ بِقَدَحٍ أَوْ عُسٍّ فَقَالَ: لإِحْدَاهُمَا « قِيئِي ». فَقَاءَتْ قَيْحاً أَوْ دَماً وَصَدِيداً وَلَحْماً حَتَّى

---

(١) أخرجه الديلمي عن حارثة بن وهب ﷺ في جامع الأحاديث.

(٢) سورة البقرة:١٨٣.

(٣) أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) أخرجه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم عن أبي هريرة ﷺ.

(٥) أخرجه أحمد وابن خزيمة عن أبي هريرة ﷺ.

قَاءَتْ نِصْفَ الْقَدَحِ ثُمَّ قَالَ لِلأُخْرَى: « قِيئِي ». فَقَاءَتْ مِنْ قَيْحٍ وَدَمٍ وَصَدِيدٍ وَلَحْمٍ عَبِيطٍ وَغَيْرِهِ حَتَّى مَلأَتِ الْقَدَحَ ثُمَّ قَالَ: « إِنَّ هَاتَيْنِ صَامَتَا عَمَّا أَحَلَّ اللَّهُ وَأَفْطَرَتَا عَلَى مَا حَرَّمَ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِمَا جَلَسَتْ إِحْدَاهُمَا إِلَى الأُخْرَى فَجَعَلَتَا تَأْكُلاَنِ من لُحُوم النَّاسِ »[1].

- وكذلك القول في فريضة الزكاة وأدائها في وقتها وتمامها وكمالها مبتعداً عن الرياء وحب السمعة يؤدِّيها بلا منٍّ ولا أذى كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُواْ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾[2]

- مع التقيد بكامل أركانها وآدابها ومستحباتها، وكذلك فريضة الحج يجب تحقيق أهدافها وأركانها وواجباتها وسننها ومستحباتها والتأدب بأدابها كما قال تعالى:

﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ۗ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ ۚ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾[3]

- وكما قال النبي ﷺ: « مَنْ حَجَّ فَلَمْ يَرْفُثْ وَلَمْ يَفْسُقْ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ »[4].

- فهذه الفرائض الخمس هي أهم الفروض الإسلامية وأوجبها، وهي متعينة الأداء على كل مكلف، ولكن هناك فروض وواجبات إسلامية غيرها يجب أداؤها من ذلك: أداء حقوق العباد المالية والثابتة في الذمة، أو التي دخلت عليك من طريق غير شرعي، والعدل في المبادلات المالية والمعاملات دون ظلم، ولا بخس حق، ولا غش ولا تطفيف كيل، ولا نقص وزن، ولا تدليس

---

(١) أخرجه أحمد والبيهقي.

(٢) سورة البقرة :٢٦٢

(٣) سورة البقرة :١٩٧

(٤) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة ؓ.

عيب، ولا قول كذب، ولا خيانة أمانة، ولا اختلاف في وعد، ولا نقض في عهد، ولا رجوع عن عقد بعد إبرامه دون خيار.

- ومن الواجبات إغاثة الملهوف، ونصرة المظلوم، وإعانة الضعيف، وصلة الرحم، ورد السلام، وحسن اللقاء، ومعاملة الناس بخلق حسن، والنصيحة لعباد الله تعالى، وحب الخير لهم كما تحب لنفسك.

- ومن الواجبات: حسن القيام بالحقوق الزوجية الواجبة على الزوجين، والملاطفة في المعاشرة الزوجية، وحسن الجوار، والبعد عما يؤذيهم.

- ومن الواجبات الإسلامية: بر الوالدين، وصلة الرحم، وحسن الصلة بالآخرين، والوفاء معهم.

- ومن الواجبات الإسلامية: تحسين الظن بالمسلمين، ما لم يشاهد فيهم غير ذلك، والستر على العصاة المستترين، والنصح لهم مع الدعاء لهم بالعافية من ذنوبهم.

- ومن الحقوق الواجبة على الإنسان حقوق الحيوان والرفق به فلا يجيعه ولا يوجعه، ولا يتعبه ولا يزعجه، ولا يحمله فوق طاقته، ولا يؤذيه بنفسه، ولا في أولاده، سواء في ذلك البهائم والطيور وغيرها.

- ومن الفروض الإسلامية: إبعاد النفس عن المحرمات وهي كثيرة فمنها: الربا والزنى، والخمر والميسر، والغضب والظلم، وشهادة الزور واليمين الغموس وقول الزور، وانتهاك الأعراض بالقذف ونحوه، والسباب والتعيير وكالتفسيق والتبديع والتكفير من غير دليل قطعي ثابت شرعاً، وتتبع عورات الناس وزلاتهم وأخطائهم وهفواتهم.

وكالسبّ والشتم واللعن، وكشف ستر المسلم، والغيبة والنميمة، وسوء الظن والسخرية بعباد الله تعالى، واحتقارهم والتكبر والعجب، والرياء والسمعة، والغرور وحب الظهور، والمفاخرة أو المكاثرة بالأولاد والأموال.

- كل ذلك من مقام قرب الفرائض أما مقام قرب النوافل فيجب أن نعلم أن النوافل هي الزيادة على الفرائض والواجبات، ولا تتحقق النافلة، وتعدّ زيادة على الفرائض والواجبات إلا إذا كملت للعبد فرائضه وواجباته كماً وكيفاً، فتصير الزيادة على ذلك نافلة.

- والنوافل تكمل نقص الفرائض، فقد روى أبو هريرة ﵁ قال، قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ أَوَّلَ مَا يُحَاسَبُ بِهِ الْعَبْدُ بِصَلَاتِهِ فَإِنْ صَلَحَتْ فَقَدْ أَفْلَحَ وَأَنْجَحَ وَإِنْ فَسَدَتْ فَقَدْ خَابَ وَخَسِرَ فَإِنْ انْتَقَصَ مِنْ فَرِيضَتِهِ شَيْءٌ قَالَ انْظُرُوا هَلْ لِعَبْدِي مِنْ تَطَوُّعٍ فَيُكَمَّلُ بِهِ مَا نَقَصَ مِنْ الْفَرِيضَةِ ثُمَّ يَكُونُ سَائِرُ عَمَلِهِ عَلَى نَحْوِ ذَلِكَ.»(١).

- والنوافل هي العبادات والطاعات زيادة على الفرائض وهي أنواع متعددة:

أولاً- نوافل عملية: كأداء نوافل الصلاة المختلفة، مثل السنن الراتبة، وصلاة الضحى وقيام الليل والتهجد، وصلاة التسابيح وصلاة الحاجة، وصلاة التوبة وصلاة الاستخارة، والوتر، وسجدة التلاوة وسجدة الشكر.

- وصوم النفل كصوم يوم الاثنين والخميس من كل أسبوع، أو صيام ثلاثة أيام من كل شهر.

- فعن أبي ذر ﵁ قال: أَمَرَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنْ نَصُومَ مِنْ الشَّهْرِ ثَلَاثَةَ أَيَّامِ الْبِيضَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ وَأَرْبَعَ عَشْرَةَ وَخَمْسَ عَشْرَةَ(٢).

---

(١) أخرجه الترمذي والنسائي وغيرهما.

(٢) أخرجه النسائي وابن حبان.

- وصيام ستة أيام من شوال، عن أبي أيوب الأنصاري ﵁ أن النبي ﷺ قال: « مَنْ صَامَ رَمَضَانَ ثُمَّ أَتْبَعَهُ سِتًّا مِنْ شَوَّالٍ كَانَ كَصِيَامِ الدَّهْرِ »[1].

- وصوم عشر ذي الحجة، ويتأكدّ صيام يوم عرفة لغير الحاج.

- وكذلك الحج والعمرة النافلة.

- هذا ويجب أن نعلم أن أهم هذه النوافل قيام الليل فقد قال رسول الله ﷺ: « عَلَيْكُمْ بِقِيَامِ اللَّيْلِ فَإِنَّهُ دَأْبُ الصَّالِحِينَ قَبْلَكُمْ وَهُوَ قُرْبَةٌ إِلَى رَبِّكُمْ وَمَكْفَرَةٌ لِلسَّيِّئَاتِ وَمَنْهَاةٌ لِلإِثْمِ »[2].

- وقال رسول الله ﷺ: « يحشر الناس في صعيد واحد يوم القيامة ، فينادي مناد فيقول : أين الذين كانت تتجافى جنوبهم عن المضاجع ، فيقومون وهم قليل ، فيدخلون الجنة بغير حساب ، ثم يؤمر بسائر الناس إلى الحساب »[3].

- وقال ﷻ: ﴿ وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحۡمُودًا ۝٧٩ ﴾[4]

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمۡ عَنِ ٱلۡمَضَاجِعِ يَدۡعُونَ رَبَّهُمۡ خَوۡفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝١٦ ﴾[5]

- وقوله تعالى: ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ۝١٧ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ ۝١٨ ﴾[6]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه الترمذي وغيره عن أبي أمامة ﵁.

(٣) أخرجه البيهقي عن أسماء بن زيد.

(٤) سورة الإسراء:٧٩

(٥) سورة السجدة:١٦

(٦) سورة الذاريات:١٧-١٨

- فمن صلى في جوف الليل، فقد تقرب إلى الله تعالى، في الوقت الذي يتقرب الله تعالى إلى عباده قرباً خاصاً.

- قال رسول الله ﷺ: « أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الرَّبُّ مِنَ الْعَبْدِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ الآخِرِ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَكُونَ مِمَّنْ يَذْكُرُ اللَّهَ فِي تِلْكَ السَّاعَةِ فَكُنْ »(١).

- وعن عبد الله بن أبي قيس ﷺ قال: قالت عائشة رضي الله عنها: (لاَ تَدَعْ قِيَامَ اللَّيْلِ فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ لاَ يَدَعُهُ وَكَانَ إِذَا مَرِضَ أَوْ كَسِلَ صَلَّى قَاعِدًا)(٢).

لهذا يجب على المؤمن أن يحافظ على قيام الليل كل ليلة ولو بصلاة ركعتين قبل النوم، ويقوم للتهجد ولو بصلاة ركعتين قبل الفجر، وأن يجعل ذلك ديدنه ووِرده اليومي، فإن نام عنه قضاه بعد الفجر، فقد روى عمر ﷺ أن النبي ﷺ قال: « مَنْ نَامَ عَنْ حِزْبِهِ أَوْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ فَقَرَأَهُ فِيمَا بَيْنَ صَلاَةِ الْفَجْرِ وَصَلاَةِ الظُّهْرِ كُتِبَ لَهُ كَأَنَّمَا قَرَأَهُ مِنَ اللَّيْلِ »(٣).

- وفي هذا الحديث إشارة تظهر ضرورة أن يضع المسلم لنفسه منهجاً في كل شيء، وخاصة في النوافل، فإذا حصل له ما يمنعه من أدائها لأي سبب ألزم نفسه قضاءها ولو بعد حين حتى لا يعود نفسه تركها وإهمالها.

- هذا وإن المسلم يثاب على نيته إن غلبته عينه، فنام ولم يقم بالعمل، فقد روى أبو الدرداء ﷺ أن النبي ﷺ قال: « مَنْ أَتَى فِرَاشَهُ وَهُوَ يَنْوِي أَنْ يَقُومَ يُصَلِّي مِنَ اللَّيْلِ فَغَلَبَتْهُ عَيْنَاهُ حَتَّى أَصْبَحَ كُتِبَ لَهُ مَا نَوَى وَكَانَ نَوْمُهُ صَدَقَةً عَلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ ﷻ »(٤).

---

(١) أخرجه الترمذي وغيره عن عمرو بن عبسة.

(٢) أخرجه أبو داود وأحمد وابن خزيمة وغيرهم.

(٣) أخرجه مسلم.

(٤) أخرجه النسائي وابن ماجه وغيرهما.

ثانياً–نوافل قولية: وأبوابها كثيرة وواسعة منها: المواظبة على تلاوة كتاب الله تعالى، والإكثار من الصلاة على النبي ﷺ، والإكثار من التهليل والتسبيح، والتحميد والتكبير، وجميع أنواع ذكر الله تعالى بأسمائه وصفاته، ومحامده ودعائه.

ثالثاً– نوافل مالية: ومؤدُّوها هم المحسنون الذين ذكرهم الله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلۡكَٰظِمِينَ ٱلۡغَيۡظَ وَٱلۡعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٣٤﴾[1]

– فمساعدة الفقراء والمساكين والمحتاجين وخاصة الأقرباء وإعطاؤهم من مال غير الزكاة تطوعاً هو من أهم النوافل، وقد بين النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه ودله على أبوب الخير فقال له:

«أَلاَ أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ الصَّوْمُ جُنَّةٌ وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ»[2].

– وقال ﷺ:« صَنَائِعُ الْمَعْرُوفِ تَقِي مَصَارِعَ السُّوءِ، وَصَدَقَةُ السِّرِّ تُطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ، وَصِلَةُ الرَّحِمِ تَزِيدُ فِي الْعُمُرِ»[3].

۞ ۞ ۞

---

(١) سورة آل عمران: ١٣٤.

(٢) أخرجه الترمذي.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير عن أبي أمامة رضي الله عنه.

المطلب الرابع

الإكثار من ذكر الله في كل الأحوال والصلاة على النبي ﷺ.

- هذا ولابد لمن أراد سلوك طريق التصوف من الإكثار من ذكر الله ﷻ والصلاة على النبي ﷺ في كل أحواله.

أ- ذكر الله ﷻ: فذكر الله ﷻ يعمق معرفة العبد بربه والصلة به، ومحبته والشعور بمعيته ومناجاته ومراقبته، فيمنحه ذلك قوة الثبات، وقوة اليقين،و وقوة الإيمان، وقوة الاستقامة.

- والمقصود بالذكر أن يتذكر المسلم ربه دائماً في كل أحواله وتصرفاته فيذكره بالرضا والطمأنينة والحمد والشكر والخشوع والإنابة والتوبة والتوجه والسؤال والمناجاة والدعاء.

- فلا يغيب قلبه وفكره في أوقاته وأعماله كلها عن الله ﷻ، وهذا الذكر هو المقصود في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾(١)

- ويجب أن يذكر المسلم ربه كثيراً كما أمره في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾(٢)

- وينبغي للمؤمن ألا يشغله شاغل عن ذكر الله وأن لا يلتهي بشيء عنه، عملاً بقول الله ﷻ:

---

(١) سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١

(٢) سورة الأحزاب: ٤١

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩ ﴾[1]

– وقوله تعالى: ﴿ رِجَالٞ لَّا تُلۡهِيهِمۡ تِجَٰرَةٞ وَلَا بَيۡعٌ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوۡمٗا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلۡقُلُوبُ وَٱلۡأَبۡصَٰرُ ٣٧ ﴾[2]

– ومن أهم ثمار الذكر الحقيقي طمأنينة القلب وخشوعه ووجله قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ٢٨ ﴾[3]

– وقوله تعالى: ﴿ إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ٢ ﴾[4]

– وللحفاظ على إيماننا بربنا وحبنا وطاعتنا له أمرنا سبحانه وتعالى بأن نبتعد عن طاعة الغافلين عن ذكره وعن مجالستهم، فقال سبحانه:

﴿ وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا ﴾[5]

---

(١) سورة المنافقون: ٩

(٢) سورة النور:٣٧

(٣) سورة الرعد:٢٨

(٤) سورة الأنفال:٢

(٥) سورة الكهف:٢٨

- ولقد حذر الله سبحانه وتعالى من الإعراض عن ذكره مبيناً أن الإعراض عنه والغفلة عن ذكره يجعل حياة الإنسان صعبة ضيقة ممتلئة بالمتاعب والمكاره والأحزان، ويورث قسوة القلب، فقال سبحانه وتعالى مشيراً إلى ذلك:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) ﴾[١]

- والله ﷻ ينبهنا إلى ضرورة ذكره الذكر الكثير لنكون من المؤمنين الصادقين، ونبتعد عن صفات المنافقين التي ذكرها الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا (١٤٢) ﴾[٢]

- ولئن تحدث القرآن كثيراً عن الذكر فإن رسول الله ﷺ لم يغفل الحديث عنه بل أشاد به، وأكثر من الحديث عنه، ومما قاله ﷺ: « مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لاَ يَذْكُرُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ »[٣] .

- وقوله ﷺ: « إِذَا مَرَرْتُمْ بِرِيَاضِ الْجَنَّةِ فَارْتَعُوا ». قَالَ وَمَا رِيَاضُ الْجَنَّةِ قَالَ: « حِلَقُ الذِّكْرِ »[٤].

- وقال ﷺ: « أَلاَ أُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرِ أَعْمَالِكُمْ وَأَزْكَاهَا عِنْدَ مَلِيكِكُمْ وَأَرْفَعِهَا فِي دَرَجَاتِكُمْ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ إِنْفَاقِ الذَّهَبِ وَالْوَرِقِ وَخَيْرٌ لَكُمْ مِنْ أَنْ تَلْقَوْا عَدُوَّكُمْ فَتَضْرِبُوا أَعْنَاقَهُمْ وَيَضْرِبُوا أَعْنَاقَكُمْ ». قَالُوا بَلَى. قَالَ « ذِكْرُ اللَّهِ تَعَالَى »[٥].

وقد يقول قائل كيف أذكر الله الذكر الكثير؟

---

(١) سورة طه:١٢٤

(٢) سورة النساء:١٤٢

(٣) أخرجه البخاري عن أبي موسى رضي الله عنه .

(٤) أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٥) أخرجه الترمذي عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

- فأقول له: اذكر الله كما أمرك في قرآنه، واذكره كما علمك النبي ﷺ، فقد بين الله ﷻ في قرآنه، والنبي ﷺ في سنته أن الذكر له أنواع متعددة منها:

أولاً- القرآن الكريم:

- قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩)﴾(١)

- وقال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (٨٧)﴾(٢)

- وقال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (١٧)﴾(٣)

- فقارئ القرآن ذاكرٌ ومن يحفظ آية من آياته فيرددها فهو ذاكر، ومن يستمع إلى القرآن، ويفكر في معانيه فهو ذاكر، ومن يعمل بأوامر القرآن وينتهي عن نواهيه فهو ذاكر.

- بل إن القرآن الكريم هو أعظم الذكر، لأن قراءته تلاوة لكلام الله ﷻ الذي فيه الشفاء من كل داء، ففيه آيات بينات من لدن حكيم عليم، تدخل القلب، وتطمئن لها النفس، وتقشعر لها الأبدان، ويزداد بها القارئ إيماناً، ويسرع إلى تطبيقها، وتنفيذ أوامرها، والبعد عن نواهيها، فتتهذب بها نفسه، ويطمئن قلبه، وتسمو روحه، فيصبح وكأنه ملك يمشي على وجه الأرض.

ثانياً- أداء الفرائض: أداء الفرائض ذكر لله ﷻ، فالصلاة مثلاً فيها ركوع وسجود، وقراءة للقرآن وتسبيح وتهليل، وكل ذلك ذكر لله ﷻ، لأن الغاية من العبادات ذكر الله ﷻ، قال تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي (١٤)﴾(٤)

---

(١) سورة الحجر: ٩

(٢) سورة ص: ٨٧

(٣) سورة القمر: ١٧

(٤) سورة طه: ١٤

- وكذلك الصوم والزكاة والحج كلها ذكر لله ﷻ.

ثالثاً- العلم: مجالسة العلماء، وطلب العلم، وقراءته ومدارسته وتدريسه، وحفظه وتحفيظه، والغدوّ والرّواح في طلبه، كل ذلك ذكر لله ﷻ، قال تعالى:

﴿رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾﴾(1)

وأهل الذكر هنا: أهل العلم.

رابعاً- ذكر الله ﷻ بجميع أشكاله: كذكر أسمائه وصفاته، أو تسبيحه وتحميده، وتمجيده وتكبيره، وتهليله واستغفاره ودعائه، كل ذلك ذكر لله ﷻ، وذكر الله هذا على نوعين:

١- **ذكر الله الخاص بالأعمال والأوقات والمناسبات**: وذلك بأذكار وأدعية وجهنا إليها رسول الله ﷺ في سيرته وأحاديثه كدعاء الاستيقاظ أو دعاء دخول بيت الخلاء، أو دعاء الطعام أو الشراب، أو غير ذلك.

٢- **ذكر الله العام وتسبيحه**: في كل الأوقات والأحوال، وخاصة عقب الصلاة، وفي الصباح والمساء، قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَـٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَـٰذَا بَـٰطِلًا سُبْحَـٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾﴾(2)

وقال تعالى: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾﴾(3)

وهذا الذكر على ثلاثة أنواع:

ذكر اللسان: الذي كان يرشد إليه الرسول ﷺ في كثير من أحاديثه:

---

(١) سورة النحل:٤٣.

(٢) سورة آل عمران: ١٩١.

(٣) سورة الأحزاب: ٤٢

« لاَ يَزَالُ لِسَانُكَ رَطْبًا بِذِكْرِ اللَّهِ »[1].

أ- **ذكر القلب**: الذي وجه الله إليه في قوله سبحانه: ﴿ وَٱذْكُر رَّبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَٰفِلِينَ ﴿٢٠٥﴾ ﴾[2]

وفيه قال ﷺ: « خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ »[3].

وقال ﷺ: «اذكروا اللهَ ذكرا خاملا قيل وما الذكرُ الخاملُ قال الذكرُ الخَفيُّ»[4].

وقال ﷺ: مشيراً لأهمية الذكر الخفي: « الذكر الذي لا تسمعه الحفظة يزيد على الذكر الذي تسمعه الحفظة سبعين ضعفاً»[5].

ب- **الذكر العملي**: وهو أن يذكر المسلم ربه في جميع أحواله وأعماله، وأن يراقبه في كل حركاته وسكناته، ولا يغفل عنه أبداً، وقد عبر العارفون عن هذا الذكر بقولهم: نعيش مع الناس بأجسامنا في هذه الحياة في معاملتنا لهم واختلاطنا بهم وبيعنا وشرائنا، لكن قلوبنا في كل ذلك مع الله ﷻ لا نغفل عن ذكره وتذكره أبداً.

وللذكر فوائد كثيرة حاول الإمام ابن القيم استيفاءَها فتجاوزت عنده المئة أذكر منها:

(يرضي الرحمن، ويطرد الشيطان، ويزيل الهم، ويجلب السرور، ويقوي القلب والبدن، وينور القلب والوجه، ويجلب الرزق، ويكسب المهابة والحلاوة، ويورث محبة الله تعالى التي هي روح الإسلام، ويورث المعرفة والإنابة والقرب وحياة القلب، وذكر الله للعبد.

---

(١) أخرجه أحمد والبيهقي عن عبد الله بن بُسر رضي الله عنه.

(٢) سورة الأعراف: ٢٠٥

(٣) أخرجه أحمد عن سعد بن مالك رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن المبارك عن ضمرة بن حبيب مرسلاً وقال المناوي حديث حسن في جامع الأحاديث.

(٥)أخرجه البيهقي عن عائشة رضي الله عنها وهو حسن لغيره.

وهو قوت القلب وروحه ويجلو صدأه، ويحط الخطايا، ويرفع الدرجات، ويحدث الأنس، ويزيل الوحش، ويذكر بصاحبه، وينجي من عذاب الله، ويوجب تنزل السكينة، وغشيان الرحمة وحفوف الملائكة بالذاكر، ويشغل عن الكلام الضار، ويسعد الذاكر، ويسعد به جليسه، ويؤمن العبد من الحسرة يوم القيامة، وهو مع البكاء سبب إظلال الله للذاكر، وبه تحصل العطايا والثواب المتنوع من الله تعالى.

وهو يثمر المعارف والأحوال الجليلة، والذاكر قريب من مذكوره والله معه وأكرم الخلق على الله: من لا يزال لسانه رطباً من ذكر الله.

وهو يعين على طاعة الله ويسهل كل صعب، وييسر الأمور، ويعطي الذاكر قوة في قلبه وبدنه، وهو سد بين العبد ونار جهنم، وتستغفر الملائكة للذاكر، وتتباهى الجبال وبقاع الأرض بمن يذكر الله عليها، وتشهد له، والذكر أمان من النفاق.....) [(١)].

ب- الصلاة على النبي ﷺ:

– ويرتبط بذكر الله ﷻ الصلاة على النبي ﷺ، حيث ينبغي للمسلم أن يعلم أن من أساليب كلام الله ﷻ في قرآنه، أنه إذا أراد أمراً أو نهياً أو تنبيهاً أو موعظة للمؤمنين يستعمل أسلوب النداء للمؤمنين مباشرة فيقول سبحانه: ((يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ)) ومن واجب المؤمن عند سماع مثل هذا النداء أن يقول مباشرة: لبيك اللهم لبيك، لبيك وسعديك، عبدك بين يديك مستعدٌ لتنفيذ أوامرك، واجتناب نواهيك، والعمل بما يرضيك.

– لكن في القرآن الكريم آية واحدة تأتي بتصدير مهم قبل النداء يوضح ويبين ويظهر أهمية ما

---

(١)ابن القيم: الوابل من الكلم الطيب.

سيأتي بعد النداء، ثم يأتي بعد ذلك نداء المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّۚ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ ﴾[1]

- والصلاة في اللغة تعني الدعاء، وفي اصطلاح هذه الآية: الثناء على النبي ﷺ وتمجيده وتعظيمه.

- والمقصود من هذه الآية أن يخبر الله سبحانه وتعالى عباده بمنزلة ومكانة عبده ونبيه المصطفى ﷺ عنده وفي الملأ الأعلى، وأظهر ذلك بصلاته عليه، وصلاة الله تعني ثناءه عليه، وإظهار عظمته ومكانته عنده، يخبر بذلك عباده عن هذه المنزلة الرفيعة التي لم يبلغها أحد سواه.

- كذلك بين سبحانه أن الملائكة تصلي عليه أيضاً وذلك بدعائها للنبي ﷺ واستغفارها له، وأن يزيده الله رفعة ومكانة وشرفاً وقربة.

- ثم جاء الأمر لجميع المؤمنين أن يصلوا عليه ويسلموا تسليما، وصلاة المؤمنين على النبي ﷺ دعاء له بإعلاء ذكره وإظهار دينه، وإبقاء شريعته في الدنيا، وإجزال مثوبته، ورفع مقامه وتشفيعه بأمته في الآخرة.

- قال الشيخ عز الدين بن عبد السلام: (ليست الصلاة على رسول الله ﷺ شفاعة منا له، فإن مثلنا لا يشفع لمثله، ولكن الله سبحانه أمرنا بمكافئة من مكافأته أنعم علينا، وأحسن إلينا فإن عجزنا عن مكافأة دعونا له بأن يكافئه الله عنَّا، ولما عجزنا عن مكافئة سيد الأولين والآخرين أمرنا رب العالمين أن نرغب إليه، وأن نصلي عليه لتكون صلاتنا عليه مكافئة لإحسانه إلينا وإفضاله علينا)[2].

---

(١)سورة الأحزاب: ٥٦.

(٢)ابن حجر: فتح الباري، جزء١١، ص١٦٨.

- هذا وإن الله ﷻ لما أمرنا بالصلاة على النبي ﷺ ولم نبلغ قدر الواجب من ذلك أحلنا الأمر على الله تعالى وقلنا: اللهم صلِّ أنت على سيدنا محمد، لأنك أعلم بما يليق به فنحن عاجزون عن توفيته حقه وقاصرون عن معرفة الثناء الذي يليق بقدره.

- جاء في تفسير الآلوسي: إن هذه الآية، آية الصلاة على النبي ﷺ تفيد الدوام والاستمرار نظراً إلى صدرها من حيث إنها جملة اسمية، وتفيد التجدد نظراً إلى عجزها من حيث إنها جملة فعلية، فيكون مفادها استمرار صلاة الله وملائكته على النبي ﷺ وتجددها وقتاً فوقتاً دون نفادٍ ولا انقطاع.

- من تواضع النبي ﷺ أنه عندما علمنا كيفية الصلاة عليه بقوله: ((اللهم صلِّ على محمد)) لم يُسَوِّدْ نفسَهُ فإن من حقِّه علينا أن نقول احتراماً له وتقديراً لذكره ما علمنا إياه السادة العلماء الأفاضل مما استنبطوه من القرآن والسنة: اللهم صلِّ على سيدنا محمد، فهو ﷺ سيدنا في الدنيا، وسيدنا في الآخرة، ومن أهم تلك الأدلة في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾(1)

- ومن الأدلة من السنة، قوله ﷺ وهو يتحدث عن جملة المراتب الخاصة به:

«أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَأَوَّلُ مَنْ يَنْشَقُّ عَنْهُ الْقَبْرُ وَأَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ »(2).

- فالصلاة على النبي ﷺ واجبة لا يجوز تركها، ولا يغفل عنها إلا من لا خير فيه من الناس.

قال القاضي عياض رحمه الله: (اعلم أن الصلاة على النبي ﷺ فرض على الجملة غير محدد بوقت لأمر الله تعالى بالصلاة عليه، وحمل الأئمة والعلماء الأمر على الوجوب وأجمعوا عليه) (3).

---

(1)سورة النور:٦٣.

(2)أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(3)العلامة القاضي أبو الفضل عياض اليحصبي: الشفا بتعريف حقوق المصطفى، جزء٢، ص٦١.

- وقال جمهور العلماء: إن الصلاة على النبي ﷺ قربة وعبادة كالذكر والتسبيح والتحميد، وهي مندوبة ومسنونة في كل وقت وحين، وإنه ينبغي الإكثار منها.

- فالصلاة على النبي ﷺ تفرض في آخر الصلاة في التشهد الأخير، قال ابن عمر رضي الله عنه :

(لا تكون صلاة إلا بقراءة تشهد وصلاة على النبي ﷺ)[١].

- والصلاة على النبي ﷺ تجب عند ذكر النبي ﷺ على الذاكر والسامع، فقد روى أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ : «مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلْيُصَلِّ عَلَيَّ»[٢].

- وقد ورد الوعيد الشديد لمن لم يُصَلِّ عليه إذا ذكر ﷺ جاء ذلك في العديد من الأحاديث الصحيحة، من ذلك الوعيد الدعاء على تارك الصلاة عليه ﷺ بالإبعاد والذل ووصفه بالبخل والجفاء وأنه قد أخطأ طريق الجنة.

فقد قال رسول الله ﷺ: «أَتَانِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلامُ، فَقَالَ: مَنْ ذُكِرْتَ عِنْدَهُ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيْكَ فَأَبْعَدَهُ اللَّهُ قُلْ: آمِينَ»[٣].

وقال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيّ»[٤].

أَيْ لَصِقَ أَنْفُهُ بِالتُّرَابِ كِنَايَةً عَنْ حُصُولِ الذُّلِّ[٥].

- وقال ﷺ: «من ذُكِرتُ عنده فلم يصلِّ عليَّ فقد شَقِيَ»[٦].

---

(١)ابن قيم الجوزية: جلاء الأفهام، ص٣٣٠.

(٢)أخرجه أبو يعلى في مسنده.

(٣)أخرجه الطبراني عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤)أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٥)محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري: تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي جزء٩ ص٣٧٢.

(٦)أخرجه الطبراني في الأوسط وفيه الفضل بن مبشر وفيه كلام وقد وثقه ابن حبان وغيره.

وقال رسول الله ﷺ: «البَخِيلُ مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ ، فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ»[١].

- قال العلامة الفاكهاني: (وهذا أقبح بخل وأشنع شح، لم يبقَ بعده إلا الشح بكلمة الشهادة)[٢]. أعاذنا الله تعالى وجميع المؤمنين من ذلك.

وقال رسول الله ﷺ: «مَنْ ذُكِرْتُ عِنْدَهُ فَخَطِئَ الصَّلاةَ عَلَيَّ ، خَطِئَ طَرِيقَ الْجَنَّةِ »[٣].

- فما أحرانا بعد كل ماسمعناه وعرفناه، أن نكثر من الصلاة عليه في كل وقت وحين .

- (رؤي الشافعي ﷺ في المنام بعد موته، فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، فقيل له بماذا؟ قال: بخمس كلمات كنت أصلي بها على رسول الله ﷺ، فقيل له: وما هي تلك الكلمات. قال: كنت أقول:

(اللهم صلِّ على سيدنا محمد عدد من صلى عليه، وصلِّ على سيدنا محمد عدد من لم يصلِّ عليه، وصلِّ على سيدنا محمد كما أمرت أن يصلى عليه، وصلِّ على سيدنا محمد كما تحب أن يصلى عليه، وصلِّ على سيدنا محمد كما ينبغي أن يصلى عليه) [٤].

- من أحب شيئاً أكثر من ذكره ومن أحب النبي ﷺ أكثر من ذكره ومن الصلاة عليه.

- ويجب على كل مسلم محب لرسول الله ﷺ أن يعلم أن الصلاة على النبي ﷺ مقبولة قطعاً.

يقول الشيخ الفاسي[٥] في شرحه على "دلائل الخيرات": (وكل الأعمال فيها المقبول والمردود إلا إلا الصلاة على النبي ﷺ فإنها مقبولة غير مردودة).

---

(١)أخرجه الترمذي عن علي ﷺ.

(٢) المناوي: فيض القدير، جزء٣، ص٢٨٣.

(٣) أخرجه الطبراني عن الحسين بن علي رضي الله عنهما.

(٤) انظر الدر المنضود وعند البيهقي.

(٥)الفاسي: أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن حامد بن أبي المحاسن العربي المغربي الفاسي القصري القصري المالكي وتوفي سنة ١٠٥٢هـــ [الباباني: هدية العارفين]

ثم قال: (الصلاة على النبي ﷺ مجابة على القطع فإن اقترن بها السؤال شفعت بفضل الله تعالى فقبل السؤال، وهذا المعنى مذكور عن بعض السلف) [(١)].

- مع أن صلاتنا على النبي ﷺ تعني تعبيراً عن حبنا وتقديرنا له بأنه قد أدى الأمانة، وبلغ الرسالة التي بفضله وصلت إلينا فعرفنا ربنا ومنّ الله به علينا بالإيمان والإسلام والإحسان.

وأن صلاتنا على النبي ﷺ تحمل دعاءً وثناءً على النبي ﷺ بأن يؤتيه الله الوسيلة والدرجة العالية الرفيعة والمقام المحمود الذي وعده.

مع كل ذلك فإن صلاتنا عليه ﷺ ننال بها مكافأة عظيمة من الله عز وجل، فقد روى أبو طلحة الأنصاري فقال: «أَصْبَحَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْماً طَيِّبَ النَّفْسِ يُرَى فِي وَجْهِهِ الْبِشْرُ قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَصْبَحْتَ الْيَوْمَ طَيِّبَ النَّفْسِ يُرَى فِي وَجْهِكَ الْبِشْرُ. قَالَ:أَجَلْ أَتَانِي آتٍ مِنْ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَقَالَ منْ صَلَّى عَلَيْكَ مِنْ أُمَّتِكَ صَلاَةً كَتَبَ اللَّهُ لَهُ بِهَا عَشْرَ حَسَنَاتٍ وَمَحَا عَنْهُ عَشْرَ سَيِّئَاتٍ وَرَفَعَ لَهُ عَشْرَ دَرَجَاتٍ وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلَهَا»[(٢)].

- فأي شيء أعظم من أن يصلي الله على عبده فيخرجَهُ من الظلمات إلى النور ، من ظلمات المعاصي وظلمات القسوة وظلمات الضيق والأمراض والأسقام، قال تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ ﴾[(٣)]

- وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «من صلى علي صلاة واحدة بلغتني صلاته وصليت عليه وكتب له سوى ذلك عشر حسنات»[(٤)].

---

(١) الفاسي: مطالع المسرات بجلاء دلائل الخيرات.

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

(٣) سورة الأحزاب: ٤٣.

(٤) أخرجه الطبراني في معجمه.

- فإذا صليت على النبي ﷺ بلغت صلاتك النبي ﷺ وقيل له فلان ابن فلان (باسمك الخاص) من أمتك يصلي عليك فيرد عليك النبي ﷺ ويقول: ((اللهم صلِّ على فلان)).

فأي شرف وأي لذة، وأي عطاء في أن يصلي النبي ﷺ عليك باسمك في الحضرة الإلهية فتستفيد سكينة للقلب، ومغفرة للذنب، وارتقاء لمقام القرب، ألم تقرأ قول الله تعالى:

﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٠٣﴾﴾[١]

- وللصلاة على النبي ﷺ فوائد كثيرة صرَّحت بها أحاديث النبي ﷺ المتعددة فمن أهم تلك الفوائد صلاة الله وسلامه مع ملائكته على من صلى عليه.

قال رسول الله ﷺ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا»[٢].

وفي رواية لأحمد: «صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَلاَئِكَتُهُ سَبْعِينَ صَلاَةً فَلْيُقِلَّ عَبْدٌ مِنْ ذَلِكَ أَوْ لِيُكْثِرْ».

- ويرحم الله تعالى القائل :

إذا أنت أكثرت الصلاة على الذي   صلّى الله عليه في الآيات

وجعلتها ورداً عليك محتماً   لاحت عليك دلائل الخيرات

- ومن تلك الفوائد التي ذكرتها الأحاديث الشريفة تكفير الخطايا، وتزكية الأعمال، ورفع الدرجات، ومغفرة الذنوب، ومحو الخطايا، هذا وإنَّ بركة الصلاة على النبي ﷺ وخيراتها تدرك الرجل المصلي وولده، وولد ولده، ومنها أنها تزين المجالس وتنفي الفقر وضيق العيش، وتقرب إلى الله ورسوله، وهي سبب عظيم لقضاء الحاجات ونيل المرادات، تفتح أمام المصلي على النبي ﷺ أبواب الخير ، فيلتمس ببركتها كل محبوب، وهي سبب عظيم في إجابة الدعاء، وهي نور

---

(١)سورة التوبة: ١٠٣.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

لصاحبها في قبره، ويوم حشره، وعلى الصراط، ويكتب الله بين عينيه براءة من النار، وبراءة من النفاق، ويكون يوم القيامة مع الشهداء.

فهي من أكثر الأعمال بركةً وأفضلها نفعاً في الدنيا والآخرة، وكثرة صلاة المصلي على النبي ﷺ تدل على خالص حبه له ﷺ لأن الذي يحب شيئاً يكثر من ذكره.

- وإذا كان كل وقت يستحب فيه الصلاة على النبي ﷺ فإن هناك مواطن تشرع فيها الصلاة على النبي ﷺ فمنها:

- التشهد الأخير من كل صلاة فريضة أو نافلة فهي واجبة.

- عقب إجابة المؤذن. فقد قال النبي ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْمُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلاَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا ثُمَّ سَلُوا اللَّهَ لِيَ الْوَسِيلَةَ فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الْجَنَّةِ لاَ تَنْبَغِي إِلاَّ لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ فَمَنْ سَأَلَ لِيَ الْوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ»(١).

- ومن المواطن التي يسن فيها الصلاة عليه ﷺ: عند دخول المسجد وعند الخروج منه، عن فاطمة رضي الله عنها: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ وَقَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ رَحْمَتِكَ. وَإِذَا خَرَجَ صَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَسَلَّمَ وَقَالَ: رَبِّ اغْفِرْ لِي ذُنُوبِي وَافْتَحْ لِي أَبْوَابَ فَضْلِكَ»(٢).

- وفي صلاة الجنازة بعد التكبيرة الثانية.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن عمرو بن العاص رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الترمذي.

– ومن المواطن أيضاً: الصلاة عليه ﷺ عند الصباح وعند المساء. فقد قال النبي ﷺ: «من صلى عليَّ حين يصبح عشرًا وحين يمسى عشرًا أدركته شفاعتي يوم القيامة »[١].

– ومنها عند الاجتماع والتفرق: قال رسول الله ﷺ: «مَا جَلَسَ قَوْمٌ مَجْلِسًا لَمْ يَذْكُرُوا اللَّهَ فِيهِ وَلَمْ يُصَلُّوا عَلَى نَبِيِّهِمْ إِلاَّ كَانَ عَلَيْهِمْ تِرَةً[٢] فَإِنْ شَاءَ عَذَّبَهُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَهُمْ ».[٣]

– وتسن الصلاة على النبي ﷺ عند كل كلام خيّر ذي بال، وعند افتتاح الخطب والدروس، وقراءة الأحاديث، وعقب الصلاة، وختم القرآن الكريم، وفي دعاء الحاجة، ويوم عرفة، وعند زيارته ﷺ، وعند نسيان الشيء، فيذكره إن شاء الله.

– وقد ورد الأمر بالإكثار من الصلاة على النبي يوم الجمعة وليلتها، قال رسول الله ﷺ: «أَكْثِرُوا الصَّلاَةَ عَلَيَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ فَإِنَّهُ مَشْهُودٌ تَشْهَدُهُ الْمَلاَئِكَةُ وَإِنَّ أَحَدًا لَنْ يُصَلِّيَ عَلَيَّ إِلاَّ عُرِضَتْ عَلَيَّ صَلاَتُهُ حَتَّى يَفْرُغَ مِنْهَا. قَالَ قُلْتُ وَبَعْدَ الْمَوْتِ قَالَ: وَبَعْدَ الْمَوْتِ إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَى الأَرْضِ أَنْ تَأْكُلَ أَجْسَادَ الأَنْبِيَاءِ. فَنَبِيُّ اللَّهِ حَيٌّ يُرْزَقُ»[٤].

– كان الصحابة الكرام، والتابعون، وأولياء الله وأحبابه يكثرون من الصلاة على النبي محمد ﷺ بل كان بعضهم يقتصر في دعائه على الصلاة عليه ﷺ فلا يسأل الله شيئاً إلا الصلاة على النبي محمد ﷺ وما عليه إذا فعل ذلك وقد ضمن الله له بذلك أن يكفى هموم الدنيا والآخرة، وماذا يبتغي العبد من دعائه مهما كان جامعاً إلا هذا الطلب.

عن أبي بن كعب رضي الله عنه قال: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلاَةَ عَلَيْكَ فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلاَتِي [أي: فكم أجعل من دعائي صلاة عليك] فَقَالَ: « مَا شِئْتَ ». قَالَ قُلْتُ: الرُّبُعَ. قَالَ:

---

(١) أخرجه الطبراني عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

(٢)تِرَة: حسرة وندامة.

(٣) أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤) أخرجه ابن ماجه عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

«مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: النِّصْفَ. قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قَالَ قُلْتُ: فَالثُّلُثَيْنِ. قَالَ: «مَا شِئْتَ فَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ». قُلْتُ: أَجْعَلُ لَكَ صَلاَتِي كُلَّهَا. قَالَ: « إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ وَيُغْفَرُ لَكَ ذَنْبُكَ »[1].

– **أخيراً**: ينبغي للمسلم الذي سلك طريق التصوف، طريق التزكية والإحسان أن يجعل لنفسه ورداً خاصاً يومياً للصلاة على النبي ﷺ، وأن يكثر من هذه الصلاة، وأن يجلس في مجالسها، وأن يحب أهلها.

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه الترمذي.

المطلب الخامس

السعي على سلامة القلب وصلاحه

- للقلب أهمية كبرى أظهرها القرآن الكريم في العديد من آياته، فقد ذكر القلب في القرآن الكريم عشرين مرة بالإفراد، واثنتي عشرة ومائة مرة بصيغة الجمع.

- والقلب لطيفة ربانية، لها بهذا القلب الجسماني الصنوبري الشكل المودع في الجانب الأيسر من الصدر تعلُّق، وقد جعل الله بصحته وبقائه وانتظام دورته حياة الجسد، وبسلامته وطهارته وصلاحه حياة الروح، قال رسول الله ﷺ: «أَلاَ وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ . أَلاَ وَهِيَ الْقَلْبُ »[(١)] .

- والقلب موضع الإيمان والكفر، والإنابة والإصرار، والطمأنينة والاضطراب، وهو محل العلم والتقوى، والنية والإخلاص والذكرى، والحب والبغض، والوسواس والخطرات، فالقلب هو العا لم بالله ﷻ، وهو المتقرب إلى الله ﷻ، وهو العامل لله ﷻ، وهو الساعي إلى الله ﷻ، وإنما الجوارح أتباع للقلب وخدم، كما قال أبو هريرة رضي الله عنه: (القلب ملك وله جنود فإذا صلح الملك صلحت جنوده وإذا فسد الملك فسدت جنوده)[(٢)].

وقد جعل القرآن القلوب على ثلاثة أحوال:

١- **القلب الميت وهو قلب الكافر:** (وهو الذي لا حياة فيه، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره، وبما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته ولذاته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظه، رضي ربه أم سخط)[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي وعبد الرزاق.

(٣) ابن قيم الجوزية: طب القلوب: ص٣٧.

فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهل سايسه، والغفلة مركبه، وهذا قلب الكافر الذي ختم الله على قلبه وأصبح الران في أعماقه، ذكره الله في قرآنه بقوله: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ وَعَلَىٰ سَمۡعِهِمۡۖ وَعَلَىٰٓ أَبۡصَٰرِهِمۡ غِشَٰوَةٞۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ۝٧﴾[1]

وقوله ﷻ: ﴿كَلَّاۖ بَلۡۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ۝١٤﴾[2]

٢- **القلب المريض وهذا قلب المنافق**: (وهو القلب الذي له حياة وبه علة، ففيه من محبة الله، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه، ما هو مادة حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها، والحسد والكبر والعجب، وحب العلو بالأرض بالرياسة ما هو مادة هلاكه وعطبه.

وهو ممتحن من داعيين: داعٍ يدعوه إلى الله ﷻ ورسوله ﷺ والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه باباً، وأدناهما إليه جواراً)[3].

ويشير إلى ذلك قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ۝٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ۝٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ۝١٠﴾[4]

---

(١) سورة البقرة:٧.

(٢) سورة المطففين:١٤.

(٣) ابن قيم الجوزية: طب القلوب: ص٣٨.

(٤) سورة البقرة:٨-١٠

٣- **القلب الصحيح وهو قلب المؤمن**: وهو القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به، كما قال تعالى: ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ ﴿٨٩﴾﴾[١]

قال سعيد بن المسيب[٢] رحمه الله تعالى: (القلب السليم: هو القلب الصحيح وهو قلب المؤمن)[٣].

(والقلب السليم: وهو الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجه ما، بل قد خلصت عبوديته لله، إرادة ومحبة، وتوكّلاً وإنابة، وإخباتاً وخشية، وخلص عمله لله عَزَّ وَجَلَّ، فإن أحب أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله)[٤].

والقلب السليم: هو الذي سلم من جميع العقائد الفاسدة، والأخلاق الرذيلة، والميل إلى المعاصي والشهوات.

والقلب السليم: هو الذي سلم من الكفر والشقاق، ومن الشك والتردد، وسلم من الرياء والفخر والكبر، والحقد والحسد والغش، وجميع أمراض القلب، وسلم من الأهواء والشهوات والمغريات والمعاصي والآثام.

- والسؤال هو كيف نصل إلى هذا القلب بهذه المعاني؟

---

(١) سورة الشعراء: ٨٨-٨٩

(٢)(سعيد بن المسيب) أبو محمد سعيد بن المسيب بن حزن بن أبي وهب المخزومي القرشي، سيد التابعين، وأحد الفقهاء السبعة بالمدينة. جمع بين الحديث والفقه والزهد والورع، وكان يعيش من التجارة بالزيت، لا يأخذ عطاء. وكان أحفظ الناس لأحكام عمر بن الخطاب وأقضيته، حتى سمي راوية عمر. توفي بالمدينة سنة (٩٤ هـ/٧١٣ م) [الأعلام للزركلي]

(٣) تفسير ابن كثير.

(٤) ابن قيم الجوزية: طب القلوب: ص٣٥.

كيف يجعل المسلم قلبه قلباً صحيحاً سليماً صالحاً منيباً؟

الجواب: باتباع الأمور الأساسية التي تساعد على امتلاك هذا القلب:

أولاً: السعي الحثيث إلى تعميق الإيمان بالله في القلب، والوصول به إلى حد اليقين بشتى الوسائل حتى لا يكون إيماننا ادعاءً، كالأعراب الذي قال عنهم سبحانه:

﴿ ۞ قَالَتِ ٱلۡأَعۡرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمۡ تُؤۡمِنُواْ وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسۡلَمۡنَا وَلَمَّا يَدۡخُلِ ٱلۡإِيمَٰنُ فِي قُلُوبِكُمۡۖ وَإِن تُطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتۡكُم مِّنۡ أَعۡمَٰلِكُمۡ شَيۡـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ ١٤ ﴾(1)

- قال تعالى: ﴿ وَمَن يُؤۡمِنۢ بِٱللَّهِ يَهۡدِ قَلۡبَهُۥۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١١ ﴾(2)

- ومن هداية الله لهذا القلب أن يحبب إليه الإيمان، ويزينه فيه، ويكره إليه الكفر والفسوق والعصيان كما قال تعالى: ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ ﴾(3)

ثانياً: المحافظة على هداية الله لهذا القلب، وتمكن الإيمان فيه، ووصوله إلى معرفته معرفة حقيقية، وثباته على ذلك، حتى يصل إلى انشراح صدره الذي يستوطن القلب فيه، قال تعالى:

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِۚ كَذَٰلِكَ يَجۡعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجۡسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴾(4)

---

(١) سورة الحجرات: ١٤

(٢) سورة التغابن: ١١

(٣) سورة الحجرات: ٧

(٤) سورة الأنعام: ١٢٥

- عن أبي جعفر[1] قال: (لما نزلت هذه الآية: ﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ﴾ قالوا: كيف يشرح الصدر؟ قال: إذا نزل النور في القلب انشرح له الصدر وانفسح . قالوا: فهل لذلك آية يعرف بها؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل الفوت)[2].

- فإذا وصل المسلم إلى هداية الله له، وشرح صدره، قذف في قلبه نوراً، يصبح القلب بهذا النور ذاكراً لله ليناً سليماً، صحيحاً صالحاً منيباً، قال تعالى:﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[3]

- وبذلك يصل ذلك المسلم إلى ما وصل إليه الصحابي الجليل حارثة من الإيمان الحق: فعَنِ الْحَارِثِ بن مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ ، أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ ؟» قَالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، فَقَالَ: «انْظُرْ مَا تَقُولُ ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟» فَقَالَ: قَدْ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لِذَلِكَ لَيْلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا، فَقَالَ : « يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ » ثَلاثًا.[4]

- كذلك فإن الله ﷻ يجعل لهذا العبد واعظاً من قلبه يأمره وينهاه كما بين ﷺ في قوله:

---

(١)أبو جعفر الهاشمي المدائني: عبد الله بن المسور بن عون بن جعفر بن أبي طالب. روى عنه عمرو بن مرة، وخالد بن أبي كريمة . مترجم في ابن أبي حاتم وغيره [عن تفسير الطبري].

(٢) تفسير الطبري.

(٣) سورة الزمر:٢٢

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير.

«إذا أراد الله بعبده خيرا جعل له واعظاً من قلبه » [(١)].

ثالثاً: الاستجابة لما يدعو إليه الله ورسوله، والتزام أوامر الله، والبعد عن نواهيه، والتقيد بأحكامه، والبعد عن معاصيه، وكل ذلك يؤدي إلى حياة قلب المسلم، واستمراريته على سلامته وصحته وصلاحه وإنابته، وكل ذلك أيضاً يساعد ألا يحول الله ﷻ بين المسلم وبين قلبه بتقلب أحوال القلب أو مرضه أو موته، قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ [(٢)]

- هذا وقد تحدث النبي ﷺ عن تقلب هذا القلب، فقد روى أنس بن مالك ﷺ قال كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ: « يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ ». فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا قَالَ « نَعَمْ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أَصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ »[(٣)].

- وقال ﷺ: «قلب المؤمن أشد تقلباً من القدر في غليانها» [(٤)]

- وقال ﷺ: «مثل القلب مثل العصفور فيقلب كل ساعة» [(٥)]

- وقال ﷺ:« إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ يُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْراً لِبَطْنٍ »[(٦)].

---

(١) أخرجه الديلمي عن أم سلمة رضي الله عنها.

(٢) سورة الأنفال: ٢٤

(٣) أخرجه الترمذي.

(٤) أخرجه أحمد والحاكم عن المقداد بن الأسود ﷺ.

(٥) أخرجه الحاكم والبيهقي عن أبي عبيدة بن الجراح ﷺ.

(٦) أخرجه أحمد عن أبي موسى ﷺ.

– بالنظر إلى سرعة تغير القلب بهذا الشكل علينا الاستجابة لما يدعونا إليه الله ورسوله ففيه حياتنا، لنكون في حصن من ذلك التغير والتبدل السريع، ولنكون دائماً على حذر وانتباه، ولنكثر من قولنا: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴾(١)

رابعاً: المحافظة على تلاوة القرآن الكريم، والتزام أحكامه والعمل بأوامره والابتعاد عن نواهيه.

والانتفاع بالقرآن وما فيه إنما يحصل لمن كان حيَّ القلب، قال تعالى:

﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾(٢)

– كما أن الانتفاع بمواعظه شفاء لما في الصدور، فالقلب في الصدر كما نعلم، قال تعالى:

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾(٣)

(٣)

– أما الذي لا يقرأ القرآن ولا يتدبره ولا يعمل به، فإن قلبه مقفل مغلق، كما بين ذلك سبحانه في قوله: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ (٤)

خامساً: المحافظة على ذكر الله الذكر الكثير، كما أمر سبحانه:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ ﴾ (٥)

---

(١) سورة آل عمران:٨

(٢) سورة ق: ٣٧.

(٣) سورة يونس ٥٧.

(٤) سورة محمد:٢٤

(٥) سورة الأحزاب:٤١.

- لأن ذكر الله هو الوسيلة التي تجعل القلب مطمئناً قال تعالى:

﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾[1]

- ولأن الذكر سبب خشوع القلب، قال تعالى:

﴿ ۞ أَلَمۡ يَأۡنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخۡشَعَ قُلُوبُهُمۡ لِذِكۡرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلۡحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلُ فَطَالَ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَمَدُ فَقَسَتۡ قُلُوبُهُمۡۖ وَكَثِيرٞ مِّنۡهُمۡ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾[2]

- ومن لا يذكر الله ﷻ، فإنه يصاب بقساوة في قلبه، تنتهي به إلى الخسران والضلال والضياع كما وضح ذلك سبحانه في قوله: ﴿ أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٖ مِّن رَّبِّهِۦۚ فَوَيۡلٞ لِّلۡقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ أُوْلَٰٓئِكَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾[3]

- فلابد للقلب من ذكر الله والمداومة عليه لأن الذكر يصقل القلب وينوره، ويمسح عنه الغفلة، والران والحجب الكثيفة التي تغشاه قال رسول الله ﷺ:

(إن لكل شيء صقالة ، وإن صقالة القلوب ذكر الله)[4].

- وبما أن للذكر أنواعاً متعددة فعلينا أن نوليَ الذكرَ الخفي الذي يقوم به القلب عناية خاصة، فهو خيرها، كما بين ذلك النبي ﷺ بقوله: « خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ»[5].

---

(١) سورة الرعد:٢٨

(٢) سورة الحديد:١٦

(٣) سورة الزمر:٢٢.

(٤) أخرجه البيهقي في شعبه عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه أحمد عن سعد بن مالك رضي الله عنه.

سادساً: صحبة المؤمنين الصادقين ومجالستهم، والبعد عن الغافلين، فإن في ذلك حياة القلب وسلامته، وقد أمر الله تعالى بهذه الصحبة فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ١١٩ ﴾[1]

– وأمر الله ﷻ نبيه أن يحبس نفسه على صحبة المؤمنين الصادقين، ونهاه عن طاعة من أغفل الله قلبه عن ذكره، فقال سبحانه:

﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[2]

– وملازمة المؤمنين الصادقين وصحبتهم، تدعو إلى محبتهم وتمني الخير لهم، والدعاء لهم، وعدم حسدهم أو بغضهم أو معاداتهم بين الله ﷻ كل ذلك في قوله:

﴿ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ١٠ ﴾[3]

سابعاً: البعد عن المعاصي والآثام والذنوب، والمغريات والشهوات والأهواء والمفسدات، فإنها تضعف الإيمان في القلب، وتكثر الحجب عليه، وتسوده، وتطفئ نوره، فيُختم ويُطبع، حتى يصل إلى الران الذي يميته والعياذ بالله، قال تعالى:

﴿ كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ١٤ ﴾[4]

---

(١) سورة التوبة: ١١٩.

(٢) سورة الكهف: ٢٨.

(٣) سورة الحشر: ١٠.

(٤) سورة المطففين: ١٤.

- قال ابن عباس رضي الله عنهما: (إن للحسنة نوراً في القلب، وضياء في الوجه، وقوة في البدن، ، وزيادة في الرزق، ومحبة في قلوب الخلق، وإن للسيئة سواداً في الوجه، وظلمة في القلب، ووهناً في البدن، ونقصاً في الرزق، وبغضة في قلوب الخلق) [1].

- قال الإمام مالك لما رأى من الشافعي النبوغ والإيمان، قال له:

(إني أرى الله تعالى قد ألقى على قلبك نوراً، فلا تطفئه بظلمة المعصية) [2].

- وهناك آية تلخص كل ما جاء في هذه الفقرة من معانٍ في قوله ﷻ:

﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَـٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَـٰوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِنۢ بَعْدِ ٱللَّهِ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [3]

- وفي الحديث الشريف يقول النبي ﷺ شارحاً هذا الموضوع: « إذا أذنب العبد نكت في قلبه نكتة سوداء ، فإن تاب صقل منها ، فإن عاد زادت حتى تعظم في قلبه ، فذلك الران الذي ذكره الله ﷻ﴿كَلَّا ۖ بَلْ ۜ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾﴾ [4]) » [5].

- قال الإمام ابن المبارك[6]:

رأيت الذنوب تميت القلوب وقد يورث الذل إدمانها
وترك الذنوب حياة القلوب وخير لنفسك عصيانها

- وهناك أسباب أخرى للختم على القلوب والطبع عليها بينها النبي ﷺ، منها إهمال أداء الفرائض.

---

(١) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين جزء١، ص٤٢٤.

(٢) ابن قيم الجوزية: الجواب الكافي ص٥٢.

(٣) سورة الجاثية:٢٣

(٤) سورة المطففين:١٤.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) أبو نعيم: حلية الأولياء، جزء٨، ص٢٧٩.

- فقال ﷺ: « لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ (أي عن تركها) أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ ثُمَّ لَيَكُونُنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ »[١].

- وقال ﷺ في حديث آخر: « مَنْ تَرَكَ ثَلاَثَ جُمَعٍ تَهَاوُنًا بِهَا طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ »[٢].

- وبالقياس فإن إهمال أداء الصلوات الخمس، وباقي العبادات والقربات من قراءة للقرآن، وذكر الله ﷻ، وحضور مجالس العلم والعلماء، ومجالسة الصالحين والأتقياء يؤدي إلى الختم على القلب والطبع عليه والعياذ بالله تعالى.

- كذلك يجب الابتعاد عن مفسدات القلب وأسباب مرضه، وهي كثيرة أذكر منها تعداداً فقط: كثرة الخلطة للناس وخاصة الفاسدة، والتمني، والتعلق بغير الله ﷻ، والشبع الكثير، وكثرة النوم، وفضول النظر، وفضول الكلام.

ثامناً: إنكار الفتن والابتعاد عنها، وعدم المشاركة فيها، وهي كثيرة وتكون في كل زمان ومكان، ويعرفها كل إنسان، فيقف أمام مفترقين، فأيهما يختار؟

روى حذيفة بن اليمان ؓ قال، قال رسول الله ﷺ: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُوداً فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا[٣] فَلاَ تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ وَالآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا[٤] كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا[٥] لاَ يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلاَ يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلاَّ مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ»[٦].

---

(١) أخرجه مسلم عن أبي هريرة وعبد الله بن عمر ؓ.

(٢) أخرجه أبو داود والنسائي عَنْ أَبِي الْجَعْدِ الضَّمْرِيِّ ؓ.

(٣) الصفا: الحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء.

(٤) مربادا: أي ممزوج بياضه بسواد.

(٥) كالكوز مجخيا: أي منكوساً.

(٦) أخرجه مسلم في صحيحه.

- فإذا انحرف الإنسان في الفتنة، وتدهورت أخلاقه، وغرته الدنيا بزخارفها، ونسي الآخرة وجحيمها، مات قلبه، بين ذلك النبي ﷺ بقوله: « إِنَّ بَيْنَ يَدَيِ السَّاعَةِ فِتَناً كَقِطَعِ اللَّيْلِ الْمُظْلِمِ فِتَناً كَقِطَعِ الدُّخَانِ يَمُوتُ فِيهَا قَلْبُ الرَّجُلِ كَمَا يَمُوتُ بَدَنُهُ يُصْبِحُ الرَّجُلُ مُؤْمِناً وَيُمْسِي كَافِراً وَيُمْسِي مُؤْمِناً وَيُصْبِحُ كَافِراً يَبِيعُ أَقْوَامٌ خَلاَقَهَمْ وَدِينَهُمْ بِعَرَضٍ مِنَ الدُّنْيَا »[1].

- لذلك كان النبي ﷺ يتعوذ من فتنة الصدر أي القلب، كما يتعوذ من عذاب القبر، وأرذل العمر، فعَنْ عُمَرَ رضي الله عنه: (أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ يَتَعَوَّذُ مِنَ الْبُخْلِ وَالْجُبْنِ وَعَذَابِ الْقَبْرِ وَأَرْذَلِ الْعُمُرِ وَفِتْنَةِ الصَّدْرِ)[2].

- قَالَ وَكِيعٌ: فِتْنَةُ الصَّدْرِ أَنْ يَمُوتَ الرَّجُلُ ولَمْ يَتُبْ مِنْهَا[3].

- **أخيراً**: مما مر معنا نجد أن أهم ما ينبغي لمن أراد سلوك طريق التصوف طريق الذكر والإحسان والنجاح أن يسعى لامتلاك القلب السليم والمحافظة عليه.

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه أحمد عن أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده.

(٣)أحمد في مسنده.

المطلب السادس

السعي لتحقيق المقامات والأحوال التي تُبَلِّغهُ الطريق وتدلُّه عليه

- (قسم الصوفيون طريقهم إلى مراحل أو منازل أو مقامات فالمسمى واحد وإن اختلفت التسميات، وقد عمدوا إلى هذه التسمية تشبيهاً له بالطريق المادي حيث يجتازه المسافر مرحلة بعد مرحلة، فإذا تخطى مرحلة نزل ليستريح ويريح راحلته، ويتزود ليستأنف الرحلة من جديد) [١].

- وقد اصطلح العلماء على تسميتها بالمقامات والأحوال وهو المشهور من أسمائها.

- **المقامات**: من الإقامة والثبات وعدم التغير أو التبدل، وقد عرف السراج الطوسي المقام بأنه: (مقام العبد بين يدي الله ﷻ فيما يقام فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله ﷻ) [٢].

- قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [٣]

- وقال ﷻ: ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ ﴿١٦٤﴾﴾ [٤]

- والمقامات يكتسبها العبد بالتزام الشريعة، ومجاهدة النفس، ومواصلة التربية.

- قال محمد بن واسع [٥] رحمه الله: (كابدت الليل عشرين سنة، فتنعمت به عشرين سنة) [٦].

---

(١) د. عبد الفتاح بركة: التصوف والأخلاق ص ١٥٦ .

(٢) اللُّمع ص٥٦.

(٣) سورة إبراهيم: ١٤

(٤) سورة الصافات: ١٦٤

(٥) محمد بن واسع: أبو بكر محمد بن واسع بن جابر الازدي، فقيه ورع، من الزهاد. من أهل البصرة. عرض عليه قضاؤها، فأبى. وهو من ثقات أهل الحديث توفي سنة (١٢٣ هـ / ٧٤١ م). [الأعلام للزركلي]

(٦) الغزالي: إحياء علوم الدين جزء٦، ص٤٠٦.

- وقال مالك بن دينار[1] رحمه الله: (حفظت القرآن عشرين سنة ثم تنعمت بتلاوته عشرين سنة)[2].

- ومثالها في عصر النبوة ما اتصف به الصحابة الكرام من مقامات استقاموا عليها طيلة حياتهم كالإخلاص والصدق والصبر والتوكل والزهد وغير ذلك.

- فكان أحدهم يقول: (مَا كَذَبْتُ مُنْذُ أَسْلَمْتُ)[3].

- **الأحوال**: من التحول والتغير والتبدل وعدم الدوام.

- ومعنى الأحوال: هو ما يَحُلُّ بالقلوب، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار، وهو معنى يرد على القلب من غير تعمد ولا اجتذاب ولا اكتساب، وكان عارضاً سريع الزوال.

- وقد حكي عن الجنيد رحمه الله أنه قال: (الحال نازلة تنزل بالقلوب فلا تدوم)[4].

- والحال يأتي من فضل الله ﷻ، وليس من طريق المجاهدات والعبادات، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب.

- لذلك قال أهل التصوف: (الأحوال تأتي من عين الجود، والمقامات تحصل ببذل المجهود)[5].

---

(١)مالك بن دينار: أبو يحي مالك بن دينار البصري، من رواة الحديث.كان ورعا، توفي سنة (١٣١ هـ/ ٧٤٨م). [الأعلام للزركلي]

(٢)السراج الطوسي: اللُّمع ص ٦٦.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٤)السراج الطوسي ، اللُّمع ص ٦٦.

(٥)أبو العزايم جاد الكريم بكير: طلائع الصوفية ص٢٤.

- من هذا القبيل ما حدث من حال مع الصحابي الجليل حنظلة ﷺ: فقد روى حَنْظَلَةُ الأُسَيِّدِيُّ وَكَانَ مِنْ كُتَّابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: لَقِيَنِي أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: كَيْفَ أَنْتَ يَا حَنْظَلَةُ قَالَ قُلْتُ: نَافَقَ حَنْظَلَةُ قَالَ: سُبْحَانَ اللَّهِ مَا تَقُولُ قَالَ قُلْتُ: نَكُونُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ فَنَسِينَا كَثِيرًا قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَوَ اللَّهِ إِنَّا لَنَلْقَى مِثْلَ هَذَا. فَانْطَلَقْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ حَتَّى دَخَلْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ نَافَقَ حَنْظَلَةُ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:« وَمَا ذَاكَ ».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ نَكُونُ عِنْدَكَ تُذَكِّرُنَا بِالنَّارِ وَالْجَنَّةِ حَتَّى كَأَنَّا رَأْيَ عَيْنٍ فَإِذَا خَرَجْنَا مِنْ عِنْدِكَ عَافَسْنَا الأَزْوَاجَ وَالأَوْلاَدَ وَالضَّيْعَاتِ نَسِينَا كَثِيرًا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:« وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ أَنْ لَوْ تَدُومُونَ عَلَى مَا تَكُونُونَ عِنْدِي وَفِي الذِّكْرِ لَصَافَحَتْكُمُ الْمَلاَئِكَةُ عَلَى فُرُشِكُمْ وَفِي طُرُقِكُمْ وَلَكِنْ يَا حَنْظَلَةُ سَاعَةً وَسَاعَةً ». ثَلاَثَ مَرَّاتٍ(١).

- (ويذهب الإمام الغزالي في تعريفه للمقام و الحال مذهب السراج الطوسي فالوصف إنما يسمى مقاماً إذا ثبت و أقام، و إنما يسمى حالاً إذا كان عارضاً سريع الزوال) (٢).

- وبالرغم من تلك التعريفات إلا أن التداخل قائم بين المقام و الحال ،و قد عدَّ السهروردي الضابط المفرق بينهما اللفظ والعبارة إذ (أن اللفظ و العبارة عنهما مشعر بالفرق فالحال سُمي حالاً لتحوله و المقام مقاماً لثبوته و استقراره) (٣).

- (ويرى أهل التصوف أن كل فضيلة لا تستغني مقاماً عن حال إذ أن الحال مقدمة المقام فلابد من أن يوجد فيها حال و مقام ففي الزهد حال ومقام و في التوكل حال ومقام و في الرضا

---

(١) أخرجه مسلم.

(٢)الغزالي: إحياء علوم الدين جزء ٤ ص ١٣٩ .

(٣)عوارف المعارف ص ٤٢٣ .

حال و مقام إذاً فالشيء بعينه قد يكون حالاً ثم يصير مقاماً لأنه يتحول أما المقام فهو ثابت)[1].

- ولأهمية هذه المقامات والأحوال، ولقيام الطريق عليها كان لكل إمام من أئمة التصوف فيها مذهب.

- هذا وقد تحدث علماء التصوف عن مقامات وأحوال كثيرة وفصلوا فيها الحديث أتناول أهمها بالشرح المبسط في الباب التالي.

۞ ۞ ۞

(١)المرجع السابق ص ٤٢٥ .

الباب الرابع:

أهم المقامات و الأحوال

١– التوبة

٢– المحاسبة

٣– المحبة

٤– التقوى

٥– الإخلاص

٦– الاستقامة

٧– الزهد

٨– الرضا

٩– الشكر

١٠– الصبر

أولاً – مقام التوبة

– قال أبو يعقوب يوسف بن حمدان السوسي رحمه الله وهو من أعلام التصوف:

(أول مقام من مقامات المنقطعين إلى الله تعالى التوبة) [1].

– (التوبة أول منزل من منازل السالكين، وأول مقام من مقامات الطالبين، **وحقيقة التوبة في اللغة**: الرجوع، يقال: تاب أي رجع، **فالتوبة**: الرجوع عما كان مذموماً في الشرع إلى ما هو محمود فيه) [2].

– **فالتوبة إذاً**: هي رجوع العبد إلى ربه من الأوصاف المذمومة في الشرع إلى الأوصاف المحمودة فيه، وهي مبدأ طريق السالكين، ومفتاح سعادة المريدين، وشرط في صحة السير إلى الله رب العالمين.

– ولقد زخر القرآن الكريم بالآيات الدالة على هذا المقام و ساق أهل التصوف بعضاً منها للاستدلال على هذا المقام كما في قوله تعالى :

﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٣١﴾ [3]

– وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوۡبَةٗ نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيُدۡخِلَكُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾ [4]

---

(١)السراج الطوسي: اللمع، ص٦٨.

(٢) القشيري: الرسالة القشيرية، ص٩١.

(٣) سورة النور: ٣١

(٤) سورة التحريم: ٨

- قال أبو طالب المكي[1] :(في الآية الأولى إنها خطاب للعموم و في الثانية إنها خطاب للخصوص)[2].

- وكان الرسول المعصوم عليه الصلاة السلام كثيراً ما يجدد التوبة ويكرر الاستغفار تعليماً للأمة وتشريعاً فقد روى الأغرّ بن يسار المزني ﷺ عن النبي ﷺ قال:

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ فَإِنِّي أَتُوبُ فِي الْيَوْمِ إِلَيْهِ مِائَةَ مَرَّةٍ »[3].

- وكان أصحاب النبي ﷺ يعدون له في المجلس الواحد قبل أن يقوم:

« رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ »[4].

- قَالَ العلماءُ: (التَّوْبَةُ وَاجبَةٌ مِنْ كُلِّ ذَنْب، فإنْ كَانتِ المِعْصِيَةُ بَيْنَ العَبْدِ وبَيْنَ اللهِ تَعَالَى لاَ تَتَعلَّقُ بحقّ آدَمِيٍّ فَلَهَا ثَلاثَةُ شُرُوط:

أحَدُها: أنْ يُقلِعَ عَنِ المعصِيَةِ .

والثَّانِي: أَنْ يَنْدَمَ عَلَى فِعْلِهَا .

والثَّالثُ: أنْ يَعْزِمَ أَنْ لا يعُودَ إِلَيْهَا أَبَداً . فَإِنْ فُقِدَ أَحَدُ الثَّلاثَةِ لَمْ تَصِحَّ تَوبَتُهُ.

---

(١)أبو طالب المكي محمد بن علي بن عطية الحارثي، واعظ زاهد، فقيه.من أهل الجبل (بين بغداد وواسط) نشأ واشتهر بمكة.ورحل إلى البصرة فاتهم بالاعتزال.وسكن بغداد فوعظ فيها، فحفظ عنه الناس أقوالا هجروه من أجلها.وتوفي ببغداد سنة (٣٨٦ هـ/ ٩٩٦ م). [الأعلام للزركلي]

(٢) قوت القلوب جزء ١ ص ١٧٩ .

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٤) أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

وإنْ كَانَتِ المعْصِيةُ تَتعَلَّقُ بآدَمِيٍّ فَشُرُوطُهَا أرْبَعَةٌ: هذِهِ الثَّلاثَةُ، وأنْ يَبْرَأ مِنْ حَقّ صَاحِبِها، فَإنْ كَانَتْ مالاً أَوْ نَحْوَهُ رَدَّهُ إِلَيْه، وإنْ كَانَت حَدَّ قَذْفٍ ونَحْوَهُ مَكَّنَهُ مِنْهُ أَوْ طَلَبَ عَفْوَهُ، وإنْ كَانْت غِيبَةً استَحَلَّهُ مِنْهَا. ويجِبُ أنْ يَتُوبَ مِنْ جميعِ الذُّنُوبِ) [1].

– قال رسول الله ﷺ: « مَنْ كَانَتْ لَهُ مَظْلَمَةٌ لأَحَدٍ مِنْ عِرْضِهِ أَوْ شَيْءٍ فَلْيَتَحَلَّلْهُ مِنْهُ الْيَوْمَ، قَبْلَ أَنْ لاَ يَكُونَ دِينَارٌ وَلاَ دِرْهَمٌ ، إِنْ كَانَ لَهُ عَمَلٌ صَالِحٌ أُخِذَ مِنْهُ بِقَدْرِ مَظْلَمَتِهِ، وَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَاتٌ أُخِذَ مِنْ سَيِّئَاتِ صَاحِبِهِ فَحُمِلَ عَلَيْهِ »[2] .

– وقال ﷺ: «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ ؟ قَالُوا : الْمُفْلِسُ فِينَا يَا رَسُولَ اللهِ ، مَنْ لاَ دِرْهَمَ لَهُ ، وَلاَ مَتَاعَ ، قَالَ : الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ يَأْتِي بِصَلاَةٍ ، وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ عِرْضَ هَذَا ، وَقَذَفَ هَذَا ، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا ، وَضَرَبَ هَذَا ، فَيُقْعَدُ فَيَقْتَصُّ هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ ، قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ ، فَطُرِحَ عَلَيْهِ ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ» [3] .

– هذا وإن الله ﷻ يحب التوابين، قال تعالى:﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[4]

– ويفرح الله ﷻ بتوبة عبده فرحاً شديداً بين ذلك حديث متواتر عن النبي ﷺ رواه ابن مسعود، والبراء بن عازب، و النعمان بن بشير، وأبو هريرة، وأنس بن مالك ﷺ قال رسول الله ﷺ:

« للهُ أَشَدُّ فَرَحاً بِتوبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يتوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بأرضٍ فَلاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فأَيِسَ مِنْهَا، فَأَتَى شَجَرَةً فاضطجَعَ في ظِلِّهَا وقد أيِسَ مِنْ رَاحِلَتهِ،

---

(١) الإمام النووي: رياض الصالحين ص٢٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده عن أبي هريرة ﷺ.

(٤) سورة البقرة: ٢٢٢

فَبَينَما هُوَ كَذَلِكَ إِذْ هُوَ بِها قائِمَةً عِندَهُ، فَأَخَذَ بِخِطامِهَا، ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبدِي وأنا رَبُّكَ! أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الفَرَحِ »[1] .

– والله ﷻ يحب من عبده إذا أذنب أن يتوب، وقد جعل له باب التوبة مفتوحاً ليل نهار، فعن أبي موسى الأشعري ؓ عن النبي ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ يَدَهُ بِاللَّيْلِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ النَّهَارِ ، وَيَبْسُطُ يَدَهُ بِالنَّهَارِ لِيَتُوبَ مُسِيءُ اللَّيْلِ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَا»[2].

– وعندما يتوب المسلم فالله ﷻ قد يقبل توبته ويمحو سيئاته ويعفو عنه، قال تعالى:

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يَقْبَلُ ٱلتَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِۦ وَيَعْفُواْ عَنِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ وَيَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾[3]

– وقال رسول الله ﷺ:« التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ كَمَنْ لاَ ذَنْبَ لَهُ »[4].

– ولابد لمن سلك طريق التصوف وابتدأ بمقام التوبة أن يكثر من الاستغفار لأنه من أسباب قبول التوبة، والاستغفار–مصدر فعله استغفر– أي طلب الغفران، والغفران من الله للعبد أن يصونه عن العذاب فيقبل توبته، ويبعده عن المهالك، ولقد جاءت في القرآن الكريم آيات كثيرة تحث على الاستغفار منها قوله تعالى حكاية عن سيدنا نوح ؑ:

﴿ ثُمَّ إِنِّىٓ أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ﴿٩﴾ فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ ﴾[5]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) سورة الشورى:٢٥

(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ.

(٥) سورة نوح:٩–١١

- وقال سبحانه: ﴿ وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ ﴿٣﴾ ﴾(١)

- ويقول عزَّ من قائل: ﴿ وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْاْ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ ﴾(٢)

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ ﴾(٣)

- وقال جل وعلا: ﴿ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَٱسْتَغْفِرْهُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابًۢا ﴿٣﴾ ﴾(٤)

- وقال ﷻ: ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(٥)

- يقول الإمام علي كرم الله وجهه: (ثنتان تُؤمنان من العذاب، وقد رفعت إحداهما وبقيت الثانية، وتلا هذه الآية، ثم قال: العجب ممن يهلك، ومعه النجاة، قيل وما هي؟ قال: الاستغفار، وقال: ما ألهم الله سبحانه عبداً الاستغفار، وهو يريد أن يعذبه)(٦).

---

(١) سورة هود:٣

(٢) سورة هود:٥٢.

(٣) سورة النساء:١١٠

(٤) سورة النصر:٣

(٥) سورة الأنفال:٣٣

(٦) الغزالي: إحياء علوم الدين جزء١ ص٣٢٠.

– وقد تحدث النبي ﷺ عن أهمية الاستغفار في أحاديث كثيرة منها: «ألا أدلكم على دائكم ودوائكم ألا إن داءكم الذنوب ودواءكم الاستغفار» [(١)].

– وقال ﷺ: « مَنْ لَزِمَ الاِسْتِغْفَارَ جَعَلَ اللَّهُ لَهُ مِنْ كُلِّ ضِيقٍ مَخْرَجًا وَمِنْ كُلِّ هَمٍّ فَرَجًا وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لاَ يَحْتَسِبُ »[(٢)].

– وقال ﷺ:« إن للقلوب صدأ كصدأ النحاس وجلاؤُها الاستغفار »[(٣)].

– وتحدث النبي ﷺ عن نفسه فقال: «إِنَّهُ لَيُغَانُ[(٤)] عَلَى قَلْبِي وَإِنِّي لأَسْتَغْفِرُ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ»[(٥)].

– وينبغي للسالك طريق التصوف وهو طريق الله ﷻ في أول مقاماته التوبة، وأن تكون توبته توبة نصوحاً، والنصح في التوبة هو تخليصها من كل غش وفساد، وأن يكون عهد بينه وبين الله ألا يعود إلى ما كان عليه من الذنوب.

– قال سعيد بن المسيب: (توبة نصوح: تنصحون بها أنفسكم) [(٦)].

– وقال الحسن البصري: (هي أن يكون العبد نادماً على ما مضى مجمعاً على ألا يعود إليه)[(٧)].

---

(١) أخرجه البيهقي والديلمي عن أنس ﷺ.

(٢) أخرجه أبو داود وابن ماجه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه البيهقي في شعبه عن أنس ﷺ.

(٤)وغين على الرجل ركب قلبه السهو والغفلة.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه عن الأغر بن المزني ﷺ.

(٦)تفسير القرطبي.

(٧)د.أحمد فريد: تزكية النّفُوسِ ص٧٩.

– وقال الواسطي[1]: (التوبة النصوح لا تبقي على صاحبها أثراً من المعصية سراً ولا جهراً)[2].

– وينبغي لهذا السالك أن يبدأ طريقه إلى الله بهذه التوبة النصوح من كل ما مضى من الذنوب المتعلقة بحق الله ﷻ قبل سلوكه، وينبغي له أن يرد للآخرين جميع حقوقهم عليه، ثم ينبغي له بعد ذلك أن يبتعد عن الذنوب صغيرها وكبيرها فإن غفل وارتكب ذنباً فعليه أن يستغفر الله ﷻ من ذلك الذنب ويتوب إليه مباشرة، وأن يكون ذلك ديدنه طيلة حياته.

– وينبغي لهذا السالك إذا غفل عن التوبة، واستغرق في ذنوبه مدة من الزمان أن يعاود الرجوع إلى الله ويتوب إليه لأن الله تواب رحيم ويقبل التوبة عن عباده ويعفو عن السيئات.

وقال أَبو هُرَيْرَةَ ﷺ سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يقول: « إِنَّ عَبْدًا أَصَابَ ذَنْبًا – وَرُبَّمَا قَالَ: أَذْنَبَ ذَنْبًا – فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ – وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَبْتُ – فَاغْفِرْ لِي فَقَالَ رَبُّهُ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي . ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ، ثُمَّ أَصَابَ ذَنْبًا أَوْ أَذْنَبَ ذَنْبًا ، فَقَالَ: رَبِّ أَذْنَبْتُ – أَوْ أَصَبْتُ – آخَرَ فَاغْفِرْهُ . فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي ، ثُمَّ مَكَثَ مَا شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ أَذْنَبَ ذَنْبًا – وَرُبَّمَا قَالَ: أَصَابَ ذَنْبًا – قَالَ، قَالَ: رَبِّ أَصَبْتُ – أَوْ أَذْنَبْتُ – آخَرَ فَاغْفِرْهُ لِي . فَقَالَ: أَعَلِمَ عَبْدِي أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ وَيَأْخُذُ بِهِ غَفَرْتُ لِعَبْدِي – ثَلاَثًا – فَلْيَعْمَلْ مَا شَاءَ »[3] .

– حكي أن شاباً عبد الله ﷻ عشرين سنة، ثم عصاه عشرين سنة، ثم نظر في المرآة فرأى الشيب في لحيته فساءه ذلك، فقال: إلهي أطعتك عشرين سنة، ثم عصيتك عشرين سنة، فإذا

---

(١)الواسطي أبو الحسن علي بن الحين بن أحمد الشافعي، زاهد. مات محرماً ببدر سنة (٧٣٣ هـ/ ١٣٣٣ م) [الأعلام للزركلي].

(٢)القشيري: الرسالة القشيرية.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه.

رجعت إليك فهل تقبلني؟ فسمع نداءً يقول: أحببتنا فأجبناك، وتركتنا فما تركناك، ورزقناك وأعطيناك، وعصيتنا فأمهلناك، وإن رجعت إلينا قَبِلْنَاك.

– قال أحد المربين العارفين: إن الشاب إذا بكى من ذنوبه، واعترف بعيوبه إلى سيده ومحبوبه، وقال: إلهي أنا أسأت، فيقول الله تعالى: وأنا سترت، فيقول: إلهي أنا ندمت، فيقول الله تعالى: وأنا علمت، فيقول إلهي رجعت، فيقول الله تعالى: وأنا قبلت، وعفوت، وغفرت.

– أخيراً ينبغي على السالك مقام التوبة أن يراقب نفسه فلا يرتكب ذنباً بحق الله فهو في صحوة دائمة ومراقبة مستمرة، ومع ذلك قد يغفو أحياناً أو يسهو فيقع في الذنب فيشعر به مباشرة، وكأنه وقع عليه جبل، كما ورد في الحديث فيسرع في الإقلاع عنه والندم عليه ثم يستغفر الله كثيراً، ويبكي ويعاهد الله ألا يعود لمثله مبتعداً عن أصدقاء السوء ومجالسهم، وعما سبب له تلك الغفلة، ثم يكثر من الحسنات والصدقات إلى أن يشعر أن الله ﷻ قد غفر له ذنبه، ومحا عنه أخطاءه، وقبله وسامحه، يدعو دائماً بدعاء النبي: « اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي مَا قَدَّمْتُ وَمَا أَخَّرْتُ وَمَا أَسْرَرْتُ وَمَا أَعْلَنْتُ وَمَا أَسْرَفْتُ وَمَا أَنْتَ أَعْلَمُ بِهِ مِنِّي أَنْتَ الْمُقَدِّمُ وَالْمُؤَخِّرُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ »(١).

وكان رسول الله ﷺ يقول: «ربِّ اغْفِر وارْحَم وتجاوَزْ عما تعلم ، إنَّك أنت العليُّ الأعظم»(٢).

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه أبو داود في سننه عن علي رضي الله عنه.

(٢) جامع الأصول من أحاديث الرسول عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

ثانياً : مقام المحاسبة

– **المحاسبة:** (هي تهيئة الوازع الديني في النفس، وتربيتها على تنمية اللوم الباطني الذي يجردها من كل ما يقف أمامها عقبة في طريق الصفاء والمحبة والإيثار والإخلاص) [١].

– وقد أشار الله ﷻ في قرآنه إلى محاسبة النفس فقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلۡتَنظُرۡ نَفۡسٞ مَّا قَدَّمَتۡ لِغَدٖۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرُۢ بِمَا تَعۡمَلُونَ ١٨ ﴾ [٢]

– قال الإمام ابن القيم: (هذه الآية تدل على وجوب محاسبة النفس) [٣].

– وقال الإمام ابن كثير في تفسيره لهذه الآية أي: (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا، وانظروا ماذا ادخرتم لأنفسكم من الأعمال الصالحة ليوم معادكم وعرضكم على ربكم، واعلموا أنه عالمٌ بجميع أعمالكم وأحوالكم لا تخفى عليه منكم خافية) [٤].

– وأشار النبي ﷺ إليها أيضاً فقال: « الْكَيِّسُ[٥] مَنْ دَانَ نَفْسَهُ[٦] وَعَمِلَ لِمَا بَعْدَ الْمَوْتِ وَالْعَاجِزُ مَنْ أَتْبَعَ نَفْسَهُ هَوَاهَا وَتَمَنَّى عَلَى اللَّهِ »[٧].

– **ولمحاسبة النفس خطوات متعددة:**

---

(١) عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف ص٢٣٥.

(٢) سورة الحشر:١٨.

(٣) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان جزء١ ص٨٤.

(٤) تفسير ابن كثير جزء رابع ص٣٦٥.

(٥) الكيس: أي العاقل.

(٦) دان نفسه: أي حاسبها.

(٧) أخرجه الترمذي وابن ماجه عن شداد بن أوس ﷺ.

أولاً: مشارطتها، وذلك بركون المسلم إلى نفسه، والحديث معها مبيناً لها حقيقتها، وما يجب عليها أن تسير عليه من اتباع الشرع، وأوامر الله، وسنة رسوله، والبعد عن الهوى والشهوات والمعاصي والمحرمات، موضحاً لها نتائج كل طريق منهما في الدنيا والآخرة، فيشترط عليها اتباع طريق الحق والبعد عن طريق الباطل.

ثانياً: إرشادها إلى الحق والخير والنجاح والفلاح، والسير على منهجه وسلوك طرقه وأساليبه.

ثالثاً: مراقبتها في حركاتها وسكناتها، وفي أقوالها وأعمالها، وفي نياتها وظاهرها، وفي كل أمورها.

رابعاً: محاسبتها على كل أعمالها وما يصدر عنها.

ومحاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همه وإرادته، ولا يبادر إلى العمل حتى يتبين له رجحانه على تركه.

قال الحسن رحمه الله: (رحم الله عبدا وقف عند همه ، فإن أحدا لا يعمل حتى يهم ، فإن كان لله ﷻ مضى ، وإن كان لغير الله أمسك) [(١)].

أما النوع الثاني: فهو محاسبة النفس بعد العمل، وهو أربعة أنواع:

أحدها: محاسبتها على طاعة قصرت فيها من حق الله فلم تؤدها على الوجه الذي ينبغي، فيحاسب نفسه عن تقصيرها، ويلزمها أداءها بأفضل ما يجب أن تكون.

الثاني: أن يحاسب نفسه على كل عمل كان تركه خيراً له من فعله، فيحاسبها لماذا عملت به؟ أليس من الأولى تركه، وأنَّ عليها ألا تقوم به مرة ثانية.

---

(١) أخرجه البيهقي في شعبه.

الثالث: أن يحاسب نفسه على أمرٍ مباح أو معتاد، لِمَ فعله؟ وهل أراد به الله والدار الآخرة؟ فيكون رابحاً، أو أراد به الدنيا وعاجلها، فيخسر ذلك الربح، ويفوته الظفر به.

الرابع: أن يحاسب نفسه على أمرٍ فِعْلُهُ فيه معصية لله ﷻ، وهنا يكون حسابه لنفسه شديداً، وعتابه لها كبيراً، كيف ارتكبت الحرام؟ كيف فعلت الذنب؟ كيف فعلت المنكرات؟ كيف عصت ربها؟ كيف وكيف وكيف....

ثم يبكي على ما أحدث ويندم، ويستغفر ويتوب ويتصدق، ويعاهد الله ألا يعود إلى مثل ذلك أبداً.

- وجماع ذلك أن يحاسب نفسه أولاً على الفرائض، فإن تذكر منها نقصاً تداركه إما بقضاء أو إصلاح، ثم يحاسبها على المناهي، فإن عرف أنه ارتكب منها شيئاً، تداركه بالتوبة والاستغفار، والصدقات والحسنات الماحية، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْحَسَنَـٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾[1]

- ثم يحاسب نفسه على الغفلة، فإن كان قد غفل عما خُلق له، تداركه بالذكر والإقبال على الله تعالى، ثم يحاسبها بما تكلم به، أو مشت رجلاه، أو بطشت يداه، أو سمعته أذناه.

- ماذا أردتُ بهذا؟ ولِمَ فعلت؟ ولمن فعلته؟ وعلى أي وجهٍ فعلته؟

- ويعلم أنه لابد أن يُنشر لكل حركة وكلمة ديوانان: لِمَ فعلته؟ وكيف فعلته؟

- فالأول سؤال عن الإخلاص، والثاني سؤال عن المتابعة، قال تعالى:

﴿لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّـٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾﴾[2]

---

(١) سورة هود: ١١٤.

(٢) سورة الأحزاب:٨.

– فإذا سئل الصادقين عن صدقهم، وحوسبوا على صدقهم، فما الظنّ بالكاذبين!

– وقد درج السلف الصالح على محاسبة أنفسهم محاسبة شديدة، ولم يغفلوا عنها أبداً، وقد أعطونا دروساً نافعة بذلك أذكر منها:

– قول سيدنا عمر بن الخطاب ﵁: « حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوا أنفسكم قبل أن توزنوا ، فإنه أهون عليكم في الحساب غداً أن تحاسبوا أنفسكم اليوم وتزيّنوا للعرض الأكبر يوم تعرضون لا تخفى منكم خافية »(١).

– وكتب عمر بن الخطاب ﵁ إلى أبي موسى الأشعري ﵁ وكان من عماله: « أن حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة ، فإنه من حاسب نفسه في الرخاء قبل حساب الشدة عاد مرجعه إلى الرضا والغبطة ومن ألهته حياته وشغله بهواه عاد مرجعه إلى الندامة والحسرة ، فتذكر ما توعظ به لكي تنتهي عما ينتهى عنه »(٢).

– عن أنس بن مالك ﵁ قال: سمعت عمر بن الخطاب ﵁ يوما وخرجت معه حتى دخل حائطا فسمعته يقول وبيني وبينه جدار وهو في جوف الحائط : « عمر بن الخطاب أمير المؤمنين بخ والله لتتقين الله ، ابن الخطاب أو ليعذبنك »(٣).

– وقال الحسن: (المؤمن قوام على نفسه يحاسب نفسه لله ﷿، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة، إن المؤمن يفجؤه الشيء ويعجبه، فيقول والله إني لأشتهيك وإنك لمن حاجتي، ولكن والله، ما صلة إليك هيهات، حيل بيني وبينك ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول: هيهات ما أردت إلى هذا وما لي ولهذا والله ما أعذر بهذا والله لا أعود إلى هذا أبدا إن شاء الله،

---

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في الزهد.

(٢) أخرجه البيهقي في شعبه.

(٣) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس ص٤.

إن المؤمنين قوم أوقفهم القرآن وحال بينهم وبين هلكتهم إن المؤمن أسير في الدنيا يسعى في فكاك رقبته لا يأمن شيئا حتى يلقى الله يعلم أنه مأخوذ عليه في سمعه، وفي بصره، وفي لسانه، وفي جوارحه، مأخوذ عليه في ذلك كله)[1].

- وقال الحسن أيضاً: (أيسر الناس حسابا يوم القيامة الذين يحاسبون أنفسهم في الدنيا فوقفوا عند همومهم وأعمالهم فإن كان الذي هموا به لهم مضوا وإن كان عليهم أمسكوا قال : وإنما يثقل الأمر يوم القيامة على الذين جازفوا الأمور في الدنيا أخذوها من غير محاسبة فوجدوا الله عز وجل قد أحصى عليهم مثاقيل الذر وقرأ: ﴿ وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيْلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلْكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَا ۚ وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴾[2])[3].

- قال وهب بن منبه مكتوب في حكمة آل داود: (حق على العاقل أن لا يشغل عن أربع ساعات ، ساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يُفْضِي فيها إلى إخوانه الذين يخبرونه بعيوبه ويصدقونه عن نفسه ، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذاتها فيما يحل ويجمل ، فإن هذه الساعة عون على هذه الساعات ، وإجمام للقلوب)[4].

---

(١) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس ص١٨.

(٢) سورة الكهف: ٤٩.

(٣) ابن أبي الدنيا: محاسبة النفس ص١٥٦.

(٤) أخرجه البيهقي في شعبه.

- وعن ميمون بن مهران[1] أنه قال: (لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل)[2].

- ومن أهم فوائد محاسبة النفس الاطلاع على عيوبها، ومن لن يطلع على عيب نفسه لم يمكنه إزالته، فإذا اطلع على عيبها، مقتها في ذات الله تعالى.

- عن أبي الدرداء ﷺ قال : (لا يفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتاً)[3].

- وينبغي للمؤمن ألا يكتفي بالمقت فقط، وإنما يسعى إلى معالجة أمراضه، ويسعى إلى دواء شفائه.

- ويذكر الإمام ابن قيم الجوزية ما يعين على محاسبة النفس فيقول: (ويعينه على هذه المراقبة والمحاسبة : معرفته أنه كلما اجتهد فيها اليوم استراح منها غدا إذا صار الحساب إلى غيره وكلما أهملها اليوم اشتد عليه الحساب غداً)[4].

- ويعينه عليها أيضاً : (معرفته أن ربح هذه التجارة سكنى الفردوس والنظر إلى وجه الرب سبحانه وخسارتها دخول النار والحجاب عن الرب تعالى فإذا تيقن هذا هان عليه الحساب اليوم فحق على الحازم المؤمن بالله واليوم الآخر أن لا يغفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها وسكناتها وخطراتها وخطواتها فكل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا حظ لها يمكن أن يشتري بها كنز من الكنوز لا يتناهى نعيمه أبد الآباد فإضاعة هذه الأنفاس أو اشتراء

---

(١)ميمون بن مهران الرقي أبو أيوب: فقيه من القضاة.كان مولى لامرأة بالكوفة. وأعتقته، فنشأ فيها.ثم استوطن الرقة فكان عالم الجزيرة، وسيدها. واستعمله عمر بن عبد العزيز على خراجها وقضائها، وكان ثقة في الحديث،كثير العبادة، توفي سنة (١١٧ هـ/٧٣٥ م). [الأعلام للزركلي]

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين جزء٧ ص٥١.

(٣) أخرجه ابن عساكر في جامع الأحاديث.

(٤) ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان جزء١ ص٨٠.

صاحبها بها ما يجلب هلاكه : خسران عظيم لا يسمح بمثله إلا أجهل الناس وأحمقهم وأقلهم عقلاً وإنما يظهر له حقيقة هذا الخسران يوم التغابن :

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا﴾[1])[2].

– ويرتبط بمحاسبة النفس مجاهدتها إن وجدها نزاعة للشر، محبة للمعاصي، مسرعة إلى الهوى، تواقة للشهوات، مهملة للفرائض، تاركة للنوافل، مبتعدة عن الطاعات، فوجب عليه أن يجاهدها فيما تريده، ويخالفها فيما تحب.

– ومعنى يجاهد نفسه أي: يمنع نفسه أن ترتكب المحرمات، ويخالفها في حبها للمعاصي والأهواء والشهوات، وينهاها عن كل ما يبعدها عن الله ﷻ.

– ومجاهدة النفس تحتاج إلى إرادة قوية، وعزيمة صادقة، تنبع من إيمان هذا المسلم العميق، ومحبة الله سبحانه وتأييد الله له ومعونته، فهي تشبه مجاهدة العدو وقتاله، فلذلك سميت بالمجاهدة، بل جعلها النبي ﷺ الجهاد الأكبر فقال: (رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، جهاد النفس)[3].

– وقال ﷺ: (الْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي اللَّهِ ﷻ)[4].

– وقد يُسائلُ المسلمُ نفسه كيف تكون المجاهدة؟

– أجاب القشيري عن هذا السؤال بقوله: (واعلم أن أصل المجاهدة وملاكها: فطم النفس عن المألوفات، وحملها على خلاف هواها في عموم الأوقات.

---

(١) سورة آل عمران: ٣٠.

(٢)ابن قيم الجوزية: إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: جزء ١ ص٨٠.

(٣) أخرجه البيهقي في شعبه عن جابر رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الطبراني في الكبير عن فضالة بن عبيد.

وللنفس صفتان مانعتان لها من الخير: إنهماك في الشهوات، وامتناع عن الطاعات فإذا جمحت عند ركوب الهوى وحب كبحها بلجام التقوى، وإذا حرنت عند القيام بالموافقات يجب سوقها على خلاف الهوى) (١).

- وأنواع المجاهدة كثيرة، وكل مسلم يليق به نوع منها ربما لا يليق بغيره، وذلك على قدر قوة المسلم وضعفه، وعلى قدر إرادته وقدرته، وبحسب زمانه ومكانه.

- فمن المجاهدة: الإكثار من الصلاة والصيام، والصدقة والنوافل، والذكر وقراءة القرآن، وغير ذلك مما فيه تقربٌ إلى الله، وبعدٌ عن هوى النفس.

- ومن المجاهدة مجالسة الصالحين، والعلماء العاملين، والإخوة المتقين، ففي ذلك عون على إبعاد النفس عن مُشتهياتها، وعن غيها ومعصيتها.

- ومن المجاهدة حرمان النفس من مشتهياتها ورغباتها وشهواتها، وذلك عن طريق الإقلال من الطعام والنوم، ومع الصيام والقيام، فإن ذلك يساعد على إضعافها، وإضعاف طلباتها.

ويتصل أيضاً بمحاسبة النفس معاتبة النفس ومعاقبتها وذلك إذا ارتكبت المعاصي أو قصرت في حق الله ﷻ، وتمادت في غيها وتقصيرها، حتى ترتدع ولا تعود إلى مثل ذلك.

فهو يعاتبها على ذلك، ويذكرها بالله ﷻ الذي لا تخفى عليه خافية، ويذكرها بالموت والحساب، والجزاء والنار والعقاب.

فإن لم تقنع بالمعاتبة عاقبها على تقصيرها، وإهمالها لحق ربها، وارتكابها للذنوب والمعاصي.

- والمقصود من معاقبتها، حرمانها من بعض حقوقها والمباحات لها من طعام أو شراب أو نوم أو راحة أو رحلة أو نزهة أو غير ذلك مما تشتهيه وتحبه وترغب فيه، مع الإكثار من تلاوة القرآن والذكر والصلاة والصوم والقيام والصدقات، وغير ذلك من أعمال الخير والطاعات، كي ترتدع عن غيها، وتقصيرها وإهمالها، وترجع إلى بارئها.

---

(١) القشيري: الرسالة القشيرية: ص٣٥.

- وقد أورد المحاسبي جواباً عن سؤاله: كيف أعاتب نفسي على ما جنت؟ فقال:

(تفرق بينها وبين محابها، وتأخذ سوط الخشية لها بدوام الرعاية لها في سعيها، وتضاعف عليها أورادها، وتزيد في كدها، وتنقص من غذائها، وتقطعها عن ملاذها، وتجرعها غيظ التهديد زجراً لها، حتى يغلب سلطان رعايتك سلطان كبرها، فعند ذلك تذل في نفسها، وتخضع بعد كبرها، وتسقط من كَلَبها (شراهتها) وشرها، وتمر على الاستقامة إلى خالقها، ومن الله التوفيق)[1].

- **وأخيراً**: فنعلم أن معاتبة النفس سنة من سنن الصالحين دأبوا عليها كلما وجدوا من أنفسهم غفلة أو حباً لمعصية، وقد ذكر الغزالي في إحيائه كثيراً من هذه المعاتبة أنقل منها نموذجاً لمعاتبة الصالحين لأنفسهم أوردها المقدسي: (واعلم: أن أعدى عدوٍ لك نفسك التي بين جنبيك، وقد خلقت أمارة بالسوء، ميالة إلى الشر، وقد أمرت بتقويمها وتزكيتها وفطامها عن مواردها، وأن تقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها، فإن أهملتها جمحت وشردت، ولم تظفر بها بعد ذلك، وإن لزمتها بالتوبيخ رجونا أن تصير مطمئنة، فلا تغفلن عن تذكيرها. وسبيلك أن تقبل عليها، فتقرر عندها جهلها وغباوتها وتقول: يا نفس، ما أعظم جهلك، تدعين الذكاء والفطنة وأنت أشد الناس غباوة وحمقاً، أما تعلمين أنك صائرة إلى الجنة أو النار؟ فكيف يلهو من لا يدرى إلى أيتهما يصير؟! وربما اختطف في يومه أو في غده! أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب، وأن الموت يأتي بغتة من غير موعد، ولا يتوقف على سن دون سن، بل كل نفس من الأنفاس يمكن أن يكون فيه الموت فجأة، وإن لم يكن الموت فجأة كان المرض فجأة، ثم يفضي إلى الموت. فمالك لا تستعدين للموت وهو قريب منك؟! يا نفس، إن كانت جرأتك على معصية الله تعالى لاعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك، وإن كانت مع علمك باطلاعه عليك، فما أشد وقاحتك، وأقل حياءك! ألك طاقة على عذابه؟ جربي ذلك بالقعود ساعة في الحمام، أو قرّبي أصبعك من النار، يا نفس إن كان المانع لك من الاستقامة حب الشهوات، فاطلبي الشهوات

---

(١) الوصايا: ص٢٣١.

الباقية الصافية عن الكدر، ورب أكلة منعت أكلات. وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويتهيأ لشربه طول العمر؟ فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة؟ أيصبر ثلاثة أيام ليتنعم إلى الأبد أم يقضي شهوته في الحال ثم يلزمه الألم أبداً، فجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد، الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر، بل أقل من لحظة بالإضافة إلى عمر الدنيا. وليت شعري! ألم الصبر عن الشهوات أشد وأطول، أم ألم النار في الدركات؟ فمن لا يطيق الصبر على ألم المجاهدة، كيف يطيق ألم العذاب في الآخرة ؟ أشغلك حب الجاه؟ أَمَا بعد ستين سنة أو نحوها، لا تبقين أنت ولا من كان لك عنده جاه. هلا تركت الدنيا لخسة شركائها، وكثرة عنائها وخوفاً من سرعة فنائها؟ أتستبدلين بجوار رب العالمين صف النعال في صحبة الحمقى؟ قد ضاع أكثر البضاعة، وقد بقيت من العمر صبابة، ولو استدركت ندمت على ما ضاع، فكيف إذا أضفت الأخير إلى الأول؟ اعملي في أيام قصار لأيام طول، وأعدي الجواب للسؤل. اخرجي من الدنيا خروج الأحرار قبل أن تكون خروج اضطرار إنه من كانت مطيته الليل والنهار سير به وإن لم يسر. تفكري في هذه الموعظة، فإن عدمت تأثيرها، فابكِ على ما أصبت به فمستقى الدمع من بحر الرحمة) [١].

۞ ۞ ۞

(١) المقدسي: مختصر منهاج القاصدين: ص٣٧٧.

ثالثاً: مقام المحبة

– المحبة هي الغاية القصوى من المقامات، والذروة العليا من الدرجات، فما بعد إدراك المحبة مقام إلا وهو ثمرة من ثمارها، وتابع من توابعها، ولا قبل المحبة مقام إلا وهو مقدم من مقدماتها.
الحُبُّ من العواطفِ الإنسانيةِ البشريةِ، التي تَكمُنُ في أعماقِ النفسِ، وتَظْهَرُ على الإنسانِ بِشْراً وسعادةً وسروراً.

– وأفضلُ تعريف للحب هو:(الميلُ الدائم في أعماق القلبِ الهائمِ)، وإيثار المحبوب على جميع المصحوب ، وموافقة الحبيب في الشهد والمغيب.والمحبة عروس ومهرها النفوس ولها تخضع الرقابُ والرؤوسُ وهي للعارف نور، وللجاهل نارٌ.

– والحب مأخوذة من الحُبِّ الذي هو إناء واسع يوضع فيه الشيء فيمتلئ به بحيث لا يسع غيره، لذلك قلب المحب ليس فيه سعة لغير محبوبه.

– وللإنسانِ محبوباتٌ كثيرةٌ، منها محبة الله ﷻ ومحبة الرسول ﷺ ومحبة الصالحين ومحبة الوالدين، ومحبة الزوجة، ومحبة الأولاد، ومحبة الأرحام والأقارب، ومحبة المؤمنين إلى غير ذلك ولكلِّ محبوب نوعٌ من الحب يختلفُ عن المحبوبات الأُخرى ويرتبطُ بهذا الحبِ مُتعلَّقات تختلف من حبٍّ إلى آخر، فحبُّ الله يختلفُ عن حبِّ الوالدين وحبُّ الوالدينِ يختلفُ عن حبِّ الزوجةِ ويختلف عن حبِّ الأولادِ.

– وهكذا يمكنُ للقلبِ أن يُحبَّ الجميعَ بآنٍ واحدٍ ولكن لكلِّ محبوبٍ تَوَجُّهٌ خاصٌ من القلبِ نَحوَهُ.

– وفي مقام المحبة سنتناول الحديث عن محبة الله ﷻ ومحبة رسوله ﷺ ومحبة الصالحين.

أولاً- محبة الله ﷻ:

- أهم محبوب عند المسلمِ اللهُ ﷻ، بل محبةُ اللهِ لا يماثِلُها شيءٌ كما قالَ تعالى مبيناً الفرق في المحبةِ بين الكافرِ والمؤمن: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾[1]

- ومحبةُ اللهِ هي الإيمانُ اليقينيُّ الحقُّ به، والأنسُ به والتقربُ إليه.

- وحبُّ اللهِ فرضٌ على كلِّ مسلمٍ.

- بل ويجب على المسلمِ ألا يسيطرَ عليه شيءٌ من محبوباتِ الدنيا، فيتقدَمَ حبُّه على حبِّ الله ﷻ قال سبحانه مبيناً ذلك:

﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَـٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَـٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾[2]

- وأكَّدَ الرسولُ ﷺ هذا المعنى، فقال ﷺ:

(لا يؤمنُ أحدُكُم حتى يكونَ اللهُ ورسولُهُ أحبَّ إليه مما سواهما)[3].

- ومن علاماتِ محبةِ اللهِ تعالى إتباعُ رسولِهِ ﷺ، قال تعالى:

---

(١) سورة البقرة: ١٦٥.

(٢) سورة التوبة: ٢٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه عن أنس رضي الله عنه.

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾(١)

– أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : (إني إنما خلقت الشهوات لضعفاء خلقي فإياك أن تعلق قلبك منها بشيء فأيسر ما أعاقبك به أن أنسخ حلاوة حبي من قلبك) (٢).

– وكيف لا يُحبُّ المسلمُ ربَّهُ حباً عظيماً يَفُوقُ كلَّ حُبٍّ! وقد أَنْعَمَ اللهُ عليه بنعمٍ كثيرةٍ منها خَلْقُ الله له، وتعريفُهُ به وأخذُهُ بيده إليه، وتسخيرُ ما في الدنيا جميعاً له قال عز وجل مذكِّراً عبادَهُ بهذِهِ النعمِ: ﴿ وَإِن تَعُدُّوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾(٣)

– وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾(٤)

– ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم: (أَحِبُّوا اللهَ لما يَغْذُوكُمْ من نعمِهِ) (٥).

– كيف لا يحب القلب من لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يجيبُ الدعواتِ ويُقِيلُ العثراتِ، ويغفرُ الخطيئاتِ، ويَسْتِرُ العوراتِ، ويكْشِفُ الكُرُبات، ويُغيْثُ المستغيثينَ، ويقبلُ طلباتِ الداعينَ إلا هو؟

– فهو سبحانَه أحقُّ من ذُكِرَ، وَأَوْلَى من شُكِرَ، وأحقُّ من عُبِدَ، وأَجْدَرُ من حُمِدَ، وأَنْصَرُ من اسْتُنْصِرَ، وأرأَفُ مَنْ مَلَكَ، وأجودُ من سُئِلَ، وَأَوْسَعُ من أعطى، وَأَرْحَمُ مَن استُرحِمَ، وأَكْرَمُ من نَصَرَ، وأَعَزُّ من التُجئَ إليه، وأكفى مَنْ تُوُكِّلَ عليه، وأرحمُ بعبدِهِ من الوالدةِ بوَلَدِها، وأشدُّ فرحاً

(١) سورة آل عمران: ٣١.

(٢)أبو نعيم الأصبهاني: حلية الأولياء جزء ١٠ ص٢٠.

(٣) سورة إبراهيم: ٣٤.

(٤) سورة النحل: ٥٣.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

بتوبةِ التائبِ من الفاقدِ لراحلتِهِ التي عليها طعامُهُ وشرابُهُ في الأرض المَهْلَكَةِ، إذا يئسَ من الحياةِ ثم وجَدها، وهو المِلِكُ لا شريكَ له، والفردُ لا نِدَّ لَهُ، كلُّ شيءٍ هالِكٌ إلا وجْهَهُ.

- إن محبة اللهِ ﷻ هي حياةُ القلوبِ، وغِذاءُ الأرواحِ، وليس للقلبِ لذةٌ ولا فلاحٌ ولا حياةٌ إلا بها، وإذا فقَدها القلبُ كانَ أَلَمُهُ أعظمَ من أَلمِ العينِ إذا فَقَدَتْ نورَها، والأُذنِ إذا فَقَدت سمعَها، بل إنَّ فسادَ القلبِ إذا خلا من محبةِ فاطرِهِ وبارِئِهِ وإلهِهِ الحقِّ أعظمُ من فسادِ البدنِ إذا خلا من الرُوح وهذا الأمرُ لا يُصَدِّقُ به إلا من فيه حياةٌ، وما بجُرْحٍ بميتٍ إيلامُ، وأهمُّ علامةٍ على صِدْقِ المسلمِ في محبةِ اللهِ ﷻ طاعةُ اللهِ والتزامُ أوامرِهِ والبعدُ عن معصيتِهِ.

- قال الحسن بن محمد ابن الحنفية[1]: من أحب حبيباً لم يعصه. ثم قال:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه　　　عار عليك إذا فعلت شنيع
لو كان حبك صادقاً لأطعته　　　إن المحب لمن أحب مطيع

- وهناك علامَاتٌ كثيرةٌ للمحبِّ الصادقِ ودلائلُ واضحةٌ، منها زُهْدُهُ في الدنيا وبكاؤُهُ على أخطائِهِ، وتسليمُهُ لأمرِ اللهِ ورضاؤُهُ بحكمِهِ سبحانَه قال يحيى بن معاذ[2]:

ومن الدلائلِ زُهْدُهُ فيما يَرَى　　　من دارِ ذُلِّ والنَعيم الزَّائِـــل
ومن الدلائلِ أن تَراهُ باكيــاً　　　أن قد رآه على قبيحِ فعائــلِ
ومن الدلائلِ أن تراهُ مُسَلِّماً　　　كلَّ الأمورِ إلى المليكِ العادلِ
ومن الدلائلِ أن تراهُ راضياً　　　بمليكِهِ في كلِّ حُكْمٍ نـــازِلِ

- وإذا أحبَّ العبد ربه وسكنت محبته في قلبه أنارت بأنوار المحبوب فأثرت وأثمرت في القلب سبعة أشياء وهي : إخلاص النية لله،والخوف من الله، ورجاء ثواب الله ، والصدق مع الله ،

(١) ابن منظور: مختصر تاريخ دمشق جزء٢ ص٤١٧.
(٢) أبو طالب المكي: قوت القلوب ص٤٦٤.

والتوكل على الله ، وحسن الظن بالله ، و الشوق إلى الله.

- من أحبَّ اللهَ حقَّ المحبةِ هانَ عليه أن يَمْتثِلَ أوامِرَه كامِلَةً، باذلاً في سبيلِهِ كلَّ ما يستطيع، مسروراً بما يُقَدِّمُهُ إرضاءً لمحبوبِهِ.

- لذلكَ فإنَّ هذه المحَبَة تدعو المسلم أن يتخلَّى عن المفاسد بشتى أنواعِها وأشكالِها، وأن يبادر إلى الأمور الصالحة التي يحبُها الله عز وجل.

- وينبغي للمسلم أن يفتِّشَ قلبه ويتَعرَّفَ مقدارَ حُبِّه للهِ ويعلم أن كمالَ الإيمانِ باللهِ بكمال محبتِهِ ويعلم أيضاً أن الأسبابَ الجالبة لمحبة اللهِ كثيرةٌ أهمها عشرة ذكرها ابن القيم الجوزية:

(**أولاً**: الإكثارُ من قراءةِ القرآنِ بالتدبُّرِ والتَفَهُّمِ لمعانيه وتطبيقُ أوامِرِهِ والابتعادُ عن نواهِيهِ.

ثانياً: التقرب إلى الله عز وجل بالنوافل بعد الفرائض فإنها توصل إلى درجة المحبوبية بعد المحبة.

ثالثاً: دوامُ ذكرِهِ على كلِ حالٍ باللسانِ والقلبِ والعملِ والحالِ، فمن أحب شيئاً أكثرَ من ذِكرِهِ والله عز وجل يقول:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾﴾(١)

رابعاً: إيثارُ محابِّهِ على محابِّكَ عند غَلبَاتِ الهوى والسَّعيُ إلى محابِّهِ وإنْ صَعُبَ المرْتَقَى.

خامساً: مطالعةُ القلبِ لأسماءِ اللهِ الحُسنى وصفاتهِ العُلْيا ومُشاهَدَتَهُا ومَعرفتُها وتقلُّبُهُ في رياضِها.

سادساً: مشاهَدَةُ برّه وإحسانِهِ وآلائِهِ ونعمِهِ الباطِنة والظاهرةِ فإنها طريقٌ إلى محبتِهِ.

سابعاً: انكسار القلب بكليته بين يدي الله تعالى تَذَلُّلاً وتواضعاً.

ثامناً:الخلوةُ به وقت النزولِ الإلهي في الثلثِ الأخيرِ من الليلِ لمناجاتِهِ وتلاوةِ كلامِهِ والوقوفِ

---

(١) سورة الأحزاب: ٤١.

بالقلبِ بحضرتِهِ والتأدبِ بأدبِ العبوديةِ بينَ يديه ثم خَتْم ذلكَ بالاستغفارِ والتوبةِ.

قال تعالى: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[١]

وورد عن النبي ﷺ :

(يَنزِلُ ربُنا تباركَ وتعالَى كلَّ ليلةٍ إلى السماءِ الدُّنيا حينَ يَبْقَى الثلثُ الأخيرُ من الليلِ الآخرِ يقولُ: منْ يدعوني فأستجيبَ له؟ من يَسْأَلني فَأُعطِيه؟ ومن يَستَغْفرني فأَغْفِرَ له) [٢].

تاسعاً: مجالسةُ المحبينَ الصادقِين، والتقاطُ أطايبِ ثمراتِ كلامِهم كما يُنتقى أطايِبُ الثَمَر.

عاشراً: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله ﷻ)[٣].

– جاء في كتاب إحياء علوم الدين، ورَد أنَّ اللهَ أَوحى إلى بعضِ الصديقين:

(إنَّ لي عباداً يحُبوني وأُحِبهُم، ويشتاقونَ إليَّ وأشتاقُ إليهم، ويذكروني وأذكرُهم، وينظرون إليَّ وأنظرُ إليهم، فإن سلكتَ طريقَهم أحببتُك، وإن عَدَلْتَ عن ذلك مقتُّك، قال: يا رب وما علامتُهم؟ قال: يُراعونَ الظِلالَ بالنهارِ كما يُراعي الراعي غَنَمه، ويَحنُّون إلى غروب الشمس كما تحنُّ الطيرُ إلى أوكارِها، فإذا جنَّهم الليلُ واختَلَطَ الظلامُ وخلا كلُّ حبيبٍ بحبيبه، نَصبوا إليَّ أقدامَهم، وافترشوا لي وجوهَهم، وناجَوْني بكلامي وتملقُوا إليَّ بأنعامي فهم بين صارخٍ وباكٍ، وبين متأوهٍ وشاكٍ، بعيني ما يتحملونَ من أجلي، وَبسَمْعي ما يَشْكُون من حُبي.

---

(١) سورة البقرة:١٨٦.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين ص١١و١٢.

أولُ ما أُعطيهم: أَنْ أَقذِفَ من نُوري في قلوبِهم فَيُخبِرُون عني كما أُخبِرُ عنهم،

والثاني: لو كانَتِ السماواتُ السبعُ والأرضونَ وما فيها في موازينِهِم لاستقلَلْتُها لهم،

والثالث: أُقْبِلُ بوجهي عليهم، أيعلم أحدُهُم ما أريدُ أن أُعطيه) [1].

وينبغي للمحب أن يعلَمَ أنَّ من أحبَّ الله، أحبَّهُ الله سبحانه، ومن ارتدَّ عن دينه وابتعدَ عن محبةِ رَبه، فسوفَ يأتي اللهُ بقومٍ يحُبُهم ويحبونَه كما قال تعالى:

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾ [2]

– ومن أحبَّهُ اللهُ أحَبَّهُ جبريلُ والملائكةُ ونالَ القَبولَ والسَعادةَ في الدنيا والآخرة، روى أبو هريرة ﷺ عن النبي ﷺ قال: (إذا أحبَّ اللُه العبدَ نادى جبريلَ:إن اللهَ يُحبُّ فلاناً فأحبَّهُ، فيحبُهُ جبريلُ، فينادي جبريلُ في أهل السماء إنَّ اللهَ يُحبَّ فلاناً فأحبُّوهُ فَيحبُّه أهلُ السماءِ ثم يُوضَعُ له القَبولُ في الأرض) [3].

– محبة الحق سبحانه وتعالى للعبد هي مدحه له وثناؤه عليه بالجميل مع إحسان مخصوص يلقى اللهُ العبدَ به، وحالة مخصوصة يرقيه إليها.

– أما محبة العبد لله تعالى فحالة يجدها من قلبه تلطف عن العبارة مع تعظيمه، وإيثار رضاه، وقلة الصبر عنه، والاهتياج إليه، وعدم القرار من دونه، ووجود الاستئناس بدوام ذكره له بقلبه.

---

(١) الغزالي: جزء٢ ص٢٠٣.

(٢) سورة المائدة:٥٤.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه.

كما قال أحد المحبين[1]:

لله قوم أخلصوا في حبـــــه	فاختارهم ورضي بهم خداما
قوم إذا جن الظلام عليهم	أبصرت قوماً سجداً وقيامـــا
يتلذذون بذكره في ليلهـم	ويكابدون به النهار صيامـا

- كذلك ينبغي للمحب أن يعلم أن من أرادَ أن يحبَّهُ اللهُ سعى للاتصافِ بالصفاتِ التي يحبُّها اللهُ والتي ذكرَها في القرآن الكريم، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[2]

- وقال سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا ﴾[3]

- وقال عز من قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ١٩٥﴾[4]

- وقال ﷻ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ٧٦﴾[5]

- وقال جل جلاله: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾[6]

- وقال سبحانه وتعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ١٥٩﴾[7]

---

(١) ابن الجوزي: بستان الواعظين ورياض السامعين ص٢٦٨.

(٢) سورة البقرة:٢٢٢.

(٣) سورة الصف:٤.

(٤) سورة البقرة:١٩٥.

(٥) سورة آل عمران:٧٦.

(٦) سورة آل عمران:١٤٦.

(٧) سورة آل عمران:١٥٩.

- وقال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ٤٢﴾[(١)]

- ويقولُ اللهُ تعالى في الحديث القدسي:

(وما تَقَرَّبَ إليَّ عبدي بشيءٍ أحبَّ إليَّ مما افترَضْتُ عليه وما يزالُ عبدي يتقرَّبُ إليَّ بالنوافل حتى أحبَّه فإذا أحببتُهُ كُنْتُ سَمْعُه الذي يسمَعُ به وبَصَرهُ الذي يُبصِرُ به ويَدَهُ التي يَبْطِشُ بها ورِجْلَهُ التي يمشي بها ولئِنْ سألَني لأُعطينَّهُ ولئِنْ استعاذني لأُعيذنَّهُ وما ترددْتُ عن شيء أنا فاعلُهُ تَرَدُّدِي عن نفسِ المؤمن يكرهَ الموت وأنا أكرَهُ مُسَاءَتَهُ) [(٢)].

- يا رب ليس العجبُ من حبي لك وأنا عبد فقير، ولكن العجب من حبك لي يا رب وأنت ملك قدير.

- ويجب على المحب لله ﷻ أن يبتعد عما لا يحبه الله ﷻ من صفات ذكرها في قرآنه مثل:

﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥﴾[(٣)]

- وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخۡتَالٖ فَخُورٍ ٢٣﴾[(٤)]

- وقوله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥٧﴾[(٥)]

- وعن داود وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أن الله ﷻ أوحى لهم: (أحبّني وأحبّ من يحبني وحَبِّبْني إلى خلقي، قال: يا ربّ أحبّك وأحبّ من يحبّك، فكيف أحبّبك إلى خلقك؟ فقال

---

(١) سورة المائدة:٤٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) سورة البقرة:٢٠٥.

(٤) سورة الحديد:٢٣.

(٥) سورة آل عمران:٥٧.

ﻋﺰﻭﺟﻞ: اذكرني لحسن الجميل واذكر آلائي وإحساني وذكرهم ذلك فإنهم لايعرفون مني إلا الجميل)[1].

– فالموَفَّقُ كلَّ التوفيقِ مَنْ يسعى لكسبِ محبّة الله له، فهي أعظمُ منزلة ينالها المسلمُ، لأنَّ منها هدايةَ الله وتأييدَه ونصرَه ومعونتَه.

– يا رب ارزقنا حبك وحب من يحبك وحب عمل صالح يقربنا إلى حبك.

– كيف لا أُحِبُّكَ يا ربِّ يا من أذاقَ أحباءَهُ حلاوة مؤانستِهِ فقاموا بين يديه مُتهجدين، ويا مَنْ ألبسَ أولياءَهُ ملابسَ هيبتِهِ فقاموا بحضرتِهِ مسْتغفرين.

– كيف لا أُحِبُّكَ يا ربِّ، فماذا وَجَدَ من فَقَدك ؟ وماذا فَقَدَ مَنْ وجدَك؟، لقد خابَ من رَضِيَ بسواكَ بديلاً، وخَسِرَ من بقي عنك مُتَحَوِّلاً.

– إلهي كيفَ لا أُحِبُّكَ، وكيف أرجو سواكَ وأنتَ ما قطعتَ إحسانَك عني؟ وما بَدَّلت عادَة الامتنانِ عليَّ بنعمك.

– يا رب كيف لا أُحِبُّكَ وأنت الذاكرُ قبل الذاكرينَ، وأنت البادئُ بالإحسانِ من قَبْلِ تَوجُّهِ العابدين وأنتَ الجوادُ بالعطاء من قبل طَلَبِ الطالبين، وأنت الوهابُ ثم أنتَ لما وهبتَنا من المستقرضِين.

– إلهي كيفَ لا أُحِبُّكَ وأنتَ الحبيبُ؟ وكيف أَخيْبُ وأنتَ أَملي؟ أم كيف أهانُ، وعليكَ متَّكَلِي، أم كيف أَضَلُّ وأنت دَليلي وكيفَ أَمْرَضُ وأنت طبيبي؟

– إلهي كيف لا أُحبُّكَ وأنتَ الذي نَعَّمْتَني، فلم تجدني شاكراً وابتلَيتني فلم تجدْني صابراً، فلا

(١) أبو طالب المكي: قوت القلوب ص٣١١.

أنت سَلَبْتَ النِعمة بتركِ الشُكْرِ ولا أَدَمْتَ الشِّدَةَ بتركِ الصبرِ.

- إلهي أنت الكريمُ وما يكونُ من الكريمِ إلا الكرمُ كما قال الشاعر:

يا جَميل الصُّنْعِ يا مَنْ كلَّما	دَهَمَ الأمرُ جَلا ما دَهَمَـــــا
يا غياثَ المستغيثينَ، ويـــا	ماضيَ الحُكْمِ إذا ما حَكَما
نَفّس الأمر علينا سُرعـــةً	إنَّ ذا الأَمْرَ علينا عَظُمـــــا
واستجب منا دُعانا كرماً	يا كريما أنت رَبُّ الكرُمـــــا

يا هنيئاً لكم أيها المحبون لله.

هنيئاً لكَ يا رَسول اللهِ محبتُكَ الله ومحبةُ اللهِ لكَ.

هنيئاً لكم يا صحابةَ رسول اللهِ محبتُكُمُ اللهَ ومحبةُ اللهِ لكم.

هنيئاً لكم يا أحبابَ الله محبَّتُكُم اللهَ ومحبةُ اللهِ لكم.

هنيئاً لك يا رابعةُ محبتك الله ومحبةُ اللهِ لك.

كنت عندما تنتهين من عمل الدُّنيا تتفرغين لعبادةِ اللهِ، كُنْتِ إذا جنَّ الليلُ تقولين: لقد انْشَغَل كلُّ حبيبٍ بحبيبهِ وأنت حبيبي يا اللهُ.

وحقك ما عبدتُكَ خوفاً من نارك ولا طَمَعاً في جنتِكَ ولكن عَبدتُكَ لأنَّك تستحِقُّ العِبَادَةَ.

- (دخل على رابعَة لصٌ ليسرقَها فجمَع الأمتعةَ وأراد أن يخرجَ من البابِ فلم يجدِ الباب فوضعَ المتاعَ فوجدَ البابَ فحملَ المتاعَ فلم يجدِ البابِ فسمع صوتاً يقول: أَحَبَّتْنَا فأحببناها، وانشغلَتْ

بنا فلم نَنْشَغِل عنها، أُترِكِ المتاعَ ترَ البابَ فترك المتاعَ وخرج وتابَ إلى الله ﷻ)[1].

فلنستمع إلى مناجاتها لربها لحبيبها في الليل[2]:

أُحِبُّكَ حبين، حُبَّ الهـــوى وحباً لأنَّكَ أهــلٌ لذاكـــــا

فأما الذي هو حُبُّ الهـوى فَشُغْلي بذكرِك عَمَّنْ سِواكـــا

وأما الذي أَنت أهلٌ لـــــه فَكَشْفُكَ لي الحُجْبَ حتى أَراكا

فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكـــا.

اللهم ارزُقنا هذا الحبَّ، ودُلَّنا عليه، وفرغ قلوبَنا له، ولا تَشْغَلنا عنه، يا كريم.

قال أحمد بن أبي الحواري[3]: (دخلت على أبي سليمان (وهو من الزهاد) وهو يبكي فقلت له: مِمَّ تبكي؟ فقال لي: ويحك يا أحمد، كيف لا أبكي وقد بلغني أنه إذا جن الليل وهدأت العيون، وخلا كل خليل بخليله، وافترش أهل المحبة أقدامهم بين يدي مليكهم في مناجاته ورددوا كلامه بأصوات محزونة جرت دموعهم على خدودهم وتقطرت في محاريبهم خوفاً واشتياقاً، فأشرف عليهم الجليل جل جلاله فنظر إليهم فأمدهم محبة وسرورا، فقال لهم: أحبابي والعارفين بي، اشتغلوا بي وألقوا عن قلوبكم ذكر غيري، أبشروا فإن لكم عندي الكرامة والقربة يوم تلقوني، فينادي الله جبريل: يا جبريل، بعيني من تلذذ بكلامي واستراح إلي وأناخ بفنائي، وإني لمطلع عليهم في خلواتهم أسمع أنينهم وبكاءهم، وأرى تقلبهم واجتهادهم، فناد فيهم يا جبريل: ما هذا

---

(١) انظر:محمد عطية خميس المحامي: رابعة العدوية.

(٢) أبو نعيم: حلية الأولياء.

(٣)أحمد بن أبي الحواري أبو العباس الدمشقي عبد الله بن ميمون،. صحب الداراني وغيره.كان الجنيد يقول فيه: إنه ريحانة أهل الشام . توفي سنة ٢٤٠هـــ عن اثنتين وثمانين سنة. [طبقات الأولياء]

البكاء الذي أسمع، وما هذا التضرع الذي أرى منكم؟ هل سمعتم أو أخبركم عني أحد أن حبيباً يعذب أحباءه؟ أو ما علمتم أني كريم فكيف لا أرضى؟ أيشبه كرمي أن أرد قوماً قصدوني؟ أم كيف أذل قوماً تعززوا بي؟ أم كيف أحجب غداً أقواماً آثروني على جميع خلقي وعلى أنفسهم وتنعموا بذكري؟ أم كيف يشبه رحمتي أو كيف يمكن أن أبيت قوماً تملقوا لي وقوفاً على أقدامهم، وعند البيات أخزوهم؟ أم كيف يجمل بي أن أعذب قوماً إذا جنهم الليل تملقوني، وكيفما كانوا انقطعوا إلي واستراحوا إلى ذكري وخافوا عذابي وطلبوا القربة عندي، فبي حلفت لأرفعن الوحشة عن قلوبهم، ولأكونن أنيسهم حتى يلقوني، فإذا قدموا إلي أنظر إليهم، ثم لهم عندي ما لا يعلمه غيري. يا أحمد، إن فاتني ما ذكرت لك فيحق لي أن أبكي دماً بعد الدموع. قال أحمد: فأخذت معه بالبكاء، ثم خرجت من عنده وتركته بالباب، فكنت أرى أثر ذلك عليه حتى الممات) (١).

ثانياً– محبة النبي ﷺ:

– هذا النبيُّ ﷺ الذي اختارَه الله سبحانَه وتعالى ليكونَ خاتَمَ الأنبياءِ والرسلِ ولتكونَ رسالتُهُ خاتمَةَ الرسالاتِ السماويةِ.

– إنَّهُ الرسولُ الكريمُ الرؤوفُ الرحيمُ الذي أخرجَنا اللهُ به من الظلماتِ إلى النورِ ومن الضلالَة إلى الهُدى ومن الجَهْلِ إلى العلمِ ومن الضَّعْفِ إلى القوةِ ومن الذُّلِ إلى الرفعةِ ومن الفُرقَةِ إلى الوَحدَةِ ومن النزاعِ والخصامِ إلى المحبةِ والوئامِ، حتى كُنا بهديه وتوجيهِهِ خيرَ أُمةٍ أُخرِجَت للناس.

– فليسَ بعدَ اللهِ تعالى أحدٌ أَمَنَّ علينا من رسولِنا ومحبتُهُ في الحقيقةِ شُعْبَةٌ من محبَّةِ اللهِ ﷻ. لا يمكنُ الفصلُ بينَهما فمن أحَّبَ الله فلا بد له من محبةِ رسولِهِ ومن أحبَّ الرسولَ فلا بدَّ لهُ من

(١) أبو نعيم: حلية الأولياء.

محبةِ اللهِ، قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ ﴾[1]

- والآياتُ التي تَتحَدَّثُ عن محبةِ اللهِ التي تَسْتَلزِمُ طاعَتَهُ تُؤَكِّدُ على محبةِ رسولِهِ وكذلك أحاديثُ النبي ﷺ في هذا الأمرِ.

- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : (من أطاعني فقد أطاعَ الله ومن يَعْصِني فقد عصى الله)[2].

- وقال تعالى : ﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَۖ وَمَن تَوَلَّىٰ فَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ حَفِيظٗا ﴾[3]

- وقد قال النبي ﷺ : (أحبُّوا الله لما يَغْذُوكُم به من نِعمِهِ، وأحبُّوني لِحُبِّ اللهِ إيَّايَ، وأحبوا أهلَ بيتي لحبِّي)[4].

- لذا فإن الإنسانَ لا يكونُ مُؤمناً حتى يُحِبَّ رسولَ اللهِ ﷺ بل حتى يكون حُبُهُ أَحبَّ إليه من كلِّ شيء.

- عن أنسِ بنِ مالكٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : (لا يُؤْمِنُ أحدُكُمْ حتى أكونَ أَحَبَّ إليه من ولدِهِ ووالدِهِ والناسِ أجمعين)[5].

- ويروى أن النبيَّ ﷺ كانَ آخذاً بيدِ عُمَرَ بنِ الخطابِ فقالَ له عمرُ يا رسولَ الله: (لأنتَ أَحَبُّ إليَّ من كلِّ شيء إلا من نفسِيَ)، فقال النبي ﷺ :

---

(١) سورة آل عمران: ٣١.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) سورة النساء: ٨٠.

(٤) أخرجه الترمذي في سننه عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه.

((لا والذي نَفْسي بيدِهِ حتى أكونَ أَحَبَّ إليكَ من نَفْسِكَ))، فقال له عمرُ: (فإنه الآنَ واللهِ لأنت أحبَّ إلي من نفسِي) فقال النبيُّ ﷺ: ((الآن يا عمرُ))[1].يعني: الآن كَمُلَ إيمانُك يا عمر.

- هذه المحبةُ لرسولِ اللهِ ﷺ تَظْهَرُ في كلِّ مؤمنٍ آمنَ بالله ورسولِهِ تظهر في أعمالِهِ وأقوالِهِ وأفعالِهِ، تظهرُ في دفاعِهِ عن دينِهِ ومعتقدِهِ، تَظهَرُ في العملِ بأحاديثِ النبي ﷺ والسير على سنته، تظهر في تربيته لأولاده وأهله عملاً بقول النبي ﷺ: (أَدِّبُوا أولادَكُمْ على ثلاثِ خصالٍ: حُبِّ نبيّكُمْ وحُبِّ آلِ بيتِهِ وقراءة القُرآنِ)[2].

- وَتَظْهَرُ في الشوقِ إلى زيارتِهِ والوقوفِ أمامَ حُجرتِهِ والسلامِ عليه وتظهرُ في حبِّ رؤيتِهِ في الدنيا وشفاعتِهِ في الآخرةِ، وقد ظَهَرَتْ هذه المحبةُ واضحةً عندما قامَ أحدُ الشياطينِ من الإنْسِ بتشويهِ صورةِ النبي ﷺ فهبَّ جميعُ المسلمين وفي جميع بقاعِ الأرض، هَبَّ مليارٌ ونصفٌ باستنكارِ هذا الفعلِ الشنيعِ وإظهارِ حُبِّهِم لنبيِّهم ودفاعِهم عنه ﷺ فقامَتْ الدنيا ولم تَقْعُدْ.

ولنْ تَقْعُدَ حتى يعلَم العالَمُ كلُّهُ أجمَع مقدارَ حُبِّنا لنبيِّنَا وفدائِنا له بكلِّ ما نملِكُ.

- كيف لا نكونُ ممَّن أَحَبَّ النبيَّ ﷺ والنبيُّ ﷺ يشهَدُ بمحبتِنا له ويُخْبِرُ ﷺ عن ذَلك بأنَّ أحَدنا يتمنى رؤيَتُه بكلِّ ما يملِكُ.

- عن أبي هريرةَ رضي الله عنه أنَّ رسولَ اللهِ ﷺ قال: (من أشد أمتي لي حُبّاً ناسٌ يكونون بَعْدِيَ يودُّ أحدُهُم لو رآني بأهلِهِ ومالِهِ)[3].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) أخرجه الديلمي وابن نجار في جامع الأحاديث.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

- وعن أبي هريرةَ ﷺ أن رسولَ الله ﷺ أتى المقبَرة فقال: (السلامُ عليكم دار قوم مؤمِنين وإنا إن شاء الله بكم لاحقونَ وَدِدْتُ أنَّا قد رأينا إخوانَنَا)، قالوا: (أَوَ لسنا إخوانَكَ يا رسولَ اللهِ)، قال: (أنتم أصحابي وإخوانُنا الذين لم يأتوا بَعْدُ)، فقالوا: (كيف تَعْرِفُ مَن لم يأتِ بَعْدُ مِنْ أُمَتِكَ يا رسول الله)، فقال: (أرأيْتَ لو أنَّ رجلاً له خيلٌ غرٌّ مُحَجَّلةٌ بين ظَهْرَيْ خيلٍ دهمٍ بهمٍ[1] ألا يعرِفُ خيلَه) قالوا: (بلى يا رسول اللهِ ، قال فإنهم يأتونَ غُرّاً محجَّلين[2] من الوضوءِ) [3].

- ولو سألَنَا سائِلٌ لماذا تحبون رسول اللهِ هذه المحبةَ الشَديدة فإننا نقولُ له بلسانٍ واحدٍ: إن محبتنا لرسول الله ﷺ لها كثير من الدواعي والموجبات نذكر منها:

أولاً: اللهُ ﷻ أوجبَ محبتَهُ وطاعتَهُ وقرنها بمحبتِهِ سبحانَهُ وطاعتِهِ وقد ذكرت من قبلُ من الآياتِ والأحاديثِ ما يَدلُّ على ذلك.

ثانياً: لأن الله تعالى أحبَّهُ واختارَهُ من بين خلقِهِ واصطفاهُ لرسالتِهِ الخاتمة وفضَّلَهُ على جميع مخلوقاتِهِ.

وأفضلُ الخَلْقِ على الإطلاقِ — نبيُّنا فَحُلْ عن الشِقَاقِ
محمدٌ بشرٌ وليسَ كالبشر — بل هو ياقوتَةٌ والناسُ كالحَجَرِ
وليسِ في الخلقِ من نِدٍّ يماثِلُهُ — فالأنبياءُ نجومٌ وهو كالقمـــرِ

ثالثاً: لرأفتِهِ ورحمتِهِ بأمتِهِ وحرصِهِ على هدايتِها وإنقاذِها من النارِ.

- قال تعالى: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ

(١)دهمٌ بهمٌ: السوادُ الكامل.

(٢)غر محجلين: بياضٌ في جبهة الفرس فوقَ الدرهم.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٢٨﴾[1]

- عن عبدِ الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبيَّ ﷺ تلا قولَ اللهِ ﷻ في إبراهيمَ عليه السلام ﴿رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضۡلَلۡنَ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلنَّاسِۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّيۖ وَمَنۡ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٣٦﴾[2] وقولَ عيسى عليه السلام: ﴿إِن تُعَذِّبۡهُمۡ فَإِنَّهُمۡ عِبَادُكَۖ وَإِن تَغۡفِرۡ لَهُمۡ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ١١٨﴾[3]، فرفَع يديه وقال: (اللَّهم أمتي، أمتي وبكَى)، فقال اللهُ ﷻ: (يا جبريلُ اذهبْ إلى محمد وربُّكَ أَعلَمُ فَسَلْهُ ما يُبكيك؟)، فأتاه جبريل عليه السلام فسأَلهُ: (فأخبَرهُ رسول الله ﷺ بما قال وهو أعلمُ)، فقال الله ﷻ: (يا جبريل اذهب إلى محمد فقل إنا سنُرضِيك في أمتِك ولا نسوءُكَ)[4].

وأخباره ﷺ في رحمته بأمته ورأفته أكثر من أن تحصى.

رابعاً: لأنَّ دينَهُ خيُر دينٍ وشريعتُهُ وتعاليمُهُ وتوجيهاته أحسنُ الشرائعِ.

خامساً: لعطْفِهِ وشَفَقَتِهِ على أمتِهِ فمن عطفِهِ ﷺ أنَّهُ ادَّخَرَ دعوتَهُ إلى يومِ القيامةِ لتكونَ شفاعَةً لأمته في أهم الأوقات وأحرَجِها.

- فعن أبي هريرة رضي الله عنه قالَ، قالَ رسولُ الله ﷺ: (لكلِّ نبيٍّ دعوةٌ مستجابةٌ فتَعَجَّلَ كلُّ نبيٍّ دَعوَتَهُ وإني اختبأْتُ دعوتي شفاعةً لأمتي يومَ القيامةِ فهي نائلةٌ إن شاءَ اللهُ مَنْ ماتَ من أمتي لا يُشرِكُ

---

(١) سورة التوبة:١٢٨.

(٢) سورة إبراهيم:٣٦.

(٣) سورة المائدة:١١٨.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه.

بالله شيئا) [١].

– عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: (لما رأيتُ منَ النبيِّ ﷺ طيبَ نفسٍ قُلْتُ يا رسولَ اللهِ ادعُ اللهَ لي قال: اللهمَّ اغفرْ لعائشةَ ما تقدَّمَ من ذنبِها وما تأخَّرَ وما أسرَّتْ وما أعلَنَتْ، فضَحِكَتْ عائشةُ رضي الله عنها حتى سَقَطَ رأسُها في حُجرِها من الضَّحك فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ أَيَسُرُّكِ دعائي فقالَتْ: ومالي لا يَسُرُّني دعاؤُك فقالَ ﷺ واللهِ إنها لدعوتِي لأمتي في كلِّ صلاتي) [٢].

– ينبغي للمسلم أن يتعلَّمَ الحبَّ لرسولِ الله ﷺ من الصحابةِ الكرامِ، هذا الحبُّ الذي عبَّرَ عنه سيدُنا عليٌّ كَرَّمَ اللهُ وجهَهُ عندما سُئِلَ كيفَ كان حبُّكم لرسولِ الله ﷺ فقال: (كان واللهِ أحبَّ إلينا من أموالِنا وأولادِنا وآبائِنا وأمهاتِنا ومن الماءِ الباردِ على الظَّمَأ) [٣].

– تحدَّثَ رجالٌ على عَهْدِ عُمَر رضي الله عنه، فكأَنَّهُم فضَّلوهُ على أبي بكر رضي الله عنه، قال فبلغَ ذلك عُمرَ رضي الله عنه، فقال: (واللهِ لليلةٌ من أبي بكرٍ خيرٌ من آلِ عمرَ، وليومٌ من أبي بكرٍ خيرٌ من آلِ عُمَر، لَقَد خرجَ رسولُ اللهِ ﷺ لينطلقَ إلى الغارِ ومعَهُ أبو بكر رضي الله عنه فجَعَلَ يمشي ساعةً بين يديهِ وساعةً خَلْفَهُ حَتَّى فَطِنَ له رسولُ الله ﷺ فقال يا أبا بكر: مالكَ تمشي ساعةً بين يديَّ وساعةً خلفي؟ فقالَ: يا رسولَ الله، أذكُرُ الطَّلَبَ فأمشي خلفَكَ ثم أذكُرُ الرَّصْدَ فأمشي بين يديك فقال: يا أبا بكر، لو كانَ شيءٌ أحبَبْتَ أن يكونَ بكَ دوني؟ قال: نعم، والذي بعثَكَ بالحقِّ ما كانَتْ لتكونَ من مُلِمَّةٍ إلاَّ أن تكونَ بي دونَك فلما انتهيا إلى الغارِ، قالَ أبو بكر: مكانَكَ يا رسولَ الله حتى أستبرئَ لكَ الغارَ فدخلَ واستَبْرَأَهُ، حتى إذا كان في أعلاه ذَكَرَ أنه لم يستبرئ الجِحرة[٤]،فقال:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه البزار في مسنده.

(٣)الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص١٨٨.

(٤)والجحرة: جمع جُحر وهو الحفرة التي تأوي إليها الهوامُّ وصغار الحيوان.

مكانكَ يا رسولَ الله حتى أستبرِئ الجِحرة فدخل واستبرأ ثم قال: انزلْ يا رسولَ الله، فنزل، فقال عمر: والذي نفسي بيده لتلك الليلة خيرٌ من آلِ عمر) [1].

– هذا حُبُّ الرجال فكيفَ كان حُبُّ النساءِ للرسول ﷺ ؟

– خرجَتِ امرأَةٌ من الأنصارِ عندَ عودةِ المسلمينَ من معركَةِ أُحُدٍ وقد قُتِلَ أبوها وأخوها وزوجُها في تلك المعركة وكانوا ممن شهدوا القتالَ مع رسول الله ﷺ، فقالت: ما فعل رسول الله ﷺ ، قالوا: خيراً هو محمد كما تحبين، قالت: (أَرُونيهِ حتى أنظرَ إليه، فلما رَأَتْهُ قالَتْ: (كلُّ مصيبةٍ بَعدَكَ جَلَلٌ يا رسولَ اللهِ) [2].

– وينبغي للمحب أن يعلم أن الحُبَّ هو بدايةُ الإيمانِ وهو تمامُهُ وغايتُهُ لأنه انعطافُ النفسِ إلى المحبوبِ وما تزالُ النفسُ تنعطِفُ حتى لا تكادُ تهفو إلا إلى ما يُشير بهِ المحبوبُ، قال ﷺ:

(لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به) [3].

– ومن أحبَّ رسولَ اللهِ ﷺ فعليه أن يُقيمَ على حُبِّهِ هذا دليلاً ودليلُهُ العملُ والاتِّباعُ لهديهِ، قال تعالى: ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [4]

لأن حبَّكَ للنبي ﷺ يقتضي اتباعَك له في أقوالِهِ وأفعالِهِ وفي حركاتِهِ وسكناتِهِ وفي كل أحوالِهِ.

– عن أنس رضي الله عنه عن النبيِ ﷺ أنه قالَ: (ومن أحيا سُنَّتي فقد أحبَّني) [5].

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك.

(٢) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة.

(٣) أخرجه البخاري في رفع اليدين عن عبد الله بن عمرو.

(٤) سورة آل عمران: ٣١.

(٥) أخرجه الترمذي في سننه.

- وإذا أردْتَ أن تُحْشَر معه ﷺ فعليكَ أن تحبَّه محبةً صادقةً، فقد روى أنسٌ بن مالكٍ رضي الله عنه قالَ جاءَ رجلٌ إلى رسولِ اللهِ ﷺ فقالَ يا رسولَ اللهِ متى الساعةُ؟ قالَ وما أعدَدْتَ للساعةِ قال حبَّ اللهِ ورسولِهِ قال فإنَّكَ مع من أحبَبْتَ قال أنسٌ فما فَرِحْنَا بعدَ الإسلامِ فرحاً أشدَّ من قولِ النبيِّ ﷺ فإنكَ مع من أحبَبْتَ قال أنسٌ فأنا أُحِبُّ اللهَ ورسولَهُ وأبا بكرٍ وعُمَرَ فأرجو أن أكونَ معَهم وإن لم أَعْمَلْ بأعمالِهم) (١).

- وعن عبد الله رضي الله عنه قال جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله كيف ترى في رجل أحب قوما ولما يلحق بهم قال رسول الله ﷺ : (المرء مع من أحب) (٢).

أي في الآخرةِ بل قبلَ الموتِ وعندَ الموتِ وبعد الموتِ، معهم حباً وأنساً ونعيماً فهنيئاً لكم يا أحبابَ رسولِ الله ﷺ.

- وعن عبدِ اللهِ بن زيدٍ أنه قال: (يا رسولَ اللهِ إذا مُتَّ ومُتنا كنْتَ في عليينَ لا نراك ولا نجتَمِعُ بكَ، وَذَكَر حُزنَه ،فنزل قوله تعالى:

﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾﴾ (٣)) (٤).

ثالثاً-محبة الصالحين:

- ينبغي لِمن أحب الله عز وجل وأحب رسوله ﷺ أن يحب الصالحين.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) سورة النساء:٦٩

(٤) رواه القرطبي في تفسيره.

– قال رسول الله ﷺ (أوثقُ عرى الإيمان أَنْ تُحِبَّ فِي اللهِ ، وَتُبْغِضَ فِي اللَّهِ) (1)

– الصالحونَ الذين أُمِرنَا بحبِّهِمْ، ومجاورتِهِم، أصحابُ المكانةِ العظيمةِ التي أعطاهم الله إياها.

يقرأُ المسلمُ في كلِّ ركعةٍ من رَكَعَاتِ الصلاةِ بسورةِ الفاتحةِ ويقولُ فيها:

﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧﴾ ﴾ (2)

– فالمؤمنُ يطلُبُ من اللهِ، أن يهديَهُ الصراطَ المستقيمَ، الصراطَ الذي اتَّبَعَهُ مَنْ أَنْعَمَ اللهُ عليهم وذكرَهم في قوله: ﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾ (3)

– فالدرجةُ الأولى لهؤلاء الذين أنعم الله عليهم،درجةُ الأنبياءِ ثم الصِّدِّيقينَ ثم الشهداءِ ثم الصالحينَ.

– فالصالحون هم مِنَ الذينَ أنعمَ اللهُ عليهم، وممن قالَ اللهُ عنهم:

﴿ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴾.

– والصالحون هم الذين ذكرَهم اللهُ ﷻ في كثيرٍ من آياتِهِ وهو يتحدَّثُ عن المؤمنينَ الصادقين كما في قوله سبحانَهُ:

﴿ وَٱلْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ﴿٢﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟

---

(1) أخرجه أحمد عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(2) سورة الفاتحة:٦–٧.

(3) النساء:٦٩.

﴿بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ٣﴾[1]

– ومن أعمال هؤلاء الصالحين التي مدحهم سبحانه بها ما ذكره في قولِهِ:

﴿ ۞ لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ١١٣ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ١١٤ ﴾[2]

– وقد وصفَ المحاسبيُّ[3] هؤلاءِ الصالحينَ فقالَ: (كانوا للمَسْكَنةِ مُحبِّينَ، ومن خَوفِ الفَقْرِ آمنينَ، وباللهِ تعالى في أرزاقِهم واثقينَ، وبمقادِيرِ الله عزَّ وجلَّ مسرورينَ، وفي البلاءِ راضينَ، وفي الرخاءِ شاكرينَ، وفي الضَّراءِ صابرينَ، وفي السَّراءِ حامدينَ، وكانوا لله متواضعينَ، وعلى أنفسِهم مُؤْثِرِيْنَ، وعن حبِّ العُلُوِّ و التكابُرِ ورعينَ، وكانوا إذا أقبلَتْ عليهم الدنيا حَزِنوا، وإذا أقبلَ عليهم الفقرُ قالوا: مرحباً بشِعارِ الصالحينَ)[4].

– إذاً هؤلاءِ الصالحونَ هم الذين آمنوا بربِّهم إيماناً يقينياً وأحبُّوهُ محبةً لا تَبْلُغُها محبةٌ، وأحبُّوا نبيَّهُ المصطفى ﷺ وتمسَّكوا بتعاليمِ القرآنِ الكريمِ وطبَّقوا سُنَّةَ نَبيهِ، وعملُوا الأعمالَ الصالحةَ التي أمرَ الله ﷻ بها، وأرشد إليها النبيُّ ﷺ وانْتَهَوا عما نهى عنه اللهُ ورسولُهُ عملاً بقولِ النبيِّ ﷺ:

---

(١) سورة العصر: ١-٣.

(٢)سورة آل عمران: ١١٣-١١٤.

(٣)المحاسبي الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله: من أكابر الصوفية. كان عالماً بالأصول والمعاملات، واعظا مبكياً، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم. ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد سنة (٢٤٣هـ/٨٥٧ م). وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره. [الأعلام للزركلي]

(٤)انظر المحاسبي: الوصايا.

«تركْتُ فيكم أمرينِ لن تَضِلُّوا ما تمسَّكتُمْ بهما كتابَ اللهِ وسُنَّةَ نَبيِّهِ»(١)

– ثم تَتَبَّعُوا سِيَرَ الصالحينَ وعملُوا بأعمالِهِم فسارُوا سَيْرَهُمْ، ونَهَجُوا نهجَهم، تطبيقاً وسلوكاً.

هؤلاءِ الصالحونَ لهم المكانةُ العاليةُ عندَ اللهِ عزَّ وجلَّ وعندَ الناسِ، ولقد ذَكَرَ اللهُ عزَّ وجلَّ هذه المكانةَ العاليةَ لهم في قرآنِهِ الكريمِ، في آياتٍ تجاوزتِ السبعين، نذكُرُ منها قولَهُ ﷻ:

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنۡهَا مِن ثَمَرَةٖ رِّزۡقٗا قَالُواْ هَٰذَا ٱلَّذِي رُزِقۡنَا مِن قَبۡلُۖ وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهٗاۖ وَلَهُمۡ فِيهَآ أَزۡوَٰجٞ مُّطَهَّرَةٞۖ وَهُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٢٥ ﴾(٢)

– وقالَ ﷻ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٨٢ ﴾(٣)

– وقال أيضاً سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٢٧٧ ﴾(٤)

– ويكفيهم فخراً أنهم الوارثون الحقيقيون لهذه الأرض، قال تعالى:

﴿ وَلَقَدۡ كَتَبۡنَا فِي ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعۡدِ ٱلذِّكۡرِ أَنَّ ٱلۡأَرۡضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ ٱلصَّٰلِحُونَ ١٠٥ ﴾(٥)

– ويكفِيهم فخراً أنَّ مِنْ فرائضِ الصلاةِ أن يقرأَ المصلِّي التشهُّدَ في كل صلاةٍ ويقولَ فيه بعدَ أن يُثنيَ على اللهِ سبحانَهُ وتعالى، ويصلِّي على نبيِّه ﷺ: السلامُ علينا وعلى عبادِ اللهِ الصالحينَ.

---

(١)أخرجه الإمام مالك في الموطأ.

(٢)سورة البقرة:٢٥.

(٣)سورة البقرة:٢٨.

(٤)سورة البقرة:٢٧٧.

(٥)سورة الأنبياء:١٠٥.

- ما أعظمَ أن نتحدَّثَ عن هؤلاءِ الصالحينَ، وما أَجَلَّ أن نُحِبَّهُم، وأن نسعى إلى أن نكونَ منهم أو معَهم، قالَ سفيانُ بنُ عُيَيْنَةَ[١]: (عندَ ذكرِ الصالحينَ تَنْزِلُ الرحمة) [٢].

- وقال محمدُ بنُ يونسَ[٣]: (ما رأيْتُ للقلبِ أنفعَ من ذِكْرِ الصالحينَ) [٤] .

- وقد كانَ الأئمةُ الكبارُ من السلفِ إذا ذُكِرَ الصالحون في مجلسٍ جلسوا مُتأدِّبينَ رعايةً لمقَامِهِم، ولو كانوا غائبينَ فلا أقلَّ مِنْ أَنْ نترحَّمَ عليهم ـ نحن الخَلَفَ- إن فاتَنا التأدُّبُ عندَ ذكرِهِمْ.

- قال الإمامُ المحدِّثُ الفاضلُ أبوزرعةَ[٥]: (كنْتُ عندَ أحمدَ بنِ حنبل فَذُكِرَ إبراهيمُ بنُ طهمانَ- طهمانَ- وهو من العلماءِ الفضلاءِ-وكان مُتَّكِئا من عِلَّةٍ فجلَسَ وقالَ لا ينبغي أَنْ يُذْكَرَ الصالحون فَيُتَّكَأ) [٦].

- هذا وإنَّ مجالسةَ الصالحينَ، أو سماعَ حديثِهِم، أو تلقيَ الحديثِ عنهم، أو قراءةَ مناقِبهم وفضائِلهم، لهو مما تطمئِنُّ به القلوبُ، وتنشرحُ لهُ الصدورُ، وتَصْلُحُ به الأخلاقُ والأعمالُ.

---

(١)(سفيان بن عيينة) أبو محمد: سفيان بن عيينة بن ميمون الهلالي الكوفي، محدث الحرم المكي من شيوخ البخاري.من الموالي.ولد بالكوفة، وسكن مكة وتوفي بها سنة (١٩٨ هـ /٨١٤ م).كان حافظا ثقة، واسع العلم كبير القدر. [الأعلام للزركلي]

(٢)ابن الجوزي: صفوة الصفوة.

(٣)ابن يونس: أبو حامد، محمد بن يونس بن محمد بن منعة، عماد الدين الموصلي: إمام وقته في فقه الشافعية. من أئمة الحديث، ولد بقلعة إربل ونشأ بالموصل، وتفقه ببغداد وتقدم عند نور الدين أرسلان شاه (صاحب الموصل) وسار رسولا عنه إلى بغداد مرات، وإلى الملك العادل (نور الدين) بدمشق. وولي القضاء بالموصل وانفصل عنه بعد خمسة أشهر توفي سنة (٦٠٨ هـ / ١٢١١ م). [الأعلام للزركلي]

(٤)ابن الجوزي: صفوة الصفوة.

(٥)(أبو زرعة الدمشقي): عبد الرحمن بن عمرو بن عبد الله بن صفوان النصري،: من أئمة زمانه في الحديث ورجاله.من أهل دمشق، ووفاته بها سنة (٢٨٠ هـ/ ٨٩٣ م)[الأعلام للزركلي].

(٦)تذكرة الحفاظ.

– وينبغي لكلِّ مسلمٍ أن يعلمَ أن أولَ الصالحينَ هم الأنبياءُ والمرسلون، وقد بيَّنَ اللهُ سبحانَهُ وتعالى ذلك في كثيرٍ من الآيات، وخاصةً في سورة الأنبياءِ، ثم أَجْمَلَ الحديثَ عنهم فقالَ سبحانَهُ: ﴿ وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا ۖ إِنَّهُم مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٦﴾ ﴾[١]

– لذلك وَجَبَ علينا محبةُ جميعِ الأنبياءِ والمرسلينَ دون تفريقٍ بينَ أحدٍ منهم.

– ولقد أجمعَ العلماءُ أنَّ إمامَ الأنبياءِ الصالحينَ هو نبيُّنا المصطفى ﷺ لذلك كانت محبتُنا له هي تأتي وتَلِي محبةَ اللهِ سبحانَه وتعالى.

– ويأتي بعدَها محبةُ جميعِ الصحابةِ الكرامِ فهم أفضلُ الصالحين لأنهم رَأَوْا النبيَّ ﷺ وصاحبوه، واتبعوه أحسنَ اتِّباعٍ، واكتسبوا منه العلمَ الوفيرَ، وطبَّقُوه خيرَ تطبيقٍ وشَهِدوا نزولَ الوحيِ، بالقرآن الكريم، والتشريع، فكانوا كما قالَ اللهُ تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾[٢]

– وقال الله تعالى فيهم: ﴿ وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾ ﴾[٣]

– هؤلاءِ الصحابةُ الذين ذكرَ ابنُ عباسٍ أنهم المقصودون بقوله تعالى:

﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ ﴾[٤]

---

(١)سورة الأنبياء:٨٦.

(٢)سورة آل عمران:١١٠.

(٣)سورة التوبة:١٠٠.

(٤)سورة النمل:٥٩.

فقال هم: أصحابُ محمدٍ اصطفاهم اللهُ لنبيِّهِ ﷺ.

– عن عبدِ اللهِ بنِ مُغْفِلٍ المزنيِّ ﷺ قالَ : قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «اللهَ اللهَ في أصحابي لا تتخذوهم غَرَضا من بعدي فمنْ أَحَبَّهُمْ فبِحُبِّي أحبَّهُمْ و من أبغضَهُم فبِبُغْضِي أبغضَهُمْ و من آذاهُم فقد آذاني و من آذاني فقد آذى اللهَ ومن آذى اللهَ يُوشِكُ أن يأخذَهُ»[1].

– قال أبو زرعةَ الرازيُّ[2] رحمَهُ الله: تُوفِّيَ النبيُّ ﷺ ومن رآه وسمعَ منه زيادةٌ على مئةِ ألفِ إنسانٍ من رجلٍ وامرأةٍ، كلُّهم قد روى عنه سماعاً أو رؤية، ومن المعروفِ أنَّ بعضَ هؤلاءِ من السابقينَ إلى الإسلامِ، وبعضَهُمْ من المهاجرينَ، وهناكَ الأنصارُ، وهناكَ الأطفالُ الذين وُلِدُوا في عهدِهِ ورَأَوْهُ ﷺ، وهناكَ الأعرابُ وأهلُ الباديةِ الذينَ حضروا حِجَّةَ الوداعِ وهم كثيرون جداً.

– قالَ المحدِّثُ ابنُ حَجَرٍ رحمَهُ اللهُ: ومعَ ذلك فلم يَحْصُلْ لنا من ذلكَ جميعاً الوقوفُ على العُشْرِ من أسامي الصحابةِ حيثُ لم تُضْبَطْ أسماؤُهم لكثرةِ من ماتَ في خلافةِ أبي بكرٍ في حروبِ الردةِ، والفتوحاتِ، ثم من ماتَ في خلافةِ عمرَ في الفتوحاتِ والطاعونِ.

– وذهبَ جمهورُ المسلمينَ إلى أنَّ أفضلَ الصحابةِ على الإطلاقِ: أبو بكرٍ، ثم عمرُ، ثم عثمانُ، ثم عليٌّ، ثم تمامُ العشرةِ المبشرينِ بالجنةِ، وهم: أبو عبيدةَ بنُ الجراحِ، وعبدُ الرحمنِ بنُ عوفٍ، وطلحةُ بنُ عبيدِ اللهِ، والزبيرُ بنُ العوامِ، وسعيدُ بنُ زيدٍ، وسَعْدُ بنُ أبي وقَّاصٍ. وهؤلاءِ جميعاً من الذينَ سَبَقُوا في الإيمانِ وتحمَّلُوا المشاقَّ في الدفاعِ عن الإسلامِ، وصَدَقُوا اللهَ ورسولَهُ، ثم أهلُ بدرٍ، ثم أهلُ أُحُدٍ ، ثم أهلُ بيعةِ الرضوانِ، ثم بقيةُ الصحابةِ الكرامِ.

---

(١)أخرجه البيهقي في شعبه.

(٢)أبو زرعة الرازي: عبيد الله بن عبد الكريم بن يزيد بن فروخ المخزومي بالولاء، من حفاظ الحديث. من أهل الري. زار بغداد، وحدث بها، وجالس أحمد بن حنبل. كان يحفظ مئة ألف حديث توفي سنة (٢٦٤ هـ / ٨٧٨ م). [الأعلام للزركلي]

– ولقد أرشدَنا النبيُّ ﷺ إلى مكانةِ هؤلاءِ الصحابةِ بقولِهِ:« فعليكم بسُنتي وسنةِ الخلفاءِ الراشدينَ المهديينَ عَضُّوْا عليها بالنواجذِ»[1] .

– عن عبدِ اللهِ بنِ عمرَ ﵄ قال: (من كانَ مُسْتَنّاً فلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قدْ ماتَ أولئكَ أصحابُ محمَّدٍ ﷺ كانوا خيرَ هذهِ الأمةِ أَبَرَّها قلوبا وأعمقَها عِلْمَاً وأقلَّها تكلُّفا قومٌ اختارَهم اللهُ لصُحبةِ نبيِّهِ ﷺ ونَقْلِ دينِهِ فتشبَّهوا بأخلاقِهم وطرائِقهم فهم أصحابُ محمدٍ ﷺ كانوا على الهدى المستقيم)[2] .

– قال عبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ ﵁: (أنتم أكثرُ صلاةً و أكثرُ صياماً من أصحابِ محمدٍ ﷺ و هم كانوا خيراً منكم قالوا: و بِمَ ؟ قال: كانوا أزهدَ منكم في الدنيا و أرغَبَ منكم في الآخرةِ)[3] .

– ويأتي بعدَ الصحابةِ في الفضلِ والصلاحِ، التابعونَ لهم، ثُمَّ مَنْ تَبِعَهُمْ كما قالَ ﷺ:« خير أمتي القرن الذين يلوني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم»[4] .

– ثم يأتي من بعدِهِمْ في الصلاحِ والخيريةِ من تَبِعَهُمْ إلى يوم الدينِ من أهلِ العلمِ والذكرِ والتقوى والصلاحِ.

– لذلك ينبغي لكلِّ مسلمٍ أن يُحِبَّ كلَّ أولئك الصالحينَ فمحبتُهُمْ واجبةٌ. وفي هذا يقولُ سيدنا عمرُ بنُ الخطاب ﵁: (لولا ثلاثٌ في الدنيا لما أحْبَبْتُ البقاءَ فيها، لولا أَنْ أَحْمِلَ أو أُجَهِّزَ جيشاً في سبيلِ اللهِ، وثانيها، لولا مكابدةُ هذا الليلِ– قيامُ الليلِ والعبادةُ فيهِ لتحصيلِ

---

(١)أخرجه الترمذي.

(٢)أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء.

(٣)أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء.

(٤)أخرجه مسلم في صحيحه.

مافيه من جزيلِ الثوابِ-، وثالثها، لولا مجالسةُ أقوامٍ يَنْتَقُوْنَ أطايب الكلامِ كما يُنتقى أطايبُ التمرِ)[1] .

- ولقد كان كبار الصالحين يَسْعَوْنَ للاجتماعِ بالصالحينَ ورؤيتِهِمْ، والاستماعِ إليهم ليزدادُوا صلاحاً وحباً لله ورسولِهِ وأهلِ الصلاحِ، وكانَ لذلك تأثيرٌ كبيرٌ في تعميق إيمانِهِمْ وحبِّهم وفي صلاحِ أعمالِهِم، وفي ذلك يقولُ الشافعيُّ[2]:

أُحِبُّ الصالِحينَ وَلَستُ مِنهُم ... لَعَلّي أَن أَنالَ بِهِم شَفاعَـــهْ

وَأَكرَهُ مَن تِجارَتُهُ المعاصــــي ... وَلَو كُنّا سَواءً في البِضاعَـــهْ

- قالَ أشعثُ بنُ عبدِ اللهِ[3]: (كنا إذا دخلْنا على الحسنِ البصريِّ- وهو من التابعين- خرجْنَا ولا نَعُدُّ الدنيا شيئاً) [4].

- وقالَ يونسُ بنُ عبيدٍ[5]: (كانَ الرجلُ إذا نظرَ إلى الحسنِ البصريِّ انتفعَ به وإن لم يرَ عَملَهُ ولم يَسْمَعْ كلامَهُ) [6].

---

(١)ابن قيم الجوزية: مفتاح السعادة ومنشور ولاية العلم والإرادة ص١٢٠.

(٢)أحمد قبش: مجمع الحكم والأمثال، باب التقوى.

(٣)أشعث بن عبد الله: ابن جابر الأزدي ثم الحداني، البصري، الأعمى. وهو الذي يقال له أشعث البصري، وأشعث الأعمى، وأشعث الأزدي، وأشعث الحملي من رواة الحديث روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه، وذلك في سنن أبي داود. [الذهبي: سير أعلام النبلاء]

(٤)أبو نعيم: حلية الأولياء.

(٥)يونس بن عبيد: أبو عبد الله أو أبو عبيد يونس بن عبيد بن دينار العبدي بالولاء، البصري، من حفاظ الحديث الثقات.من أصحاب الحسن البصري.كان من أهل البصرة..ونعته الذهبي بأحد أعلام الهدى.له نحو مئتي حديث توفي سنة (١٣٩ هـ / ٧٥٦ م). [الأعلام للزركلي]

(٦)ابن كثير: البداية والنهاية.

ودليل ذلك جوابُ النبيِّ ﷺ وقد سُئِلَ أيُّ جلسائِنا خيرٌ، فقالَ: مَنْ ذَكَّرَكُمْ اللهَ رؤيتُهُ، وزادَ في علمِكُمْ مَنْطِقُهُ، وذَكَّرَكُمْ الآخرةَ عملُهُ[1] .

– وعن أنسٍ رضي الله عنه قالَ: قالَ ﷺ: « إنَّ من الناسِ مفاتيحَ لذكْرِ اللهِ، إذا رُؤُوْا ذُكِرَ اللهُ »[2].

فمن الواجبِ على كلِّ مؤمنٍ أَنْ يُحِبَّ هؤلاءِ الصالحينَ، فمحبتُهُمْ سعادةٌ في الدنيا والآخرةِ.

– عن معاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنه قالَ: سمِعْتُ رسولَ اللهِ ﷺ يقولُ:« قالَ اللهُ عز وجل: المتحابُّون في جَلالي لهم منابرُ مِنْ نورٍ يَغْبِطُهُمُ النبيونَ والشهداءُ »[3]

– يقولُ الله تباركَ وتعالى: (وجبَتْ محبَّتي للمتحابِّينَ فِيَّ والمتجالسين فِيَّ والمتزاوِريْنَ فِيَّ، والمتباذِلِيْنَ فِيَّ) [4].

اللهم اجعلْنا منهم ومِنَ الصالحين الذين تحبُّهم، واجعلْنا من أحبابِهِمْ.

– **أخيراً**: ينبغي لكل منّا أن يحبّ الصالحينَ، وأن يسعى لِأَنْ يكونَ معَهُمْ ومنهم، والطريق للوصولِ إلى ذلك، هو الإيمانُ الحقُّ باللهِ تعالى، والأعمالُ الصالحةُ التي يكون فيها القربى منه جلَّ وعلا، فينطبق علينا قولُ ربِّنا: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدۡخِلَنَّهُمۡ فِي ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٩﴾[5]

ونردِّدُ قولَ نبيِّ اللهِ سليمانَ الذي وردَ في القرآن الكريم :

(١)أخرجه أبو يعلى من حديث ابن عباس.

(٢)أخرجه ابن حبان.

(٣)أخرجه الترمذي وقال حديث صحيح.

(٤)أخرجه مالك في الموطأ بإسناد صحيح.

(٥)سورة العنكبوت:٩.

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٩﴾[1]

– وعندَ ذلك ينطبقُ علينا قولُ ربِّنا تبارك وتعالى:

﴿وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِي رَحْمَتِنَآ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٦﴾[2]

– ومعَ سعْيِنا لذلك تعالَوْا نردِّد الدعاءَ وهو مما عَلَّمَنا الله في قرآنِهِ:

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْأٓخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾[3]

– وينبغي للمحب للصالحين أن يردد قولَهُ سبحانَهُ:

﴿رَبِّ هَبْ لِي حُكْمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝٨٣﴾[4]

– وما أجمل أن نردد دعاء داود عليه السلام: (اللَّهُمَّ إني أسألك حبَّكَ و حبَّ من يُحِبُكَ والعملَ الذي يبلغني حبك ، اللهم اجعل حُبَّك أحبَّ إلي من نفسي و أهلي من الماء البارد)[5].

اللهم اجعلنا من الصالحين، واجمعنا معهم، وارزقنا محبتهم.

(١)سورة النمل:١٩.

(٢)سورة الأنبياء:٨٦.

(٣)سورة يوسف:١٠١.

(٤)سورة الشعراء:٨٣.

(٥)أخرجه الترمذي والحاكم.

رابعاً– مقام التقوى

– مقام التقوى مقام عظيم فقد ذكر الله التقوى في قرآنه مع اشتقاقاتها (٢٦٩ مرة) وإذا اجتمعت التقوى مع الإيمان تحققت الولاية لله ﷻ، قال تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ۝٦٣﴾[١]

– والتقوى كلمة جامعة شاملة وهي –وإن قل لفظها– كثيرة المعنى شاملة لخيري الدارين.

– **والتقوى لغة:** من الاتقاء، وهو طلب السلامة بما يحجز عن المخافة.

– **والتقوى معناها في الأصل:** جعل النفس في وقاية مما تخاف.

– **واتقى الله:** خاف عقابه فتجنب ما يكره.

– **وتقوى الله:** خشيته وامتثال أوامره واجتناب نواهيه.

– **والتقوى في اصطلاح الشرع والعقل:** حفظ النفس عما يشينها ويعرضها للملامة أو العذاب، وذلك بترك أسباب السخط والعقوبة، وفعل الفرائض المنجية المؤدية إلى النعيم والثواب.

– **وأصل التقوى:** اتقاء الشرك، ثم بعد ذلك اتقاء المعاصي والسيئات، ثم بعد ذلك اتقاء الشبهات، ثم بعد ذلك ترك الفضلات، ومع كل ذلك الالتزام بالفرائض والواجبات، والأوامر والطاعات.

– وقد عرف الصحابة والتابعون، والعلماء التقوى بتعاريف كثيرة منها:

– قال رجل لأبي هريرة ﷺ: ما التقوى؟ قال: « أخذت طريقا ذا شوك؟ قال: نعم، قال: فكيف صنعت؟ قال: إذا رأيت الشوك عدلت عنه أو جاوزته أو قصرت عنه، قال: ذاك التقوى»[٢].

---

(١) سورة يونس: ٦٢ – ٦٣.

(٢)البيهقي في الزهد الكبير.

أيْ أنَّ التقوى تشميرٌ لأداءِ الطاعاتِ وحَذَرٌ من المعاصي والسيئاتِ.

نعم التقوى: إحساسٌ في الضميرِ، وخشيةٌ مستمرةٌ، وتشميرٌ واجتهادٌ، واستعدادٌ ليوم المعادِ.

– التقيُّ يعملُ بقولِ سيدِنا عليٍّ ﷺ :(التقوى هي: الخوفُ من الجليلِ، والعملُ بالتنزيلِ، والقناعة بالقليلِ، والاستعدادُ ليومِ الرحيلِ) [١].

– حقيقةُ المتقي ليسَتْ بالمظاهرِ وإنما هيَ بالحقائقِ كما قالَ عمرُ بنُ عبدِ العزيزﷺ:

(ليس تقوى اللهِ بصيامِ النهارِ ولا بقيامِ الليلِ والتخليطِ فيما بين ذلك ، ولكنَّ تقوى اللهِ تركُ ما حرَّمَ اللهُ، وأداءُ ما افترضَ اللهُ، فَمَنْ رُزِقَ بعدَ ذلك خيراً فهو خيرٌ إلى خيرٍ) [٢].

– حقيقةُ المتقي أن يكون ظاهرُهُ وباطنُهُ سواءً كما قيلَ: لا يَبْلُغُ الرجلُ سَنَامَ التقوى إلا أن يكونَ بحيث لو جُعِلَ ما في قلبِهِ في طَبَقٍ، فَطِيْفَ به في السوقِ لم يَسْتَحِ منه.

– وهذا يتفِقُ معَ ما قالَهُ أهلُ التقوى: (أنْ لا يراكَ اللهُ حيثُ نهاك ، وأن لا يَفْقِدَكَ حيثُ أمركَ)[٣].

– ومعَ قولِهِمْ : التقوى اتقاءُ عذابِ اللهِ بصالحِ العملِ، والخشيةُ منه في السرِّ والعَلَنِ.

– وفي هذا يقولُ ابن المعتزِ[٤] :

خلِّ الذنوبَ صغيرَهــا وكبيرَها ذاك التُّقَــــى

---

(١)النووي: الأربعين النووية.

(٢)البيهقي في الزهد الكبير.

(٣)تفسير الآلوسي وفي ابن كثير: البداية والنهاية.

(٤)الراغب الأصفهاني: محاضرات الأدباء جزء١ ص٤٨٩.

واصنعْ كماشٍ فوقَ أر ضِ الشَّوْكِ يَحْذَرُ ما يرى

لا تَحقِرَنَّ صغيـــــرةً إن الجبالَ من الحَصَـــى

– التقيُّ فرِحٌ بأنه أصبح من أولياءِ اللهِ الذينَ يتولاهم اللهُ بفضلِهِ وعنايتِهِ لقولِهِ سبحانَهُ:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾(١)

– التقيُّ فرِحٌ بما سينالُهُ من العِلْمِ اللدنيِّ والتوفيقِ الإلهيِّ لقولِهِ سبحانَهُ:

﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾﴾(٢)

– التقيُّ في حالةِ سرورٍ دائمٍ لأنه يَشْعُرُ بأنَّ اللهَ معَهُ بالعَوْنِ والتأييدِ والنصرِ يردِّدُ دائما قولَهُ سبحانَهُ: ﴿ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩٤﴾﴾(٣)

– فَمَنْ كانَ اللهُ معَهُ ، كان معَهُ كلُّ شيءٍ ، ومنْ لم يكنِ اللهُ معَهُ فَقَدَ كلَّ شيءٍ، المتقي يُخَاطِبُ اللهَ بقولِهِ: إلهي ماذا فَقَدَ من وجدَكَ ! إلهي ماذا وجَدَ من فَقَدَكَ! ، المتقي يفرحُ بحبِّ اللهِ له لقولِهِ سبحانَهُ: ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾﴾(٤)

---

(١) سورة يونس: ٦٢ — ٦٣.

(٢) سورة البقرة ٢٨٢.

(٣) سورة البقرة ١٩٤.

(٤) سورة آل عمران: ٧٦.

- المتقي واثقٌ بقبولِ اللهِ أعمالَهُ لقولِهِ سبحانَهُ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾[1]

- المتقي مطمئِنٌ بتكفيرِ اللهِ لسيئاتِهِ وتعظِيمِ أجرِهِ لأنه يقرأُ دائما قولَهُ سبحانه:

﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعْظِمْ لَهُۥٓ أَجْرًا ﴿٥﴾﴾[2]

- المتقي يسيرُ واثقَ الخُطا في هذه الحياةِ ، لأنه يعرِفُ أنَّ اللهَ سيرشِدُهُ إلى الطريقِ الصحيحِ المستقيمِ لقوله سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٩﴾﴾[3]

- المتقي لا يخافُ من الأزماتِ والعقباتِ التي تواجهُهُ ولا من أن تُغْلَقَ أبوابُ الأرزاقِ في وجهِهِ لأنه على ثقةٍ بقولِهِ سبحانَهُ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَـٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا ﴿٣﴾﴾[4]

- المتقي فرحٌ بكلِّ ما ينالُهُ في الدنيا وهو على يقينٍ بتكريم اللهِ له وتفضُّلِهِ عليه في الآخرةِ لأن تقواه في الدنيا سببٌ لنجاتِهِ من النارِ في الآخرةِ، قال تعالى: ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّنَذَرُ ٱلظَّـٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾﴾[5]

---

(١) سورة المائدة:٢٧.

(٢) سورة الطلاق:٥

(٣) سورة الأنفال:٢٩.

(٤) سورة الطلاق:٢-٣.

(٥) سورة مريم:٧١-٧٢.

- والتقي يَأْمُلُ أن يصيرَ إلى المكانةِ العاليةِ والمنزلةِ الرفيعةِ في الجنة التي وعَدَهُ الله إياها بقوله سبحانه: ﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى جَنَّٰتٍ وَنَهَرٍ ﴿٥٤﴾ فِى مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍۭ ﴿٥٥﴾ ﴾[1]

- وقوله سبحانه: ﴿ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ ﴾[2]

- وقوله ﷻ: ﴿ ۞ وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ﴾[3]

- وقوله سبحانه: ﴿ تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا ﴿٦٣﴾ ﴾[4]

- هذه نتائجُ التقوى التي وصّانا بها الله ﷻ وأمرنا بملازمتها فقال:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[5]

- وقال سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾[6]

- وقال جل جلاله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾ ﴾[7]

---

(١) سورة القمر: ٥٤-٥٥.

(٢) سورة ق: ٣١.

(٣) سورة آل عمران: ١٣٢.

(٤) سورة مريم: ٦٣.

(٥) سورة آل عمران: ١٠٢

(٦) سورة النساء: ١٣١.

(٧) سورة الحشر: ١٨.

- كذلك النبي ﷺ كان يكثر من الوصية بالتقوى، عن أبي سعيدٍ الخدريِّ رضي الله عنه قالَ: جاءَ رجلٌ إلى النبيَّ ﷺ فقالَ يا نبيَّ اللهِ أوصني فقال:«عليكَ بتقوى اللهِ فإنها جِماعُ كلِّ خيرٍ»(١).

- وعن أبي ذرٍ ومعاذِ بنِ جبلٍ رضي الله عنهما أن رسولِ اللهِ ﷺ قالَ:

«اتقِ اللهَ حيثما كنْتَ وأَتْبعِ السيئةَ الحسنةَ تَمْحُهَا، وخالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حسنٍ»(٢).

- ولقد كانَ كثيرٌ من الصحابةِ رضيَ اللهُ عنهم يسألون رسولَ الله ﷺ الوصيةَ فكانَ جلُّ وصاياه لهم تقوى الله عز وجل. قالَ أبو ذرٍ: قلْتُ يا رسول الله أَوْصِنِي قالَ رسولُ الله ﷺ:

«أوصيْكَ بتقوى اللهِ فإنها رأسُ الأَمْرِ كلِّه»(٣).

- ولقد بَيَّنَ النبيُّ ﷺ مكانةَ المتقين فقال:«إنَّ أولى الناسِ بي المتقونَ مَنْ كانوا وحيْثُ كانوا »(٤).

»(٤).

- وعلَّمَنا النبيُّ ﷺ أن نطلُبَ التقوى في دعائِنا فقالَ:«اللهمَّ إني أسألُكَ الهُدَى والتُّقَى والعفافَ والغنى »(٥).

---

(١)أخرجه أبو يعلى في مسنده والطبراني في الصغير.

(٢) أخرجه الترمذي وقال حديث حسن صحيح.

(٣) أخرجه ابن حبان.

(٤) أخرجه أحمد وهو حديث صحيح.

(٥) أخرجه مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

- ولم يَزَل الصحابةُ والتابعونَ والسلفُ الصالحُ جميعاً يتواصَوْن بالتقوى في كلِّ أعمالِهِمْ وأحوالهم وأمورِهِمْ، فهذا سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ كان يقول في أكثر خطبه: (أما بعد فإني أوصيكم بتقوى الله....) [1].

- ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر ﷺ دعاه ووصاه بوصية، وأول ما قال له: (اتقِ الله يا عمر)[2].

- وكتب سيدنا عمر إلى ابنه عبد الله رضي الله عنهما: (أما بعد فإني أوصيك بتقوى الله، فإنه من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكر زاده، ولتكن التقوى نصب عينيك وعماد عملك وجلاء قلبك، فإنه لا عمل لمن لا نية له، ولا أجر لمن لا حسبة[3] له، ولا مال لمن لا رفق له، ولا جديد لمن لا خلق[4] له) [5].

- قال كتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل: (أوصيك بتقوى الله الذي لا يقبل غيرها ولا يرحم إلا أهلها ولا يثيب إلا عليها فان الواعظين بها كثير والعاملين بها قليل) [6].

- قد يقولُ قائلٌ إذا كانت التقوى بهذه المنزلةِ في الإسلامِ فهي صفةٌ لابدَّ منها للمؤمنِ لينالَ رضاءَ اللهِ ورضوانَهُ ويُحقِّقَ السعادةَ في الدارين.فكيفَ نكونُ من المؤمنينَ الحقيقيين؟ ألا تَصِفُ لنا

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة والحاكم.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة وابن المبارك وأبو نعيم.

(٣)الحسبة: الحساب و يقال فلان حسن الحسبة في الأمر يحسن تدبيره، وفعله حسبة مدخراً أجره عند الله [المعجم الوسيط] يعني لا أجر لمن لم يحتسب ثواب عمله عند الله ﷻ.

(٤) الخَلَق: الثوب البالي.

(٥)أخرجه ابن أبي الدنيا في التقوى في جامع الأحاديث.

(٦) أخرجه أبو نعيم في حلية الأولياء.

أعمالَ التقي، أقول : المتقي من يحافظُ على جميعِ الطاعاتِ على أحسنِ وجهٍ ويعملُ بأوامرِ اللهِ على أفضلِ صورةٍ ويبتعدُ عن المعاصي ولو صَغُرَتْ وعمَّا نهى اللهُ عنه في السرِّ والعَلَنِ.

– المتقي مخلصٌ في أقوالِهِ وأعمالِهِ ونيَّاتِهِ مُبتعدٌ عن الرياءِ في جميعِ أشكالِهِ.

– المتقي يُداوم على قراءةِ القرآنِ وحفظِهِ، وعلى ذكْرِ اللهِ في كلِّ أحوالِهِ مُبتعداً عن الغَفَلات والمِلْهياتِ ، المتقي يسعى إلى عالمٍ مُرَبٍّ يجلِسُ بين يديه ليتربَّى على يديه ويرشدَهُ إلى الطريقِ المستقيمِ ويُعَرِّفَهُ بالمنهجِ السليمِ.

– المتقي بارٌّ بوالديه واصلٌ لأرحامِهِ مُبتعدٌ عن العقوق والقطيعةِ .

– المتقي عارفٌ لواجباتِهِ مُؤَدٍّ حقوقَ الآخرينَ يتعاونُ معَهم على البرِّ والتقوى مبتعدٌ عن النفاقِ والفسوقِ لا يَحْسُدُ ولا يَحْقِدُ ولا يخونُ ولا يكْذِبُ ولا يستغيبُ ولا يهزأُ ولا يَسْخَرُ من الآخَرِينَ أبداً.

– المتقي يَغُضُّ بصرَهُ عن الحرامِ ويحفَظُ القلبَ واللسانَ ويبتعدُ عن أهلِ الخَنَى والعِصيانِ .

– المتقي مُتَمَسِّكٌ بالحَلَالِ مهما كانَ صعْبَ المنالِ شعاره: مهما قَلَّ الحلالُ فالبركةُ فيه ، مبتعدٌ عن الحرامِ مهما كانَ سهلَ المنالِ شعاره: أما الحرامُ فالمماتُ دونَهُ.

– المتقي هو الذي يطلُبُ الحلالَ ويبتعِدُ عن الحرام واضعاً نُصْبَ عينيه قولَ النبيِّ ﷺ:

«طلبُ الحَلالِ واجبٌ على كلِّ مسلمٍ »[١].

– لا يَغيبُ عنه قولُ النبيِّ ﷺ: « من اشترى ثوباً بعشَرَةِ دراهمَ وفيها درهمٌ واحدٌ من حَرامٍ لم يقبلِ الله له من صلاةٍ ما دامَ عليه»[٢].

---

(١) أخرجه الطبراني بإسناد حسن.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده.

– تراه خائفاً من أنْ ينطبقَ عليه قولُ النبيِّ ﷺ: «يأتي على الناسِ زمانٌ لا يبالي المرءُ ما أَخَذَ أَمِنَ الحلالِ أم مِنَ الحرامِ، فإذْ ذاكَ لا تُجَابُ لهم دعوةٌ»(١) .

– سألَ سعدٌ ﷺ رسولَ اللهِ ﷺ أن يكونَ مُجابَ الدعوةِ فقالَ لهُ ﷺ :

« يا سعدُ أَطِبْ مَطْعَمَكَ(٢)تكنْ مُستجابَ الدعوةِ والذي نفسي بيدِهِ إنَّ العبدَ ليقذِفُ اللقمةَ الحرامَ في جوفِهِ ما يُتَقَبَّلُ منه عملُ أربعينَ يوما وأيُّمَا عبدٍ نبتَ لحمُهُ من سحْتٍ فالنارُ أولى به»(٣).

– المتقي يسعى إلى أن يصلَ إلى أعلى مستوى من التقوى وهو ما يُسمَّى بالورِعِ، والورعُ هو أن يجتنِبَ المسلمُ الشبهاتِ خوفاً من الوقوع في الحرمات، وأن لا يُسْرِفَ في المباحاتِ تطبيقاً لقولِ النبيِّ ﷺ: « إن الرجل لا يكون من المتقين حتى يَدَعَ ما لا بأسَ به، حَذَرَاً مما بهِ بأسٌ »(٤).

– قال رسول الله ﷺ لأبي هريرةَ ﷺ: « كنْ وَرِعَاً تكنْ أَعْبَدَ الناسِ »(٥) .

ويُعَبِّرُ عن ذلك أحد الصحابة ﷺ فيقولُ :(كنا نَدَعُ سبعينَ باباً من الحلالِ مخافةَ أن نقعَ في باب من الحرامِ)(٦).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٢) أي اجعل طعامَكَ حَلالاً.

(٣) أخرجه الطبراني الأوسط.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك.

(٥) أخرجه ابن ماجه والبيهقي.

(٦) ابن قيم الجوزية: مدارج السالكين جزء ص٢٢.

- وعبَّرَ سيدُنا عمرُ ﵁ عن ذلك فقالَ: (كنا نَدَعُ تسعَة أعشارِ الحلالِ مخافةَ أن نقعَ في الحرام)[1].

- وقالَ رسول الله ﷺ: (لو صليتم حتى تكونوا كالحنايا وصمتم حتى تكونوا كالأوتار ثم كان الاثنان أحب إليكم من الواحد لم تَبْلُغوا الاستقامة)[2].

- (وهذا حسانُ بنُ أبي سنانٍ[3] كان لا ينامُ مضطجعا حتى لا يفوتَه التهجدُ، رُئي في المنامِ بعدَ موتِهِ، فقيلَ له : ما فَعَلَ اللهُ بكَ ؟ فقالَ: خيراً إلا أني محبوسٌ عن الجنة بإبرةٍ استعرْتُهَا فلم أردَّها.

ورُئِيَ عُتبةُ الغلامُ[4] وهو من كبارِ الصالحينَ في مكانٍ يتصبَّبُ عرَقاً في الشتاءِ فقيل له في ذلك، فقالَ : (إنه مكان عصيْتُ اللهَ فيه فَسُئِلَ عنه فقالَ: كَشَطْتُ من هذا الجدارِ قطعةَ طينٍ غَسَلَ بها ضيفٌ لي يدَهُ ولم أسْتَحِلَّ من صاحبِهِ.

- ورَجَعَ ابنُ المباركِ من مَرْوَ إلى الشامِ ليردَّ قلماً استعارَهُ من صاحبِهِ)[5].

- وحُكِيَ عن بعضِهم أنه كانَ حينما يريدُ الخروجَ صباحا لطلبِ الرزقِ يتعلَّقُ به أهلُهُ وبنوه يقولون: (نَنْشُدُكَ اللهَ لا تُدْخِلْ علينا شيئاً من الحرامِ، فإنا نصبرُ على الفقرِ ولا نصبِرُ على النارِ).

- هذه هي التقوى في أعلى مراتبها ، فما أحلى أن نتزودَ بها قال تعالى:

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه.

(٢) أخرجه ابن عساكر والديلمي في جامع الأحاديث عن عمر ﵁.

(٣) ابن أبي سنان: حسان بن أبي سنان بن أبي أوفى عوف التنوخي مترجم، كان يكتب بالعربية والفارسية والسريانية.من أهل الأنبار.كان نصرانياً وأسلم. ورأى أنس بن مالك ﵁، وأدرك الدولتين الأموية والعباسية توفي سنة (١٨٠ هـ / ٧٩٦ م). [الأعلام للزركلي]

(٤)هو عتبة الغلام الزاهد الخاشع الخائف، عتبة بن أبان البصري، كان يشبه في حزنه بالحسن البصري [ابن [ابن الجوزي: صفة الصفوة]

(٥) الرسالة القشيرية: ص١١٣-١١٤.

﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰۖ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٧﴾﴾(١)

– هذه التقوى التي عَّدها الله ﷻ خيرَ لباسٍ يرتديه الإنسانُ، قال تعالى:

﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾﴾(٢)

– لقد وصفَ اللهُ عبادهُ عبادَ الرحمن وهم يدعونه بقوله:

﴿وَٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَٰجِنَا وَذُرِّيَّٰتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾(٣)

– قالَ نافعٌ: (خرجْتُ معَ ابنِ عمَر رضي الله عنهما إلى بعضِ نواحي المدينة ، فوضعنا سُفرةً فمر بنا راعٍ، فقالَ له عبدُ اللهِ هَلُمَّ يا راعي فقالَ إني صائمٌ ، فقالَ: في مثلِ هذا اليومِ الشديدِ حَرُّهُ في هذا الشِّعْبِ؟ قالَ: أُبَادِرُ أيامي أصومُ في حَرِّ هذا اليومِ مخافَةَ حَرِّ يومِ القيامةِ ، فقالَ له عبدُ اللهِ رضي الله عنه هل لك أن تبيعَنا شاةً ونُعْطِيَكَ من لحمِها ما تُفْطِرُ عليه ؟ قالَ الراعي: إنها لمولاي فقالَ عبدُ الله ممتحِناً له فما عسى أن يصنعَ مولاك إن قلْت أكلَها الذئبُ ؟ فمضى الراعي وهو يرفع إِصْبَعَهُ إلى السماءِ ويقولُ بصوتٍ ملأَ أركانَ الصحراءِ: فأينَ اللهُ ؟ فأينَ اللهُ ؟ فأينَ اللهُ ؟ فلم يَزَلْ ابنُ عمرَ يقولُ وهو يبكي فأينَ الله فأين الله ثُمَّ بعثَ إلى سيِّدِ العبدِ فاشتراهُ منه واشترى الغنمَ فأعتقَ الراعيَ ووهبَهُ الغنمَ) (٤).

---

(١) سورة البقرة:١٩٧.

(٢) سورة الأعراف:٢٦.

(٣) سورة الفرقان:٧٤

(٤)الطبراني: أحسن المحاسن ص١٨٦.

وقال إبراهيم بن أدهم: (بت ليلة تحت الصخرة ببيت المقدس؛ فلما كان بعض الليل نزل ملكان، فقال أحدهما لصاحبه: من هاهنا؟ فقال الآخر: إبراهيم بن أدهم.

فقال: ذاك الذي حط اللهُ سبحانه درجة من درجاته.

فقال: لمِ؟ قال: لأنه اشترى بالبصرة تمراً، فوقعت تمرةٌ على تَمْرِهِ من تَمْرِ البقالِ، فلم يردها على صاحبها.

قال إبراهيم: فمضيت إلى البصرة، واشتريت التمر من ذلك الرجل، وأوقعتُ تمرةً على تَمْرِهِ، ورجعت إلى بيت المقدس، وبت تحت الصخرة.

فلما كان بعض الليل، إذ أنا بملكين نزلا من السماء.

فقال أحدهما لصاحبه: من هاهنا؟ فقال الآخر: إبراهيم بن أدهم: فقال: ذلك الذي رد الله مكانه، ورُفعت درجته)[(١)].

۞ ۞ ۞

(١) الرسالة القشيرية:ص١٠٨.

خامساً–مقام الإخلاص

– قال تعالى: ﴿ قُلۡ إِنِّيٓ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[1]

– افتتحَ أصحابُ الصِّحاحِ كتبَهُمْ بالحديثِ المشهورِ الذي رواه سيِّدُنا عمرُ بنُ الخطابِ ﷺ عن رسولِ اللهِ ﷺ أنه قال: «إنما الأعمالُ بالنياتِ، وإنما لكلِّ امرئٍ ما نوى»... إلى آخر الحديث[2].

(قالَ العلماءُ في هذا الحديثِ: ليسَ في أخبارِ النبيِّ ﷺ شيءٌ أَجْمَعَ، وأغنى وأكثرَ فائدةً، من هذا الحديثِ.

– ورُوِيَ عن الشافعيِّ وأحمد بن حنبل وغيرهم من العلماء رحَمَهم اللهُ تعالى، أنهم قالوا: هذا الحديثُ ثُلُثُ الإسلام)[3].

– في هذا الحديثِ تنبيهٌ هامٌّ للمسلمينَ لأهميةِ النيةِ، وأنَّ أيَّ عملٍ تَلْزَمُهُ النيةُ، وبالنيةِ ينال الإنسانُ الحسناتِ أو السيئاتِ، ولا يُقْبَلُ عملٌ بغيرِ نيةٍ، والعملُ المقبولُ، هو ما أَخْلَصَ المؤمنُ فيه نِيَّتَهُ، وجعلَهُ خالصاً لوجهِ الله، لا يُشْرِكُ به أحداً، ولا يُريدُ به وجهَ أحدٍ إلا اللهَ سبحانَهُ وتعالى، وهذا العملُ يُسمى إخلاصاً ، أي جعلَهُ المرءُ خالصاً للهِ تعالى، وبذلكَ ينالُ العبدُ ثوابَ العملِ من اللهِ سبحانَهُ وتعالى.

– قال الإمام ابن القيم رحمه الله عن النية: (هي رأس الأمر وعموده، وأساسه وأصله الذي يبنى عليه، فإنها روح العمل وقائده وسائقه، والعمل تابعٌ لها يبنى عليها، يصح بصحتها ويفسد بفسادها، وبها يستجلب التوفيق، وبعدمها يحصل الخذلان، وبحسبها تتفاوت الدرجات في الدنيا

(١) سورة الزمر: ١١.

(٢) أخرجَه الشيخانِ، وأبو داودَ، والنَّسائيُّ.

(٣) ابن حجر: فتح الباري جزء١ ص٢.

والآخرة) [١].

– وسُئِلَ النبيُّ ﷺ عن الإخلاصِ ما هو؟ فقالَ: «سألْتُ جبريلَ عليه السلامُ عن الإخلاصِ ما هو؟ قالَ: سألْتُ ربَّ العزةِ عن الإخلاصِ ما هو؟ قال: سِرٌ من سِرِّي استودعْتُهُ قلْبَ من أحببْتُهُ من عبادي»[٢].

– ومن هذا القبيل، قول أبي القاسم القشيري رحمه الله معرفاً الإخلاص: (الإخلاص إفراد الحق سبحانه في الطاعة بالقصد، وهو أن يريد بطاعته التقرب إلى الله سبحانه دون شيء آخر من تصنع لمخلوق، أو اكتساب صفة حميدة عند الناس، أو محبة مدح من الخلق، أو معنى من المعاني سوى التقرب إلى الله تعالى، ويصح أن يقال: الإخلاص تصفية العمل عن ملاحظة المخلوقين، ويصح أن يقال: الإخلاص التوقي عن ملاحظة الأشخاص) [٣].

– وقال الجنيدُ: (الإخلاصُ سِرٌّ بينَ اللهِ والعبدِ، لا يعلمُهُ مَلَكٌ، فيكتبَهُ، ولا شيطانٌ، فيفسدَهُ، ولا هوى، فَيُميلَهُ) [٤].

– وقالَ ذو النونِ المصريُّ: (ثلاثٌ من علاماتِ الإخلاصِ: استواءُ المدْحِ والذمِّ من العامَّةِ، ونِسيانُ رؤيةِ الأعمالِ، ونسيانُ اقتضاءِ ثوابِ العملِ في الآخرةِ) [٥].

– فالإخلاصُ ألَّا تطلبَ على عملِكَ شاهداً غيرَ اللهِ، ولا مجازياً سِواهُ. حيث رُويَ عن ابنِ مسعودٍ ﷺ أنَّهُ سمعَ رجلاً يقولُ: (قَرأتُ البارحةَ البقرةَ، فقالَ: ذلكَ حظُّكَ منها، أيْ هذا

(١) إعلام الموقعين جزء٤ ص٩٩.

(٢)أخرجه القزويني في مسلسلاته عن حذيفةَ.

(٣) الرسالة القشيرية: ص٢٠٧.

(٤) المصدر نفسه: ص٢٠٨

(٥) المصدر نفسه: ص٢٠٨.

الإعلانُ هو ثوابُكَ منها)[1].

- وسُئِلَ سَهْلُ بنُ عبدِ اللهِ:(أيُّ شيٍ أشدُّ على النفسِ؟ فقالَ: الإخلاصُ لأنَّهُ ليسَ لها فيه نصيبٌ)[2].

- والإخلاص مصدر وفعله أخلص، ومجرد الفعل خلص، ومعناه: صفا وزال عنه ما يَشُوْبُهُ من الشوائب، فذهب خالص: ذهب صافٍ لا شائبة فيه.

- وأخلص الشيء: صفاه ونقاه مما يشوبه.

- وكلمة الإخلاص كلمة التوحيد، وهي لا إله إلا الله.

- وسورة الإخلاص هي سورة: قل هو الله أحد، وهي سورة التوحيد.

- والإخلاص شرعاً: هو صفاء النية، ونقاء السريرة من الشرك والرياء، وإرادة وجه الله تعالى، وحيازة رضاه في كل اعتقاد أو قول أو عمل.

- وللإخلاصِ أهميةٌ كبرى فهو طريق رضا الرحمن، وقبول الأعمال، ورفع الدرجات، والوصول إلى الجنات، وله أهمية في دفعِ الفتنِ عن الأمةِ، قالَ رسولُ اللهِ ﷺ: «طوبى للمخلصينَ أولئكَ مصابيحُ الدُّجى تنجلي عنهم كلُّ فتنةٍ ظلماء»[3].

- وللإخلاصِ أيضاً أهميةٌ كُبرى في تكوينِ شخصيةِ المسلمِ، لأنَّهُ يحتاجُ إلى إيمانٍ يقينيٍّ، وصِدْقٍ ربانيٍّ، وإرادةٍ فُولاذيةٍ، وهمةٍ عاليةٍ، وصبرٍ شديدٍ.

- والإخلاصُ يُضادُّهُ الشرك الخفيُّ أي الرياءُ، فمنْ لم يكنْ مُخلصاً، فهو مُشْرِكٌ، إلا أنَّ الشِّرْكَ

---

(١) الغزالي: إحياء علوم الدين جزء٥ ص٦٣.

(٢) الرسالة القشيرية:ص٢٠٩.

(٣) أخرجه البيهقي في شعبه.

درجاتٌ، فالإخلاصُ وضِدُّهُ، يتواردانِ على القلْبِ، لأنَّ الإخلاصَ محلُّهُ القلبُ، وإنما يكونُ ذلكَ في المقاصدِ والنياتِ، ومنْ هنا جاءتْ أهميةُ الإخلاصِ ، لأنَّهُ سِرٌّ ولا يَطَّلِعُ عليه إلا اللهُ سبحانَهُ فيكونُ الإخلاصُ، بالتوجُّهِ إلى اللهِ وحدَهُ، وإفرادِهِ بالتوحيدِ والعبادةِ، والطاعةِ، والحبِّ، والتذلُّلِ، والتخشُّعِ، قاصداً من كلِّ ذلكَ، إرضاءَهُ سبحانَهُ دونَ سواهُ، في كلِّ عملٍ من أعمالِهِ، وحركةٍ من حركاتِهِ، وسَكَنَةٍ من سَكَنَاتِهِ، وخَطْرَةٍ، من خَطَرَاتِ قلبِهِ، وحديثِ نفسِهِ.

– يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا ﴿١١٠﴾﴾ (١)

– وقد وردَ في سببِ نزولِ هذه الآيةِ، عِدَّةُ أقوالٍ منها:

– قولُ ابنِ عباسٍ رضي الله عنهما: (نَزَلَتْ في جُنْدُبِ بنِ زهيرٍ العامريِّ، قالَ: قالَ يا رسولَ الله، إني أعملُ العملَ لله تعالى، وأُريدُ وجهَ اللهِ تعالى، إلا أنَّهُ إذا اطُّلِعَ عليهِ سَرَّني، فقالَ النبيُّ ﷺ : «إنَّ الله طيِّبٌ، ولا يَقْبَلُ إلا الطيبَ، ولا يقبلُ ما شُوْرِكَ فيه» فنزلت الآية (٢) .

– وقالَ طاووسٌ(٣): (قالَ رجلٌ يا رسولَ اللهِ ، إني أحبُّ الجهادَ في سبيلِ اللهِ وأحبُّ أنْ يُرَى مكاني، فنزلَتِ الآيةُ) (٤).

– وقالَ مجاهدٌ: (جاءَ رجلٌ إلى النبيِّ ﷺ، فقالَ: يا رسولَ اللهِ، إني أَتَصَدَّقُ، وأَصِلُ الرَّحِمَ، ولا أَصْنَعُ ذلكَ إلا للهِ تعالى، فَيُذْكَرُ ذلكَ مني، وأُحْمَدُ عليه، فَيَسُرُّني ذلكَ، وأُعْجَبُ به، فَسَكَتَ

---

(١) سورة الكهف: ١١٠.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك.

(٣)طاووس بن كيسان أبو عبد الرحمن اليماني التابعي الكبير المشهور، وردت عنه الرواية في حروف القرآن، أخذ القرآن عن ابن عباس ومُعْظمُ روايته عنه، مات بمكة سنة (١٠٦هـ.) [ابن الجزري:غاية النهاية في طبقات القراء].

(٤) الجامع لأحكام القرآن.

رسولُ اللهِ ﷺ، ولَمْ يَقُلْ شَيئاً، فنزلت الآيةُ) [١].

– ومهما كانَ سببُ نُزولِ الآيةِ، فالعبرةُ في عمومِها، لأنَّ الإخلاصَ مطلوبٌ في كلِّ شيءٍ.

– لذلكَ، فإنَّ سيِّدَنا عمرَ ﷺ عندَما كان يقرأُ، أو يسمعُ هذهِ الآيةَ، كان يقولُ: (اللَّهمُ اجعلْ عملي كلَّهُ صالحاً، واجعلْهُ لكَ خالصاً، ولا تجعلْ لغيرك منه شيئاً) [٢].

– وعن أبي سعيدٍ الخُدْرِيِّ ﷺ، أنه قالَ: (خرجَ علينا رسولُ اللهِ ﷺ ونحنُ نتذاكَرُ المسيحَ الدجالَ، فقالَ: «ألا أُخبرُكُم بما هو أخوفُ عليكم عندي منَ المسيحِ الدَّجالِ؟، قال: قلنا بلى، فقالَ: الشركُ الخَفِيُّ، أن يقومَ الرجلُ فيصلي فَيُزيِّنُ صلاتَهُ، لما يَرَى من نَظَرِ رجلٍ»[٣].

– وفي الأَثَرِ: (منْ صَلَّى يُرائي فقدْ أَشْرَكَ) [٤].

– وجاءَ أيضاً:(ومنْ تَصَدَّقَ يُرائي فقدْ أَشْرَكَ) [٥].

– وقياساً على ذلك، من صامَ يُرائي فقد أَشْرَكَ، ومن حَجَّ يُرائي فقد أَشْرَكَ، وكذلكَ جميعُ الأعمالِ التي يُراءَى بها، فصاحبها قد أَشْرَكَ، وفي الحديثِ القُدْسيِّ يقولُ اللهُ تعالى:« أنا أَغْنَى الشركاءِ عن الشِّرْكِ، فمنْ عملَ لي عملاً أَشركَ فيه غيري فأنا منهُ بريءٌ، وهو للذي أشركَ»[٦].

– مما سبقَ نجدُ أنَّ الرياءَ وهو الشِّرْكُ الخفيُّ، هو نَقيضُ الإخلاصِ، والرياءُ إذا داخَلَ الأَعمالَ الصالحةَ، وإن كانت في أَتَمِّ صُورِها، يَقلِبُهَا إلى أعمالٍ تُوجِبُ اللَّومَ والعُقُوبَةَ، قالَ تعالى:

---

(١) الجامع لأحكام القرآن.

(٢) أبو الشيخ الأصبهاني: طبقات المحدثين بأصبهان.

(٣) أخرجه ابن ماجه، والبيهقي، والحاكم.

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك.

(٥) أخرجه الحاكم في المستدرك.

(٦) أخرجه ابن ماجه.

﴿ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ ۝٧ ﴾(١)

– وقالَ تعالى: ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ۝٢٣ ﴾(٢)

– لذلك قالَ رسولُ اللهِ ﷺ : «أَخلِصْ دِيْنَكَ يَكْفِكَ العملُ القليلُ»(٣).

– والمؤمنُ الحقُّ يَرتَقِي بإخلاصِهِ إلى أرفعِ الدرجاتِ، وهي عبادةُ اللهِ وحدَهُ، يَبْتَغِي وجهَهُ، دُونَ أنْ يَقْصِدَ ثَواباً .

– وكما قالَ الشاعرُ:

فما مَقْصُودُهُمْ جناتُ عدنٍ ولا الحورُ الحِسانُ ولا الخِيامُ

سِوى نَظَرِ الجَليلِ وذا مُناهُمْ وهذا مقصِدُ القومِ الكـــــرام

– وكما قالتْ رابعةُ: (يا ربِّ، ما عَبدتُكَ خَوفاً منْ نارِكَ، ولا طَمعاً في جنتِكَ، وإنما عَبَدْتُكَ لِذاتِكَ، لأنَّكَ تَستَحِقُ ذلكَ).

– لأنهُ لو لَمْ يكنْ ثَمَّةَ ثَوابٌ، ولا عِقَابٌ، ولا جَنَّةٌ ولا نارٌ، لَمَا تَأَخَّرَ الصَّادِقُونَ عن عبادةِ ربِّهم، لأنَّهم يعبدونَ اللهَ، حُبَّاً له، وطَلَباً لِقُرْبِهِ، ورضوانِهِ، بَعدَ أَنْ أدركوا نِعَمَهُ وآلاءَهُ، وذاقوا بِرَّهُ وإحسانَهُ. وليس معنى هذا أنَّهم لا يُحبون دخولَ الجنةِ، ولا يَرْغَبُون في البُعْدِ عن النارِ، فهم يُحبون الجنةَ ويطلبونها، لأنها مَظْهَرُ حُبِّ اللهِ، ورضائِهِ وقربِهِ، ويكرهون النارَ ، ويخافونها، لأنها مظهرُ

(١) سورة الماعون:٤-٧.

(٢) سورة الفرقان:٢٣.

(٣)أخرجه الحاكم في مستدركه عن معاذ ﷺ.

سخطِ اللهِ وغضبِهِ ونِقْمَتِهِ، ولعظيمِ شأنِ النيةِ، تحدَّثَ عنها العلماءُ كثيراً، وَنَبَّهُوا إلى أهميَّتِها.

- قالَ يحيى بنُ كثيرٍ[1]: (تعلَّموا النيةَ، فإنها أَبْلَغُ من العملِ)[2].

- وقالَ ابن المبارك: (رُبَّ عملٍ صغيرٍ تُعَظِّمُهُ النيةُ، ورُبَّ عملٍ كبيرٍ تُصَغِّرُهُ النيةُ)[3].

- وقالَ آخرون: (تجارةُ النياتِ، تجارةُ العلماءِ، وذلك لأنَّ العلماءَ يعرفون كيفَ يُدخلونَ النيةَ في جميعِ أعمالِهم، مهما تنوَّعَتْ، فيحصلونَ على ما يريدون، مع حصولِ الثوابِ على تلكِ الأعمال وإن كانت مِمَّا يدخلُ في مجالِ العاداتِ، فباستحضارِهِم للنيةِ الصالحةِ معَ هذه الأعمالِ تصبحُ أعمالاً صالحةً).

- فالتطيِّبُ مثلاً، إذا قُصِدَ به التَّلذُّذُ والتَّنَعُّمُ، فهو مُباحٌ، وإنْ نُوِيَ بِه اتباعُ سُنَّةِ الرسولِ ﷺ فهو قُربى، وفِيهِ ثوابٌ، وإن نُوِيَ به التَّودُّدُ إلى قلوبِ النساءِ الأجنبياتِ، أو التفاخرُ والتكاثرُ، فهذا يجعلُ التطيُّبَ معصيةً، ويوجِبُ العقوبةَ، وكذلكَ سائِرُ الأعمالِ.

- فإذاً، المباحُ بالنيَّةِ الصَّالحةِ ، يرتفعُ إلى درجةِ الطَّاعةِ ورضاءِ اللهِ، وبالنيَّةِ الفاسدةِ يتحولُ إلى معصيةٍ، أَكلُ الطَّعامِ وشُربُ الماءِ مُباحٌ، فإن نَوينا بهما نيَّةً صَالحةً فقُلنا:

(بسم الله الرحمن الرحيم، نَويتُ التَّقويَ على طاعةِ اللهِ). حصلنا على ثوابٍ كبيرٍ.

- وكذلكَ في العملِ: (نَويتُ فَتحَ محلي وقضاءَ حوائجِ عبادِ اللهِ) بهذه النيَّةِ نحصلُ على ثوابٍ كبيرٍ، وفي زيارةِ مريضٍ: (نويتُ عيادَتَهُ تَقرُّباً للهِ تعالى)، وفي التَّعزيةِ: (نَويتُ تعزيةَ أهلِ الميِّتِ للهِ

---

(١)يحيى بن كثير بن درهم، أبو غسان العنبري البصري الحافظ.قال أبو حاتم: صالح الحديث. وقال النسائي: ليس به بأس. توفي سنة (٢٠٦هـ). [سير أعلام النبلاء]

(٢)أبو نعيم: حلية الأولياء.

(٣)ابن أبي الدنيا: الإخلاص والنية ص٧٣.

تعالى امتثالاً لأمرِ النبيِّ ﷺ وأداءً لحقِ الأُخُوَّةِ الإيمانيَّةِ)، وكذلكَ في الزواجِ: (إنْ كانت النيةُ تَعفُّفَاً عن الحرامِ وغَضَّاً للبَصَرِ، وهكذا في سائرِ الأعمالِ).

– قال تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ ﴾(١)

– وقدُ بيَّنَ النبيُّ ﷺ أَهميةَ النيَّةِ، فقد روى أبو كَبْشةَ رضي الله عنه، عن النبيِّ ﷺ قال:

« إنَّما الدُّنيا، لأربعةِ نَفَرٍ:

عبدٌ رزقَهُ اللهُ مالاً وعِلْمَاً ، فهو يَتَّقِي فيه ربَّهُ ، ويَصِلُ فيه رَحِمَهُ، ويَعلمُ للهِ فيه حَقَّاً، فهذا بأفضلِ المنازلِ.

وعبدٌ رزقَهُ اللهُ عِلمَاً، ولَمْ يَرزقهُ مَالاً، فَهوُ صَادِقُ النِيَّةِ فيقولُ: لو أنَّ لي مالاً لَعَمِلْتُ بعملِ فلانٍ، فهو بِنِيَّتِهِ، فأجرُهما سَواءٌ.

وعبدٌ رزقَهَ اللهُ مَالاً، ولَمْ يرزقْهُ عِلْمَاً، فهو يَتَخبَّطُ في مالِهِ بغيرِ عِلمٍ، لا يتقي فيه ربَّهُ، ولا يَصلُ فيه رحِمَهُ، ولا يَعْلَمُ فيه للهِ حقاً فهذا بأخبثِ المنازلِ.

وعبدٌ لَمْ يرزقْهُ اللهُ مالاً، ولا عِلْماً وهو يقولُ: لو أنَّ لي مَالاً لعَمِلْتُ فيه بعملِ فلانٍ، فهو بِنِيَّتِهِ فَوِزْرُهُمَا سَواءٌ، أو كَمَا قالَ ﷺ »(٢).

– وينبغي للمسلم أن يعلم أن للإخلاص ثمرات وفوائد كثيرة يجنيها إن تحقق به من أهمها:

أولاً– الإخلاص وسيلة هامة من وسائل تفريج الكروب والأحزان، وحلّ لكثير من الأمراض

(١) سورة الأنعام: ١٦٢–١٦٣.

(٢) أخرجه أحمد والترمذي.

والمشاكل التي تواجهه في الدنيا، وأظهر شيء لهذا الموضوع حديث رسول الله ﷺ: فقد روى ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: « انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوْا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمُ اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ مَالاً، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ». قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « وَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ. فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهْيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَقَالَ الثَّالِثُ اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ. فَقَالَ يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَسْتَهْزِئْ بِي. فَقُلْتُ إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه.

ثانياً– الإخلاص من أهم الوسائل للتخلص من الشيطان، بل والتمكن من الانتصار عليه وقهره، والخلاص من إغوائه وإغرائه، وهذا ما حكاه القرآن من قول الشيطان:

﴿ قَالَ رَبِّ بِمَآ أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ ﴾[١]

– وقال سبحانه: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾ ﴾[٢]

– وعلى سبيل التوضيح لهذا الموضوع نورد القصة التي ذكرها الغزالي في بحث الإخلاص وهي:

(أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا إن ههنا قوما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحمك الله قال أريد أن أقطع هذه الشجرة قال وما أنت وذاك تركت عبادتك واشتغالك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال إن هذا من عبادتي قال فإني لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه على الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس أطلقني حتى أكلمك فقام عنه فقال إبليس يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك ولله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولو شاء لبعثهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فنابذه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فعجز إبليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنفع قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقه فقال إبليس أنت رجل فقير لا شيء لك إنما أنت كَلٌّ على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغني عن الناس قال نعم قال فارجع

---

(١) سورةالحجر: ٣٩–٤٠

(٢) سورة ص ٨٢–٨٣.

عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذهما فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أنفع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يغرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمني قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها وما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحلف له فرجع العابد إلى متعبده فبات فلما أصبح رأى دينارين عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها قال فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال هيهات فأخذه إبليس وصرعه فإذا هو كالعصفور بين رجليه وقعد إبليس على صدره وقال لتنتهين عن هذا الأمر أو لأذبحنك فنظر العابد فإذا لا طاقة له به قال يا هذا غلبتني فخل عني وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبتني الآن فقال لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لك وهذه المرة غضبت لنفسك وللدنيا فصرعتك) [1].

ثالثاً– الإخلاص ينجي صاحبه من هموم الدنيا وآلامها، ويدخله يوم القيامة الجنة، وينجيه من النار، لأنه أخلص نيته وعمله لله تعالى، وابتعد عن الشرك الخفي وهو الرياء يؤكد ذلك سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ إِنَّكُمْ لَذَآئِقُواْ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ رِزْقٌ مَّعْلُومٌ ﴿٤١﴾ ﴾[2]

وقوله ﷻ: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا فِيهِم مُّنذِرِينَ ﴿٧٢﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُنذَرِينَ ﴿٧٣﴾ إِلَّا عِبَادَ

---

(١) إحياء علوم الدين: جزء٣ ص٣٧٧.

(٢) سورة الصافات:٣٨–٤١

ﭐللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝٧٤﴾[1]

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ۝١٥٨ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٥٩ إِلَّا عِبَادَ ٱللَّهِ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ۝١٦٠﴾[2]

– من كل ذلك ينبغي للمؤمن أن يتحرى دائماً قصص المخلصين وأعمالهم ليستفيد منها ويأخذ دروساً تعظه في سائر حياته، فيعمل عملهم ويتأسى بهم، وخير ما يحقق له ذلك أن يقرأ دائماً سيرة النبي ﷺ، فيرى فيها كامل الإخلاص في كل أعماله وأقواله، وأفعاله وتقريراته ﷺ، فهو المثل الأعلى والقدوة الصالحة، قال ﷻ عنه: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ۝٢١﴾[3]

– ولقد أثر النبي ﷺ في أصحابه وزكاهم ورباهم فغير الكثير من صفاتهم في كل مجالات الحياة، ولو تتبعنا أخبار الصحابة والتابعين والصالحين في موضوع الإخلاص لوجدنا الكثير منها

– روى الأوزاعي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: (خرج في سواد الليل فرآه طلحة فذهب عمر فدخل بيتا ثم دخل بيتا آخر فلما أصبح طلحة ذهب إلى ذلك البيت فإذا بعجوز عمياء مقعدة فقال لها ما بال هذا الرجل يأتيك قالت إنه يتعاهدني منذ كذا وكذا يأتيني بما يصلحني ويخرج عني الأذى فقال طلحة ثكلتك أمك يا طلحة أعثرات عمر تتبع)[4].

---

(١) سورة الصافات:٧٢-٧٤

(٢) سورة الصافات:١٥٨-١٦٠

(٣) سورة الأحزاب: ٢١

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

- وقصة صاحب النقب في هذا الموضوع مشهورة يؤخذ منها فوائد وعبر كثيرة يستفيد منها كل مؤمن فيلتزم الإخلاصَ في كل شؤون حياته وتصرفاته.

- حدّثنا أبو عمرو الصّفّار قال: (حاصر مسلمة حصنا فندب الناس إلى نقب منه، فما دخله أحد. فجاء رجل من عرض الجيش فدخله ففتحه اللّه عليهم، فنادى مسلمة: أين صاحب النقب؟ فما جاءه أحد، فنادى: إني قد أمرت الآذن بإدخاله ساعة يأتي، فعزمت عليه إلاّ جاء. فجاء رجل فقال: استأذن لي على الأمير. فقال له: أنت صاحب النقب؟ قال: أنا أخبركم عنه. فأتى مسلمة فأخبره عنه، فأذن له فقال له: إن صاحب النقب يأخذ عليكم ثلاثاً: ألاّ تسوّدوا اسمه في صحيفة " إلى الخليفة " ولا تأمروا له بشيء، ولا تسألوه ممن هو. قال: فذاك له. قال: أنا هو. فكان مسلمة لا يصلي بعدها صلاة إلا قال: اللهم اجعلني مع صاحب النقب)[1].

۞ ۞ ۞

(١) ابن قتيبة الدينوري: عيون الأخبار جزء١ ص١٧٢.

سادساً– مقام الاستقامة

– قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحْنُ أَوْلِيَآؤُكُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِىٓ أَنفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾[1]

– تفيد الاستقامة في لسان العرب معنى الاعتدال والاستواء، ومن ذلك ما ورد في السنة بشأن الاصطفاف في الصلاة وهو: (تسوية الصفوف من إقامة الصلاة)[2] أي جعلها سليمة معتدلة.

– والاستقامة في الشرع هي الإقامة على الدين والدوام على هدي الله ﷻ، والاستمرار في التقيد بقيوده، والوقوف عند حدوده، والاستجابة لأوامره، والانتهاء عن محارمه، والثبات على ذلك، وعدم التغيير أو التبديل أو الغفلة عن ذلك، أو التراجع عنه.

– قال الإمام القشيري: (والاستقامة: درجة بها كمال الأمور وتمامها، وبوجودها حصول الخيرات ونظامها، ومن لم يكن مستقيما في حالته ضاع سعيه وخاب جهده؛ قال الله تعالى:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا﴾[3]

ومن لم يكن مستقيما في صفته لم يرتق من مقامه إلى غيره، ولم يبن سلوكه على صحة؛ فمن شرط المستأنف: الاستقامة في أحكام البداية، كما أن من حق العارف الاستقامة في آداب النهاية.

فمن أمارات استقامة أهل البداية: أن لا تشوب معاملاتهم فترة.

---

(١) سورة فصلت: ٣٠-٣١.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) سورة النحل: ٩٢.

ومن أمارات استقامة أهل الوسائط: أن لا يصحب منازلهم وقفة.

ومن أمارات استقامة أهل النهاية: أن لا تتداخل مواصلتهم حجبة)[١].

– والاستقامة لا تتأثر بأي مؤثر، ولا تتبدل بأي سبب تقاوم المغيرات والشهوات، وتتدفعها بتربية النفس على التزام الحلال، والبعد عن الحرام.

– والاستقامة هي التي تجعل صاحبها على الدوام يحاسب نفسه، ويراقب ربه، ويلتزم صراطه، ويعمر سلوكه وتصرفه بخلوص النية لله، وصدق التوجه إلى الله، فتكون استقامته نوراً يسعى بين يديه فيهديه الطريق.

– وقد ذكرت الاستقامة في القرآن الكريم في عشرة مواضع.

– قال سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ: (الاستقامة أن تستقيم على الأمر والنهي، ولا تروغ[٢] رَوَغَان الثعلب) [٣].

– قال أبو علي الدقاق[٤] (الاستقامة لها ثلاثة مدارج:

أولها التقويم، ثم الإقامة ثم الاستقامة، فالتقويم من حيث تأديب النفوس، والإقامة من حيث تهذيب القلوب، والاستقامة من حيث تهذيب الأسرار)[٥].

– من هذا القبيل قول رسول الله ﷺ: « لاَ يَسْتَقِيمُ إِيمَانُ عَبْدٍ حَتَّى يَسْتَقِيمَ قَلْبُهُ وَلاَ يَسْتَقِيمُ قَلْبُهُ حَتَّى يَسْتَقِيمَ لِسَانُهُ »[٦] .

---

(١) القشيري: الرسالة القشيرية:ص٢٠٦.

(٢) راغ: حاد عن الطريق، وذهب هكذا وهكذا مكراً وخديعة.

(٣) تفسير البغوي.

(٤)حسن الدقاق: (أبو علي) الحسن بن علي بن محمد الدقاق، النيسابوري، الشافعي، صوفي، فقيه، أصولي، وكان أستاذاً للشيخ القشيري، توفي سنة (٤٠٥ هـ/١٠١٥ م). [معجم المؤلفين]

(٥) الرسالة القشيرية: ص٢٠٥.

(٦) أخرجه أحمد في مسنده عن أنس بن مالك ﷺ.

– وكذلك قوله ﷺ: «إذا أصبحَ ابن آدم، فإن الأعضاء كلَّها تستكفي اللِّسان، فتقول: اتَّق الله فينا، فإنما نحن بك، فإن استقمتَ استقمنا، وإن اعوججت اعوججنا»[١] .

– والاستقامة درجة عالية تدل على كمال الإيمان وعلو الهمة، يتوضح ذلك من حديث النبي ﷺ فعن عَبْدِ اللَّهِ الثَّقَفِيِّ قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ قُلْ لِي فِي الإِسْلاَمِ قَوْلاً لاَ أَسْأَلُ عَنْهُ أَحَداً غَيْرَكَ. قَالَ: « قُلْ آمَنْتُ بِاللَّهِ ثُمَّ اسْتَقِمْ »[٢].

– (والاستقامة توجب إدامة الكرامة، قال تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴾[٣] لم يقل سقيناهم بل أسقيناهم فهو يشير إلى الدوام) [٤].

– والاستقامة ليست مهمة سهلة، وإنما هي شاقة عسيرة تستدعي الطاعة الدائمة، ومراقبة الإنسان نفسه والحذر من المخالفة.

– وهذا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول: (ما نزلت على رسول الله ﷺ في جميع القرآن آيةٌ أشد، ولا أشق عليه من هذه الآية ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾[٥]هود: ١١٢) [٦].

– ولذلك قال ﷺ لأصحابه عندما قالوا له لقد أسرع إليك الشيب؟ فقال: ((شيبتني هود وأخواتها)) [٧] .

---

(١) أخرجه الترمذي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد عن عبد الله الثقفي رضي الله عنه.

(٣) سورة الجن:١٦.

(٤)القشيري: الرسالة القشيرية، ص٢٠٧.

(٥)سورة هود: ١١٢.

(٦)القشيري: الرسالة القشيرية، ص٢٠٧.

(٧) أخرجه أبو يعلى والطبراني في الكبير.

- (روي عن أبي علي السري قال: رأيت النبي ﷺ في المنام؟ فقلت يا رسول الله؟ روى عنك أنك قلت: (شيبتني هود) قال: نعم، قلت: ما الذي شيبك فيها؟ قصص الأنبياء، وهلاك الأمم؟ فقال: (لا) ولكن قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ﴾[1])[2].

- ولا يعني أمر الله ﷻ لرسوله ﷺ بالاستقامة أنه لم يكن مستقيماً، بل كان في غاية الاستقامة، وإنما المقصود بهذا الأمر الدوام والاستمرار على ما هو عليه، وهو تعليم لأمة سيدنا محمد ﷺ.

- وضد الاستقامة الطغيان، واستدلوا على ذلك بقول الله ﷻ: ﴿ فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْاْ إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ ﴾[3]

- والدعوة إلى الاستقامة وتجنب الطغيان هو هدف القرآن الكريم المتكرر فيه قال تعالى:

﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾[4]

- وكلمة استقم كلمة جامعة تشمل العقيدة والعمل والقول والسلوك، ومن أقوال الصحابة في الاستقامة العملية أن أحدهم كان يقول: ما كذبت منذ أسلمت.

- وفي الحديث عن الاستقامة لابد من الحديث عن الصراط المستقيم لأن العلاقة بينهما وثيقة، فالاستقامة هي الثبات والاستمرار على الإسلام، والصراط المستقيم هو الطريق المعتدل وهو

---

(١) سورة هود:١١٢.

(٢) تفسير القرطبي.

(٣) سورة هود:١١٢

(٤) سورة الشورى:١٥

الإسلام، فأصبحت العلاقة مشتركة بينهما، حيث إنَّ الاستقامة لابد أن تكون على الصراط المستقيم قال تعالى:﴿ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ ﴾[1]

– وأمرنا الله ﷻ بل أوجب علينا أن نطلب منه الهداية لهذا الطريق في كل ركعة من ركعات صلاة الفرض أو النافلة في سورة الفاتحة:﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾[2]

– وقد يسأل سائل من الذين أنعم الله عليهم، فيجد الجواب في قوله تعالى:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ﴾[3]

– وقد بين النبي ﷺ لصحابته حقيقة هذا الطريق فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: (خَطَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ « هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ مُسْتَقِيماً ».

قَالَ ثُمَّ خَطَّ عَنْ يَمِينِهِ وَشِمَالِهِ ثُمَّ قَالَ « هَذِهِ السُّبُلُ لَيْسَ مِنْهَا سَبِيلٌ إِلاَّ عَلَيْهِ شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ﴾[4])[5].

– وعَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ ؓ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ:

---

(١) سورة يس: ٦١.

(٢) سورة الفاتحة:٦–٧

(٣) سورة النساء:٦٩.

(٤) سورة الأنعام:١٥٣.

(٥) أخرجه أحمد في مسنده.

«ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً صِرَاطاً مُسْتَقِيماً وَعَلَى جَنْبَتَي الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعاً وَلاَ تَتَفَرَّجُوا وَدَاعِي يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يَفْتَحَ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ وَالصِّرَاطُ الإِسْلاَمُ وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ»[1].

- هذا وإن استقامة المؤمن على الصراط المستقيم وثباته على هذا الطريق هو مدعاة أن يحصل المؤمن على حفظ الله ورعايته، وتحقيق أمانيه ورغباته قال تعالى:

﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ﴿١٦﴾﴾[2]

- ولأن الاستقامة أمر شاق ومتعب وصعب، كان الثواب عليه جزيلاً عظيماً، وقد بيّنه الله فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحۡزَنُواْ وَأَبۡشِرُواْ بِٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمۡ تُوعَدُونَ ﴿٣٠﴾ نَحۡنُ أَوۡلِيَآؤُكُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۖ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَشۡتَهِيٓ أَنفُسُكُمۡ وَلَكُمۡ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ﴿٣١﴾﴾[3]

(١) أخرجه احمد في مسنده.

(٢) سورة الجن:١٦.

(٣) سورة فصلت: ٣٠-٣١.

وقال سبحانه:﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسۡتَقَٰمُواْ فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ١٣ أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤ ﴾[(١)]

– ولقد كان النبي ﷺ المثل الأعلى في الاستقامة، استقام في حسه ونفسه، وفي قوله وعمله، وفي ظاهره وباطنه، وفي أمره كله، فأصبح القدوة السامية في الاستقامة لأتباعه، وأخذ يحثهم على الاقتداء به، والسير على سنته، فكان صحابته الكرام خير مثال للاستقامة، فما بدلوا ولا غيروا مع أنهم وقعوا في أنواع شديدة من البلاء والمحن، ولقد كان يفتخرون بهذه الاستقامة فكان أحدهم يقول: (ما كذبت منذ أسلمت).

وكان النبي ﷺ كلما رأى من صحابته أمراً حسناً أمرهم بالاستقامة عليه.

فعَنِ الْحَارِثِ بن مَالِكٍ الأَنْصَارِيِّ ، أَنَّهُ مَرَّ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَقَالَ لَهُ : « كَيْفَ أَصْبَحْتَ يَا حَارِثُ ؟» قَالَ : أَصْبَحْتُ مُؤْمِنًا حَقًّا، فَقَالَ: « انْظُرْ مَا تَقُولُ ؟ فَإِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةً، فَمَا حَقِيقَةُ إِيمَانِكَ ؟» فَقَالَ: قَدْ عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا، وَأَسْهَرْتُ لِذَلِكَ لَيْلِي، وَأَظْمَأْتُ نَهَارِي، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي بَارِزًا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِيهَا، وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ النَّارِ يَتَضَاغَوْنَ فِيهَا ، فَقَالَ : « يَا حَارِثُ عَرَفْتَ فَالْزَمْ » ثَلاثًا.[(٢)]

– وقد تجلت الاستقامة في الصحابة جميعهم والتابعين والعلماء الصالحين، ومن أروع ما يذكر في الاستقامة (قصة سيدنا مصعب بن عمير وقصة حذافة السهمي) [(٣)] ، وغيرهم من الصحابة رضي الله عنهم أجمعين.

---

(١) سورة الأحقاف:١٣-١٤.

(٢) أخرجه الطبراني في الكبير.

(٣) انظر كتابنا منهج الإسلام في تزكية النفس ص٢٣٤.

– وهذا محمد إقبال الشاعر الباكستاني يبين لنا معنى الاستقامة في أعماله وأقواله فيقول وهو يتحدث عن رحلته إلى بريطانيا للدراسة: (رغم أن شتاء إنجلترا كان قارساً جداً، وكان الهواء البارد يعمل في الجسم عمل السيف، ولكني لم أترك في لندن التبكير في القيام).

ويقول: لم يستطع بريق العلوم الغربية أن يبهرني، ويغشي علي بصري، وذلك لأني اكتحلت بإثمد المدينة).

ثم يقول: (مكثت قي أَتُونِ التعليم الغربي، وخرجت كما خرج إبراهيم من نار نمرود).

– (منصور بن عمار عالمٌ فاضل، علم بمرض أحد أصدقائه، فذهب إليه ليزوره، فلما دخل عليه وجده مضجعاً على فراشٍ في وسط الدار، وقد اسوَّد وجهه، وازرقت عيناه، وغلظت شفتاه، وبدا مظهره في غير مظهر الصالحين، فقال له منصور: يا أخي أكثر من قول لا إله إلا الله، ففتح عينيه وقال: يا أخي يا منصور هذه كلمة حِيْلَ بيني وبينها، فقال منصور: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، أين ذلك الصيام والقيام والصلاة والتهجد؟! فقال: كان كل ذلك لغير وجه الله ﷻ إنما كنت أفعل ذلك ليقال عني زاهد أو عابد أو رجل صالح، فإذا خلوت بنفسي أغلقت الباب، وأرخيت الستور، وشربت الخمر، وبارزت ربي بالمعاصي، وبقيت على ذلك مدة، فأصابني مرض شديد، وأشرفت على الهلاك، فقلت لابنتي: ناوليني المصحف، فأخذت أقرأ فيه، ثم قلت: اللهم بحق هذا القرآن العظيم إلا شفيتني، ولن أعود للذنب أبداً، ففرج عني وشفاني، فلما شفيت عدت لما كنت عليه من عصياني الله والانغماس في الملذات والمرآة، أنساني الشيطان العهد الذي كان بيني وبين ربي، وبقيت على ذلك مدة من الزمان، فمرضت ثانية مرضاً شديداً، وأشرفت منه على الموت، فعاودت الكرة مع ربي كما في الحالة الأولى، فشفاني وعافاني لكني لم استقم، وعاودت الأمر مرة ثالثة، ثم عاودت الكرة فدعوت بالمصحف لأقرأ فيه فلم يتبيَّن لي منه حرف

واحد فعلمت أن الله تعالى غضب علي، فرفعت رأسي إلى السماء وقلت: يا جبار السموات والأرض بحرمة هذا المصحف فرج عني، فسمعت هاتفاً يقول لي:

تتوب من الذنوب إذا مرضتـــا ... وترجع للذنـــوب إن برئتـــــا

إذا ما الضرُّ مَسَّك أنــت باكٍ ... وأخبث ما تكون إذا قويتـــــا

فكم من كربة نجاك منهـــــا ... وكم كشف البلاء إذا بليـــنا

وكم غطاك في ذنب وعنـــــه ... مدى الأيام جهراً قد نهيتـــا

أما تخشى بأن تأتي المـنايـــا ... وأنت على الخطايا قد دهيـتا

وتنسى فضل رب جاد فضــلاً ... عليك ولا ارعويت ولا خشيتـا

وكم عاهدت ثم نقضت عهداً ... وأنت لكل معروف نسيتـــا

فَدَارِكْ قبل نَقْلِكَ من ديـــارِك ... إلى قبر إليــــــه قـد نُعِيتـــا

فخرج منصور بن عمار من عنده والعبرات تملأ عينيه، وهو ويقول:

اللهم ارزقنا حسن الخاتمة، كم نفسٍ مكر الله بها بعد أن كانت صائمة قائمة.

وبعد أيام بلغه موت الرجل وما زال حزيناً عليه يدعو له الله أن يتغمده بواسع رحمته) [1].

۞ ۞ ۞

---

(١) انظر: شعيب الحرفيش: الروض الفائق ص١٤.

سابعاً– مقام الزهد

– الزهد في اللغة الإعراض عن الشيء وتركه لاحتقاره أو لقلته، والزهد في الاصطلاح:

(عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه، وشرط المرغوب عنه أن يكون مرغوباً فيه بوجه من الوجوه، فمن رغب عن شيء ليس مرغوباً فيه ولا مطلوباً في نفسه، لم يُسَمَّ زاهداً كمن ترك التراب فهو ليس زاهداً) (1).

– وبما أن الدنيا زائلة والآخرة باقية فالعاقل من عمل للباقية وآثرها على الزائلة الفانية، وهذا هو الزاهد، فالزهد هو عدم الالتفاف إلى الدنيا بمالها وجاهها وشهواتها ونعيمها، والسعي في طلب الحياة الباقية، كما قال تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْأَخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ (2).

– قال الجنيد: (الزهد استصغار الدنيا ومحو آثارها من القلب) (3).

– وقال الإمام أحمد بن حنبل: (الزهد على ثلاثة أوجه:

الأول: ترك الحرام، وهو زهد العوام.

والثاني: ترك الفضول من الحلال، وهو زهد الخواص.

والثالث: ترك ما يشغل العبد عن الله تعالى، وهو زهد العارفين) (4).

---

(١) مختصر منهاج القاصدين: ص٢٣٤.

(٢) سورة القصص:٨٣.

(٣) الرسالة القشيرية:ص١١٧.

(٤) المصدر نفسه:ص١١٩.

- قال إبراهيم بن الأدهم: (الزهد فراغ القلب من الدنيا لا فراغ اليد) (١).

- فالدنيا من مال وجاه ورفعة وغير ذلك يحتاجها المؤمن لخدمة دينه، ولكن بشرط ألا تملك قلبه وتشغله عن ربه، بل يستخدمها فيما يرضي الله ورسوله دون التعلق بها.

- والزهد يكون في شيء تملكه وتقدر عليه، وليس في شيء لا تملكه ولا تقدر عليه، فكيف تكون زاهداً وأنت لا تملك، إنما الزهد أن تملك من الدنيا ما تشاء دون أن تملكك الدنيا بشهواتها، لذلك قيل: الزهد أن تملك الدنيا ولا تملكك.

- (فقد كان سليمان وداود عليهما السلام من أزهد أهل زمانيهما ولهما من المال والملك ما لهما.

ولقد كان عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وغيرهما من الصحابة الكرام من أغنى الأغنياء ولكنهم كانوا من الزاهدين.

وكان عبد الله بن المبارك والليث بن سعد من أئمة الزهاد مع مال كثير) (٢).

- فليس الزاهد من زهد في الدنيا وقد أعرضت عنه، وإنما الزاهد من أقبلت عليه، فزوى عنها وجهه وآثر الفرار منها.

- قال إبراهيم بن الأدهم: (الزهد ثلاثة أقسام: فزهد فرض، وزهد فضل، وزهد سلامة، فأما الزهد الفرض فالزهد في الحرام، وأما الزهد الفضل فالزهد في الحلال، وأما الزهد السلامة فالزهد في الشهبات) (٣).

---

(١) إبراهيم الشبرخيتي: الفتوحات الوهبية بشرح الأربعين الحديث النووية.

(٢) ابن القيم مدارج السالكين ،جزء ص١٥

(٣) أحمد فريد: البحر الرائق في الزهد والرقائق ص١٩٢.

- هذا ولم يذكر في القرآن الكريم لفظ الزهد، إنما هناك إشارات واضحة لمعنى الزهد في آيات كثيرة من القرآن الكريم تصغر من شأن الدنيا، وتبين حقارتها وسرعة زوالها، وانقضاء نعيمها، وأنها دار الغرور، وفتنة الغافلين، ومقصود الحق من ذلك أن يزهد الناس بها بإخراج حبها من قلوبهم حتى لا تشغلهم عَمّا خلقوا له من معرفة الله تعالى وإقامة دينه، قال تعالى:

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾(1)

- وقال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾(2)

- وقال ﷻ: ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾(3)

- ولعل أقرب آية تدل على معنى الزهد قوله تعالى: ﴿ لِّكَيْلَا تَأْسَوْا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا۟ بِمَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿٢٣﴾ ﴾(4)

- أي ينبغي للمسلم ألا يفرح بموجود فيشغله عن الله، ولا يحزن لمفقود فيشغله البحث عنه عن الله سبحانه أيضاً.

---

(1) سورة العنكبوت:٦٤.

(2) سورة فاطر:٥.

(3) سورة الكهف:٤٦.

(4) سورة الحديد:٢٣.

– أما المتبع لأحاديث النبي ﷺ فإنه يجد كثيراً منها يتحدث عن الزهد مباشرة أو عن المقصود بالزهد، فعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ السَّاعِدِيِّ قَالَ أَتَى النَّبِيَّ ﷺ رَجُلٌ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ دُلَّنِي عَلَى عَمَلٍ إِذَا أَنَا عَمِلْتُهُ أَحَبَّنِي اللَّهُ وَأَحَبَّنِي النَّاسُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ « ازْهَدْ فِي الدُّنْيَا يُحِبَّكَ اللَّهُ وَازْهَدْ فِيمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ يُحِبُّوكَ »(١).

– وقد أوضح النبي ﷺ المقصود الحقيقي من الزهد فقال: « الزَّهَادَةُ فِي الدُّنْيَا لَيْسَتْ بِتَحْرِيمِ الْحَلاَلِ وَلاَ إِضَاعَةِ الْمَالِ وَلَكِنَّ الزَّهَادَةَ فِي الدُّنْيَا أَنْ لاَ تَكُونَ بِمَا فِي يَدَيْكَ أَوْثَقَ مِمَّا فِي يَدَي اللَّهِ وَأَنْ تَكُونَ فِي ثَوَابِ الْمُصِيبَةِ إِذَا أَنْتَ أُصِبْتَ بِهَا أَرْغَبَ فِيهَا لَوْ أَنَّهَا أُبْقِيَتْ لَكَ »(٢).

– وقال ﷺ: «من أحبّ دنياه أضرّ بآخرته و من أحبّ آخرته أضر بدنياه فآثروا ما يبقى على ما يفنى»(٣).

– وقال رسول الله ﷺ: « مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ »(٤).

– هذا وقد تمثل الزهد في أخلاق وحياة جميع الصحابة والتابعين والصالحين وعلى الأخص الخلفاء الراشدين.

– فقد روى زَيْد بنُ أَرْقَمَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ أَبِي بَكْرٍ ﷺ إِذِ اسْتَسْقَى فَأَتَى بِمَاءٍ وَعَسَلٍ ، فَلَمَّا وَضَعَهُ عَلَى يَدِهِ بَكَى وَانْتَحَبَ حَتَّى ظَنَنَّا بِهِ شَيْئًا ، وَلاَ نَسْأَلُهُ عَنْ شَيْءٍ ، فَلَمَّا فَرَغَ ، قُلْنَا: يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: مَا حَمَلَكَ عَلَى هَذَا الْبُكَاءِ ؟ قَالَ : بَيْنَمَا أَنَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ إِذْ رَأَيْتُهُ يَدْفَعُ عَنْ

---

(١) أخرجه ابن ماجه.

(٢) أخرجه الترمذي عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

(٤) أخرجه الترمذي عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

نَفْسِهِ شَيْئا وَلاَ أَرَى شَيْئا، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ: مَا الَّذِي رَأَيْتُكَ تَدْفَعُ عَنْ نَفْسِكَ وَلاَ أَرَى شَيْئًا؟ قَالَ: الدُّنْيَا تَطَاوَلَتْ لِي، فَقُلْتُ: إِلَيْكِ عَنِّي فَقَالَتْ: أَمَا إِنَّكَ لَسْتَ بِمُدْرِكِي فَشَقَّ عَلَيَّ وَخَشِيتُ أَنْ أَكُونَ قَدْ خَالَفْتُ أَمْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَأَدْرَكَتْنِي الدُّنْيَا[١].

- وقد روى قتادة رضي الله عنه قال: (ذكر لنا أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يقول: لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وألينكم لباسا ولكني أستبقي طيباتي، وذكر لنا أن عمر بن الخطاب لما قدم الشام صنع له طعام لم ير قبله مثله، قال: هذا لنا فما لفقراء المسلمين الذين ماتوا وهم لا يشبعون من خبز الشعير فقال خالد بن الوليد: لهم الجنة، فاغرورقت عينا عمر وقال: لئن كان حظنا من هذا الحطام وذهبوا بالجنة لقد بانوا بونا عظيما)[٢].

- عن عائشة رضي الله عنها: قالت: قال رسول الله ﷺ: «إن كنتِ تريدين الإسراعَ واللَّحاقَ بي فَلْيَكْفِكِ من الدنيا كزاد الرَّاكب، وإِيَّاك ومُجالسةَ الأغنياء، ولا تَسْتَخْلِقي ثَوبا حتى تُرَقِّعيهِ» [٣].

- وزاد رزين في كتابه : قال عروة: « فما كانت عائشة تَستَجِدُّ ثوبا حتى تُرَقِّعَ ثوبَها، وتُنَكِّسَهُ، قال: ولقد جاءها يوماً من عند معاوية ثمانون ألفا، فما أَمسى عندها درهم ، قالت لها جاريتها: فهلا اشْتَرَيتِ لنا منه لحما بدرهم ؟ قالت: لو ذَكَّرتيني لفعلتُ»[٤].

- وقد وصف الإمام النووي هذه الفئة الصالحة من الأمة فقال:

إن لله عبادا فُطُنا ... طلقوا الدنيا وخافوا الفتنا
نظروا فيها فلما علموا ... أنها ليست لحيّ وطنا

---

(١) أخرجه البزار في مسنده.

(٢) أخرجه عبد بن حميد ، وابن جرير في جامع الأحاديث.

(٣) أخرجه الترمذي في جامع الأحاديث.

(٤)جامع الأحاديث.

جعلوها لجـــة واتخـذوا   صالـح الأعمال فيها سُفنا[1]

والسؤال المهم في هذا الموضوع: كيف يصبح المؤمن زاهداً في الدنيا؟

أولاً: أن يضع المؤمن بين عينيه دائماً حقيقة الدنيا، وأنها دار امتحان وهي ظل زائل، وخيال زائر، وأن هناك رحيلاً إلى دار البقاء، إما إلى نعيم وإما إلى عذاب، فيسعى للعمل من أجل الآخرة.

ثانياً: أن يتذكر دائماً بأن الزهد في الدنيا لا يمنع شيئاً كتب له، أن حرصه عليها لا يجلب له ما لم يُقْضَ له، فما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه بل يكون على يقين بأن زهده هذا سيكون سبباً في الزيادة في الدنيا والآخرة.

ثالثاً: الإكثار من ذكر الموت، وأنه لابد ملاقيه فإن ذلك يبعده عن الانشغال بالدنيا، ويبعده عن الالتهاء بطول الأمل عن الآخرة والعمل لها.

رابعاً: الإكثار من زيارة القبور لأنها تزهد في الدنيا وترغب في الآخرة، وتكون حافزاً على الإعداد والعمل للآخرة.

خامساً: استشعار عظمة الخالق وشدة عذابه، والنار وجحيمها، والجنة ونعيمها، فهذا يؤدي إلى العزوف عن الملذات والشهوات والتعلق بما هو آت.

سادساً: النظر إلى من أعلى منه في الدين ومن هو أقل منه في الدنيا، وهذا النظر يساعده على الزهد، فيرضى عما قسمه الله له في الدنيا، ويعيش مرتاح البال حيث يرى من هو أقل منه.

---

(١)النووي: رياض الصالحين، ص٣.

عن أبي هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ:« انْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلاَ تَنْظُرُوا إِلَى مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ فَإِنَّهُ أَجْدَرُ أَنْ لاَ تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ »(١).

سابعاً: صحبة الزاهدين والعلماء العاملين المخلصين، فالإنسان يتأثر بمن يصاحب، فإن صاحب الزاهدين تأثر بأخلاقهم، وحاول أن يكون مثلهم وانتفع بهم، وما وصل إليه الصحابة الكرام من حقيقة الزهد بهذه الدنيا إلا بصحبتهم للنبي ﷺ الذي كان قدوة في أقواله وأفعاله، وكان المثل الأعلى في كل شيء.

ثامناً: قراءة كتب الزاهدين وقصصهم، والتعرف على أحوالهم وأعمالهم، وما كانوا عليه وما وصلوا إليه، فينتفع بها ويتأثر بما فيها ويسعى إلى تقليدهم والسير على خطاهم.

۞ ۞ ۞

---

(١)أخرجه الترمذي في سننه.

ثامناً: مقام الرضا

- الرضا من أسمى المقامات والأحوال، فهو باب الله الأعظم وجنة الدنيا ومستراح العابدين، وحقيقته استقبال أحكام الله ﷻ بالقبول والفرح والسرور.

- وقد أورد القشيري تعريفات كثيرة للرضا منها:

(قال عبد الله بن خفيف[1]: الرضا سكون القلب إلى أحكامه، وموافقة القلب بما رضي الله تعالى واختاره.

وقال الحارث المحاسبي[2]: الرضا سكون القلب تحت مجاري الأحكام.

وقال النوري[3]: الرضا سرور القلب بمرِّ القضاء) [4].

- إذاً فالرضا عن الله ﷻ هو أن يرضى المسلم بما خلقه الله عليه من هيئة ولون، وطول أو قصر، وأن يرضى بأسرته التي خلقه الله فيها وبيئته التي يعيش فيها، وعن حاله وأوضاعه، وعن رزقه وشأنه، وأن يعلم أن سعيه إلى تحسين أمره ورفع شأنه ضمن حدود الشرع وبيانه لا يعارض الرضا، فلا يقعد عن السعي لتغيير أمره بحجة الرضا وإنما من الرضا أن يسعى لما يرضى.

---

(١)ابن خفيف: أبو عبد الله الشيخ الإمام العارف الفقيه القدوة، ذو الفنون، محمد بن خفيف بن اسفكشار الضبي الفارسي الشيرازي، شيخ الصوفية. [سير أعلام النبلاء]

(٢) المحاسبي: الحارث بن أسد المحاسبي، أبو عبد الله من أكابر الصوفية.كان عالما بالأصول والمعاملات، واعظاً مبكياً، وله تصانيف في الزهد والرد على المعتزلة وغيرهم.ولد ونشأ بالبصرة، ومات ببغداد سنة (٢٤٣ هـ /٨٥٧ م).وهو أستاذ أكثر البغداديين في عصره. [الأعلام للزركلي]

(٣)النوري: إسماعيل بن سودكين بن عبد الله، أبو الطاهر، شمس الدين النوري: صوفي حنفي تونسي.كان من أصحاب الشيخ محيي الدين بن عربي توفي سنة (٦٤٦ هـ /١٢٤٨ م).[الأعلام للزركلي]

(٤) الرسالة القشيرية ص١٩٥.

– والسبيل إلى مقام الرضا هو علم القلب بأن الله ﷻ عدلٌ في قضائه، غير متهم فيما حكم.

– ورضاء العبد بما رضي الله هو نتيجة لتوفيق الله ورضائه عن عبده بدليل قوله تعالى:

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُ﴾[(١)]

– قال أبو عثمان الحِيري[(٢)]: (منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حالٍ فكرته، وما نقلني لغيره فسخطَه) [(٣)].

– وسئل سفيان بن عيينة عن حد الرضا عن الله تعالى فقال: (الراضي عن الله لا يتمنى سوى المنزلة التي هو فيها) [(٤)].

– ولقد تحدث الله سبحانه وتعالى عن الراضين وصفاتهم وما أعد لهم من منزلة وكرامة، فقال سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٖ مِّنۡهُۖ وَيُدۡخِلُهُمۡ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ أُوْلَٰٓئِكَ حِزۡبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزۡبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ٢٢﴾[(٥)]

– وقال سبحانه: ﴿جَزَآؤُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدٗاۖ رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَشِيَ رَبَّهُۥ ٨﴾[(٦)]

---

(١) سورة البينة:٨.

(٢)أبو عثمان الحيري :الشيخ الإمام المحدث الواعظ القدوة، شيخ الإسلام، الأستاذ أبو عثمان، سعيد بن إسماعيل بن سعيد بن منصور النيسابوري الحيري الصوفي.توفي سنة ثمان وتسعين ومئتين. [سير أعلام النبلاء]

(٣) ابن القيم: مدارج السالكين جزء٢ ص١٧٥.

(٤) ابن الجوزي: صفوة الصفوة جزء١ ص٤٢٧.

(٥) سورة المجادلة: ٢٢.

(٦) سورة البينة:٨.

- وقال ﷻ: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةٗ فِي جَنَّٰتِ عَدۡنٖۚ وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[1]

- ورضا الله عن العبد أكبر من الجنة وما فيها لأن الرضا صفة الله والجنة خلقه.

- وهذا الرضا جزاء على رضاهم عنه في الدنيا، ولما كان هذا أفضل الجزاء كان سببه أفضل الأعمال.

- بل هو غاية مطلب سكان الجنة، كما أخبر رسول الله ﷺ بقوله: « إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ لأَهْلِ الْجَنَّةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ. يَقُولُونَ لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ. فَيَقُولُ هَلْ رَضِيتُمْ فَيَقُولُونَ وَمَا لَنَا لاَ نَرْضَى وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ. فَيَقُولُ أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ . قَالُوا يَا رَبِّ وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ فَيَقُولُ أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلاَ أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا»[2].

- هذا وإن الله تعالى لا يرضى عن عبده إلا إذا رضي العبد عن ربه في جميع أحكامه وأفعاله، وعندها يكون الرضا متبادلاً، كما أشار إلى ذلك سبحانه بقوله:

﴿رَّضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ وَرَضُواْ عَنۡهُۚ﴾[3]

قال الأصفهاني: (رضا العبد عن الله ألا يكره ما يجري به قضاؤه، ورضا الله عن العبد أن يراه مؤتمراً لأمره، منهياً عن نهيه) [4].

- ولله در القائل:

---

(١) سورة التوبة:٧٢.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(٣) سورة البينة:٨.

(٤) مجلة جامعة أم القرى.

العبد ذو ضجرٍ والرب ذو قدرٍ | والدهر ذو دولٍ والرزق مقسوم
والخير أجمع فيما اختار خالقنـا | وفي اختيار سواه اللوم والشـوم

- ولقد تحدث النبي ﷺ عن الرضا في أحاديث كثيرة منها:

- فعَنْ ثَوْبَانَ ﷺ قَالَ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:«مَنْ قَالَ حِينَ يُمْسِي رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ نَبِيًّا كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُرْضِيَهُ» [(١)].

- وعَنِ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ ﷺ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «ذَاقَ طَعْمَ الإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللَّهِ رَبّاً وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً»[(٢)].

- وعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ ﷺ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَحْدَهُ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ رَضِيتُ بِاللَّهِ رَبًّا وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولاً وَبِالإِسْلاَمِ دِينًا. غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ»[(٣)].

- والرضا بالله رباً هو فرضٌ بل هو من آكد الفروض، فمن لم يرضَ به رباً لم يصح له إسلام ولا عمل ولا حال، وهذا الرضا يتضمن توحيد الله وعبادته، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والاستعانة به، والاعتماد عليه، ورجاءه والخوف منه، والإخلاص له، والصبر له وبه، والشكر على نعمه، والرضا بتدبيره وبكل أفعاله.

- فهو راضٍ بما يؤمر به، وراضٍ بما يقدر عليه، وراضٍ بقضائه.

- أما الرضا بنبيه رسولاً فيتضمن كمال الانقياد له، والتسليم المطلق إليه.

---

(١) أخرجه الترمذي.

(٢)أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه.

– وأما الرضا بدينه، فإذا قال أو حكم أو أمر أو نهى رضي كل الرضا، ولم يجد في قلبه حرجاً من حكمه، وسلم له تسليماً، ولو كان مخالفاً لمراد نفسه وهواها.

– قيل ليحيي بن معاذ[1]: (متى يبلغ العبد إلى مقام الرضا؟ فقال: إذا أقام نفسه على أربعة أصول فيما يعامل به ربه، فيقول: إن أعطيتني قبلت، وإن منعتني رضيت، وإن تركتني عبدت، وإن دعوتني أحببت)[2].

– وقد تحدث العلماء عن أنواع الرضا فقالوا:

أولاً– الرضا بالله أي: رباً، وهو على التفصيل الذي مر معنا سابقاً.

ثانياً– الرضا عن الله في فعله وأمره.

ثالثاً– والرضا بقضاء الله وقدره.

– وعكس ذلك الساخط والمخاصم لربه في أحكامه وأقضيته مثل إبليس فهو لم يرضَ بقضاء الله وأحكامه، ولو رضي لم يمسخ من الحقيقة الملكية إلى الحقيقة الشيطانية الإبليسية.

– وكان من دعاء النبي ﷺ: ((اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَبَرَدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ مِنْ غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ))[3].

– وللرضا ثمرات كثيرة منها: أنه يبلغ بصاحبه منزلة الصديقين يوم القيامة قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي: (إن أول شيء كتبه الله في اللوح المحفوظ: بسم الله الرحمن الرحيم، إني أنا الله

---

(١)يحيى بن معاذ أبو زكريا: يحيى بن معاذ بن جعفر الرازي، واعظ، زاهد، لم يكن له نظير في وقته. من أهل الري.أقام ببلخ، ومات في نيسابور سنة (٢٥٨ هـ/٨٧٢ م). [الأعلام للزركلي]

(٢) ابن القيم: مدارج السالكين جزء٢ ص١٧٢.

(٣)أخرجه الطبراني في الكبير عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه.

لا إله إلا أنا، لا شريك لي، إنه من استسلم لقضائي، وصبر على بلائي، ورضي لحكمي كتبته صديقا وبعثته مع الصديقين يوم القيامة) [(١)].

- والراضي عن الله هو عند الله كبعض ملائكته: كما قال رسول الله ﷺ في الحديث القدسي:

(يقول الله ﷻ: الشاب المؤمن بقدري الراضي بكتابي القانع برزقي التارك لشهوته من أجلي هو عندي كبعض ملائكتي) [(٢)] .

- وعن سليمان بن المغيرة قال: (كان فيما أوحى الله إلى داود ؑ يا داود إنك لن تلقاني بعمل هو أرضى لي عنك ولا أحط لوزرك من الرضا بقضائي ولن تلقاني بعمل هو أعظم لوزرك ولا أشد لسخطي عليك من البطر فإياك يا داود والبطر)[(٣)].

- وعن وهب بن منبه قال: (وجدت في زبور داود يا داود هل تدرى من أسرع الناس مرّاً على الصراط الذين يرضون بحكمي ألسنتهم رطبة من ذكري)[(٤)].

- وعن عمر بن ذر قال: بلغنا أن أم الدرداء كانت تقول: (إن الراضين بقضاء الله الذين ما قضى الله لهم رضوا به، لهم في الجنة منازلُ يغبطهم بها الشهداء يوم القيامة)[(٥)].

- والمسلم المحب لله راضٍ عن الله ﷻ في كل أحواله، بل يجد سروراً فيما اختصه الله به من البلاء، ففي سيرة النبي ﷺ وصحابته الكرام والتابعين لهم بإحسان والصالحين من عباد الله فيض من الحوادث التي تدل على تحققهم بأعلى درجات الرضا.

---

(١)أخرجه ابن النجار عن عليّ في جامع الأحاديث القدسية وهو ضعيف.

(٢) أخرجه الديلمي عن عمر ؓ في جامع الأحاديث القدسية وهو ضعيف.

(٣) ابن أبي الدنيا: الرضا عن الله بقضائه ص٤٦.

(٤) المرجع نفسه ص٧٣.

(٥) المرجع نفسه ص٤٥.

- ولقد ضرب النبي ﷺ المثل الأعلى في الرضا في مواقف كثيرة، وكلنا نذكر ما حدث له بالطائف من شتم وضرب وطرد حتى أدمي عقبه، فما كان منه إلا أن توجه إلى الله ﷻ مخاطباً ومما قال: (اللهم إني أشكو إليك ضعف قوتي وهواني على الناس، أنت أرحم الراحمين إلى من تكلني إلى عدو يتجهمني أم إلى قريب ملكته أمري، إن لم تكن غضبان علي فلا أبالي)[١].

- وكان الصحابة الكرام يعذبون في مكة، ويعانون من ألوان التنكيل والإيذاء، وهم يتلقون ذلك كله بقلوب راضية، ونفوس مطمئنة بالإيمان، وألسنة ذاكرة.

- وهذا عروة بن الزبير رضي الله عنهما قطعت رجله ومات أعز أولاده على قلبه في ليلة واحدة فدخل عليه أصحابه ليعزوه فوجدوه يقول:

«اللهم كان لي بنون سبعة، فأخذت منهم واحدا وأبقيت ستة، وكانت لي أطراف أربعة فأخذت منها طرفا وأبقيت لي ثلاثة، وايْمُكَ لئن ابتليت لقد عافيت، ولئن أخذت لقد أبقيت»[٢].

(قد كان عمران بن حصين رضي الله عنه قد استسقي بطنه، فبقي ملقى على ظهره مدة طويلة، لا يقوم ولا يقعد، وقد نُقِب له في سريره موضعٌ لحاجته، فدخل عليه مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشِّخِّيرِ فجعل يبكي لما رأى من حاله، فقال له عمران: لِمَ تبكِ؟ فقال: لأني أراك على هذه الحال الفظيعة، فقال: لا تبكِ، فإنَّ أحبَّه إليَّ أحبُّه إليه، وقال: أخبرك بشيء، لعل الله أن ينفعك به، وأكتم عليَّ حتى أموت، إن الملائكة تزورني فآنس بها، وتسلم عليَّ فأسمع تسليمها)[٣].

- (ولما قدم سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه إلى مكة -وقد كُفَّ بصره- جعل الناس يُهرَعون إليه ليدعو لهم -وكان مستجاب الدعاء- فجعل يدعو لهم، قال عبد الله بن السائب: فأتيته وأنا غلام،

(١) أخرجه الطبراني عن عبد الله بن جعفر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البيهقي في شعبه.

(٣) ابن القيم: مدارج السالكين جزء٢ ص٢١٧.

فتعرفت إليه فعرفني، فقلت: يا عم أنت تدعو للناس فيشفون، فلو دعوت لنفسك لرد الله عليك بصرك، فتبسم، ثم قال: يا بني قضاء الله أحب إلي من بصري)[1].

– ومن الرضا معرفة أن ما قدره الله للمؤمن هو خير مما يرغب فيه، فقد قال أحد العارفين: ارضَ عن الله في جميع ما يفعله بك، فإنه ما منعك إلا ليعطيك، ولا ابتلاك إلا ليعافيك، ولا أمرضك إلا ليشفيك، ولا أماتك إلا ليحييك، فإياك أن تفارق الرضا عنه طرفة عين فتسقط من عينه[2].

– قال سيدنا عمر ﵁: (ما ابتليت ببلية إلا كان لله عليَّ فيها أربع نعم: إذ لم تكن في ديني، وإذ لم أحرم الرضا، وإذ لم تكن أعظم، وإذ رجوت الثواب عليها) [3].

– وكان يقول ﵁: (ما أبالي على أي حالٍ أصبحت أعلى ما أحب أم على ما أكره؟ ذلك لأني لا أدري الخير فيما أحب أو فيما أكره) [4].

– وقد يحس الراضي بألم المصيبة بحكم الطبع، ولكنه يرضى بها حين يرجع إلى إيمانه بلطف الله تعالى وحكمته، ويعلم أن وراء كل فعل من أفعاله حِكَماً خفية، ولطائف دقيقة، لا يعرفها العبد، ولكن قد تتكشف له بعد مدة، كما قال تعالى: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـٔٗا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾[5]

(١) المصدر السابق والصفحة نفسها.

(٢) المصدر السابق جز٢ ص٢٠٨.

(٣) المناوي:فيض القدير في شرح الجامع الصغير، جزء٢، ص١٦٩.

(٤)أخرجه الإمام أحمد في كتابه العلل ومعرفة الرجال.

(٥) سورة البقرة:٢١٦.

- وقال تعالى: ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾[(١)]

- وهذا الرضا يصدر عن عمق محبة العبد لله والثقة بفعله وقضائه وقدره.

- قال عامر بن قيس: (أحببت الله حباً هون عليَّ كل مصيبة، ورضَّاني بكل بلية، فلا أبالي مع حبي إياه علام أصبحت وعلام أمسيت)[(٢)].

- وينبغي للمسلم أن يعلم أنه ليس من الرضا تركه للتضرع ودعائه الله ﷻ في دفع ما أصابه أو سؤاله ما يحب ويرغب فيه، كذلك ينبغي للمسلم ألا يترك الأسباب في دفع مالا يرغب فيه أو في سؤال ما يحب ويرغب فيه، وعليه أن يعلم أن كل ذلك ليس مخالفاً للرضا بما أراده الله سبحانه، بل هو استجابة لأمر الله ﷻ (﴿ٱدۡعُونِيٓ أَسۡتَجِبۡ لَكُمۡ﴾[(٣)].

- وحين أراد سيدنا عمر رضي الله عنه أن يمنع جيش المسلمين من دخول الشام حذراً من الطاعون، قال له سيدنا أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: أَفِرَاراً مِنْ قَدَرِ اللَّهِ فَقَالَ عُمَرُ لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ، نَعَمْ نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ هَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عُدْوَتَانِ، إِحْدَاهُمَا خِصْبَةٌ، وَالأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخِصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَكَانَ مُتَغَيِّباً فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي فِي هَذَا عِلْما سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: « إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلاَ تَقْدُمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلاَ تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ». قَالَ: فَحَمِدَ اللَّهَ عُمَرُ ثُمَّ انْصَرَفَ [(٤)].

---

(١) سورة النساء:١٩.

(٢) عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف ص٢٩٨.

(٣) سورة غافر:٦٠.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه.

- فليس في الرضا بالقضاء والقدر ما يستلزم الخروج عن الشرع، ولكن الرضا بقضاء الله وقدره معناه ترك الاعتراض عليه تعالى ظاهراً وباطناً مع بذل الوسع للتوصل إلى ما يحبه الله تعالى ويرضاه، وذلك بفعل أوامره وترك نواهيه.

۞ ۞ ۞

تاسعاً: مقام الشكر

– قال الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾[1]

– الشكر: (الثناء على المحسن بذكر إحسانه، وهو عكوف القلب على محبة المنعم والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره والثناء عليه)[2].

– والشكر نصف الإيمان كما قال رسول الله ﷺ: « الإيمان نصفان : نصف في الصبر ، ونصف في الشكر »[3].

– وقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:« عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »[4].

– ولقد ذكر الله ﷻ في القرآن الكريم نعمه الكثيرة على الناس وذكرهم بها، وأمرهم أن يشكروه عليها لتدوم عليهم، وتزيد وتنمو كما مر في الآية السابقة، وقد قال تعالى:

﴿ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٨﴾ ﴾[5]

– وقال تعالى: ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾[6]

– وقال ﷻ: ﴿ أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ﴾[1]

---

(١) سورة إبراهيم:٧.

(٢) ابن القيم: مدارج السالكين، ص٢٣٥

(٣) أخرجه البيهقي في شعبه عن أنس رضي الله عنه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه عن صهيب رضي الله عنه.

(٥) سورة النحل:١٨.

(٦) سورة النحل:٥٣.

- وقال سبحانه: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾[2]

- وقد أمر الله بالشكر ونهى عن ضده وأثنى على أهله ووصف به خواص خلقه وجعله غاية خلقه، ووعد أهله بأحسن جزائه وجعله سببا للمزيد من فضله وحارسا وحافظا لنعمته وأخبر أن أهله هم المنتفعون بآياته واشتق منه اسما من أسمائه فإنه سبحانه هو الشكور وهو يوصل الشاكر إلى مشكوره بل يعيد الشاكر مشكورا وأهل الشكر هم القليل من عباده.

- قال الله تعالى : ﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ ١١٤ ﴾[3]

- وقال ﷻ: ﴿وَٱشۡكُرُواْ لِي وَلَا تَكۡفُرُونِ ١٥٢ ﴾[4]

- وقال عن خليله إبراهيم عليه السلام: ﴿ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ١٢٠ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٢١ ﴾[5]

وقال عن نوح عليه السلام: ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبۡدٗا شَكُورٗا ٣ ﴾[6]

- وقال تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ ٧٨ ﴾[7]

---

(١) سورة لقمان: ٢٠.

(٢) سورة النحل:٧٨.

(٣) سورة النحل:١١٤.

(٤) سورة البقرة:١٥٢.

(٥) سورة النحل: ١٢٠-١٢١.

(٦) سورة الإسراء:٣.

(٧) سورة النحل:٧٨.

- وقال ﷻ: ﴿وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ١٧﴾[1]

- وقال ﷻ: ﴿وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٤٤﴾[2]

- وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ٧﴾[3]

- وقال سبحانه : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ٥﴾[4]

- وسمى نفسه شاكرا وشكورا وسمى الشاكرين بهذين الاسمين فأعطاهم من وصفه وسماهم باسمه وحسبك بهذا محبة للشاكرين وفضلاً، وإعادته للشاكر مشكورا كقوله :

﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَآءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُورًا ٢٢﴾[5]

- ورضا الرب عن عبده به كقوله : ﴿وَإِن تَشْكُرُواْ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾[6]

- وقلة أهله في العالمين تدل على أنهم هم خواصه كقوله : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ﴾[7]

- عن الْمُغِيرَةَ بْنِ شُعْبَةَ رضي الله عنه قال: قَامَ النَّبِيُّ ﷺ حَتَّى وَرِمَتْ قَدَمَاهُ قَالُوا: قَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ. قَالَ: « أَفَلاَ أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ».[8]

- ومن وصية النبي ﷺ لمعاذ رضي الله عنه: « يَا مُعَاذُ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ وَاللَّهِ إِنِّي لأُحِبُّكَ ». فَقَالَ:

---

(١) سورة العنكبوت:١٧.

(٢) سورة آل عمران:١٤٤.

(٣) سورة إبراهيم:٧.

(٤) سورة إبراهيم:٥

(٥) سورة الإنسان:٢٢.

(٦) سورة الزمر:٧.

(٧) سورة سبأ:١٣.

(٨) أخرجه مسلم في صحيحه.

«أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ لاَ تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاَةٍ أن تَقُولُ اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَى ذِكْرِكَ وَشُكْرِكَ وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ »[1].

– عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت النبي ﷺ يدعو بهذا : «اللهم أعني ولا تعن علي، وانصرني ولا تنصر علي وامكر لي ولا تمكر علي، ويسر لي الهدى، وانصرني على من بغى علي. رب اجعلني شكاراً لك، ذكاراً لك، راهباً لك، مطواعاً لك، مخبتاً لك، أَوَّاهاً منيباً تقبل توبتي واغسل حوبتي وأجب دعوتي، وثبت حجتي، واهدِ قلبي، وسدد لساني، واسلل سخيمة قلبي[2]»[3].

– (**والشكر مبني على خمس قواعد:**

أولاً: خضوع الشاكر للمشكور.

ثانياً: حبه له.

ثالثاً: اعترافه بنعمته.

رابعاً: ثناؤه عليه بها.

خامساً: ألا يستعملها فيما يكرهه.

فهذه الخمس: هي أساس الشكر وبناؤه عليها)[4].

– والشكر على ثلاثة أقسام: شكر اللسان، وشكر الأركان، وشكر الجَنان– أي القلب–.

---

(١) أخرجه أبو داود.

(٢) سخيمة قلبي: السخم: السواد، أي: لا تجعل في قلبي حِقداً ولا ضِغناً على أحد.

(٣) أخرجه البخاري في الأدب المفرد.

(٤) ابن القيم: مدارج السالكين، جزء٢ ص٢٣٤.

١- **شكر اللسان**: بالثناء والاعتراف والتحدث بنعم الله ﷻ امتثالاً لقوله تعالى:

﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾[1]

- وتطبيقاً لقوله ﷺ: «التحدث بنعم الله شكر، وتركها كفر، ومن لا يشكر القليل لا يشكر الكثير»[2]. وذلك بأن يحمد المؤمن ربه على ما أنعم عليه من نعم لا تعد ولا تحصى، وأن يكثر دائماً من هذا الحمد في كل أحواله.

- عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (من قال بسم الله فقد ذكر الله، ومن قال الحمد لله فقد شكر الله)[3].

- وعن أنس ؓ قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ اللَّهَ لَيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا »[4].

- وعن عمر بن الخطاب ؓ قال، قال رسول الله ﷺ: « مَنِ اسْتَجَدَّ ثَوْباً فَلَبِسَهُ فَقَالَ حِينَ يَبْلُغُ تَرْقُوَتَهُ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي كَسَانِي مَا أُوَارِي بِهِ عَوْرَتِي وَأَتَجَمَّلُ بِهِ فِي حَيَاتِي ثُمَّ عَمَدَ إِلَى الثَّوْبِ الَّذِي أَخْلَقَ - أَوْ قَالَ أَلْقَى - فَتَصَدَّقَ بِهِ كَانَ فِي ذِمَّةِ اللَّهِ تَعَالَى وَفِي جِوَارِ اللَّهِ وَفِي كَنَفِ اللَّهِ حَيّاً وَمَيْتاً». [5]

---

(١)سورة الضحى: ١١.

(٢)أخرجه البيهقي في شعبه عن النعمان بن بشير ؓ.

(٣)أبو نعيم في الحلية.

(٤)أخرجه مسلم.

(٥)أخرجه أحمد في مسنده.

وقال رسول الله ﷺ: «من قال الحمد لله رب العالمين حمداً طيباً مباركاً فيه على كل حال حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده ثلاث مرات، فتقول الحفظة ربنا لا نحسن كنه ما قَدَّسَكَ عبدك هذا وحمدك وما ندري كيف نكتبه فيوحي الله إليهم أن اكتبوه كما قال عبدي» (١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه:أن رسول الله ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه قال: «الحمد لله الذي أطعمنا وسقانا وكفانا وآوانا فكم ممن لا كافي له ولا مؤوي» (٢).

٢- **شكر الأركان**: باستعمال الجوارح بالطاعة والانقياد والعمل لله تعالى وبالاستعانة بها على طاعة الله عز وجل، قال تعالى: ﴿ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ١٣﴾(٣)

٣- **شكر الجنان**: ويحصل بالخضوع والاستكانة وأن يعرف المؤمن بأن كل نعمة به من الله تعالى، قال عز وجل: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾(٤) فيجب ألّا تحجبه رؤية النعم عن رؤية المنعم، وقد نبه النبي ﷺ إلى هذه الحقيقة فقال ﷺ: «مَنْ قَالَ حِينَ يُصْبِحُ اللَّهُمَّ مَا أَصْبَحَ بِي مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنْكَ وَحْدَكَ لاَ شَرِيكَ لَكَ فَلَكَ الْحَمْدُ وَلَكَ الشُّكْرُ. فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ يَوْمِهِ وَمَنْ قَالَ مِثْلَ ذَلِكَ حِينَ يُمْسِي فَقَدْ أَدَّى شُكْرَ لَيْلَتِهِ»(٥).

---

(١)أخرجه البخاري في الضعفاء في جامع الأحاديث القدسية.

(٢)أخرجه مسلم في صحيحه.

(٣)سورة سبأ:١٣.

(٤)سورة النحل:٥٣.

(٥)أخرجه أبو داود عن عبد الله بن غنام رضي الله عنه.

– وفي الآثار أن موسى عليه السلام قال: (يا ربي خلقت آدم بيدك، ونفخت فيه من روحك، وأسجدت له ملائكتك، وعلمته أسماء كل شيء ، وفعلت، وفعلت فكيف أطاق شكرك، قال الله عز وجل: علم أن ذلك مني فكان معرفته بذلك شكراً)[1].

– وقال داود عليه السلام: (يا ربي كيف أشكرك وشكري لك نعمة علي من عندك تستوجب بها شكراً؟، فقال: الآن شكرتني يا داود)[2].

– وقد قسم الله الناس في هذه الدنيا إلى قسمين: شكور وكفور قال تعالى:

﴿إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾[3]

– وجعل ذلك بلاءً وامتحاناً منه سبحانه لعباده ووضح ذلك على لسان نبيه سليمان عليه السلام فقال: ﴿قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِيٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ۝٤٠﴾[4]

– ونتيجة الامتحان شكرٌ أو كفرٌ، والله أعلم بالشاكرين، كما قال تعالى:

﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ۝٥٣﴾[5]

– ولقد جعل الله جزاء الشكر زيادة في العطاء والنعم والتوفيق والسعادة ، وجزاء الكفر عذاباً شديداً في الدنيا والآخرة، قال تعالى مبيناً ذلك:

---

(١) ابن القيم: مدارج السالكين، جزء٢، ص٢٣٦.

(٢) المرجع نفسه جزء٢، ص٢٣٥.

(٣)سورة الإنسان:٣

(٤)سورة النمل:٤٠.

(٥)سورة الأنعام:٥٣.

﴿ وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ٧ ﴾[1]

﴾[1]

– وعن علي رضي الله عنه، أنه قال لرجل من همدان : (إن النعمة موصولة بالشكر ، والشكر متعلق بالمزيد ، وهما مقرونان في قرن ، ولن ينقطع المزيد من الله عز وجل حتى ينقطع الشكر من العبد)[2].

– ومع أن الشكر واجب على كل مسلم لما انعم الله به عليه، فقد رضي الله عن الشاكرين، وهيّأ لهم جزاء من عنده، قال تعالى:

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾[3]

– وقال سبحانه:﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ١٤٤ ﴾[4]

– وقال عز وجل:﴿ وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ ١٤٥ ﴾[5]

– ولما تبين لعدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال سبحانه:

﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ١٧ ﴾[6]

– ولما كان الشكر محفوفاً بهذه الصعوبات الكثيرة كانت نتيجة الامتحان به كما قال تعالى:

﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ١٣ ﴾[7]

---

(١)سورة إبراهيم:٧.

(٢) أخرجه البيهقي في شعبه.

(٣)سورة الزمر:٧.

(٤)سورة آل عمران:١٤٤.

(٥)سورة آل عمران:١٤٥.

(٦)سورة الأعراف:١٧

(٧)سورة سبأ:١٣.

- وكما قال سبحانه: ﴿وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾[1]

- وكما قال ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾[2]

- وحتى ننجح في امتحان الشكر و نكون من القلة الذين يشكرون الله، ولا نكون من الكثرة الذين لا يشكرون وجب علينا أن نشكر الله على كل نعمه، وأن نسأل الله أن يديم علينا الشكر، ولقد وصى الله لقمان بالشكر في قوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾﴾[3]

- وعلينا أن نكثر من الدعاء الذي علمنا الله إياه:

﴿رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾[4]

- ومن الشكر لله أن نشكر كل إنسان أحسن إلينا، قال ﷺ:

«مَنْ لاَ يَشْكُرِ النَّاسَ لاَ يَشْكُرِ اللَّهَ»[5].

- وقد أشار الله سبحانه إلى هذا المعنى فقال:

﴿وَلَا تَنسَوُا۟ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾﴾[6]

---

(١)سورة الأعراف:١٧.

(٢)سورة غافر: ٦١.

(٣)سورة لقمان:١٢.

(٤)سورة الأحقاف:١٥.

(٥)أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦)سورة البقرة:٢٣٧.

- وقد ظهر هذا النوع من الشكر في أعلى مراتبه على لسان أسوتنا العليا رسول الله ﷺ، فقد روى علي بن أبي طالب ﷺ قال، قال ﷺ:« رَحِمَ اللَّهُ أَبَا بَكْرٍ زَوَّجَنِي ابْنَتَهُ وَحَمَلَنِي إِلَى دَارِ الْهِجْرَةِ وَأَعْتَقَ بِلاَلاً مِنْ مَالِهِ»(١).

- حتى إن رسول الله ﷺ أشار إلى أنه لم يكافئ أبا بكر على ما بذل في نصرته من شيء من متاع الدنيا، وإنما كافأه بأن سأل الله تعالى أن يتولى مكافأته يوم القيامة، وحسبك بها مكافأة!! فقد روى أبو هريرة ﷺ قال، قال رسول الله ﷺ:« مَا لأَحَدٍ عِنْدَنَا يَدٌ إِلاَّ وَقَدْ كَافَيْنَاهُ مَا خَلاَ أَبَا بَكْرٍ فَإِنَّ لَهُ عِنْدَنَا يَدًا يُكَافِئُهُ اللَّهُ بِهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمَا نَفَعَنِي مَالُ أَحَدٍ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلاً لاَتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلاً أَلاَ وَإِنَّ صَاحِبَكُمْ خَلِيلُ اللَّهِ »(٢).

- ولقد علمنا النبي ﷺ كيف نشكر الآخرين، فقال ﷺ: (وَمَنْ آتَى إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَعْلَمُوا أَنْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ) (٣).

- وقال ﷺ: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ »(٤).

۞ ۞ ۞

---

(١)أخرجه الترمذي في سننه.

(٢)أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة ﷺ.

(٣)أخرجه النسائي في سننه عن ابن عمر رضي الله عنهما.

(٤)أخرجه الترمذي في سننه عن أسامة بن زيد ﷺ.

عاشراً- مقام الصبر

- مقام الصبر عظيم، وهو نصف الإيمان كما مر معنا سابقاً، ولابد لكل مؤمن من أن يتعلم هذا المقام، وأن يُهَيِّئ نفسه له.

- والصبر في اللغة معناه الحبس والكف، يقال: صَبَّرت نفسي على ذلك الأمر أي حبستها، وصَبَّرت نفسي عن ذلك الشيء: أي كففتها.

- والصبر في الاصطلاح الأخلاقي الديني: هو حبس النفس عما لا يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه، وذلك بحبس النفس عن الجزع والسخط، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن التصرف المخالف للشرع.

- وضد الصبر هو الجزع، جاء في القرآن الكريم:

﴿سَوَآءٌ عَلَيۡنَآ أَجَزِعۡنَآ أَمۡ صَبَرۡنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٖ ٢١﴾(1)

- وكلمة الصبر فيها معنى الانتظار، وبهذا المعنى جاء قوله سبحانه:

﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَا﴾(2) أي: انتظر.

- وفيها معنى الاستقامة والمداومة، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾(3) أي: احبس نفسك معهم واستقم على ملازمتهم.

---

(١)سورة إبراهيم: ٢١.

(٢)سورة الطور: ٤٨.

(٣)سورة الكهف: ٢٨.

– والصبر قوة خلقية من قوة الإرادة تمكن الإنسان من ضبط نفسه لتحمل المتاعب والمشقات والآلام، وضبطها عن الاندفاع بعوامل الاندفاع والضجر، والسأم والملل، والعجلة والرعونة، والغضب والطيش، والخوف والطمع، والأهواء والشهوات والغرائز.

– والصبر تحمل مكاره الحياة، وعدم الجزع لعوامل الدهر ونكباته، وهو الدواء الشافي لمن ملك الحزن نفسه، والبلسم المعافي لمن قبض الجزع على زمام عواطفه، بل هو عين الراحة، وينبوع الفرح، ومبيد الهموم، ومزيل الغموم، ولا سبيل إلى ما علق بالمرء من الأحزان إلا التمسك به، والتعلق بأهدابه، فهو ركن حصين في محاربتها، وعماد قويم على دفعها.

– فالصبر حالة نفسية تجد الصابر فيها ساكناً هادئاً حامداً شاكراً دائباً على العمل، وكأنه في حالة عادية لا يضجر، ولا يشكو، ولا يغضب، ولا يتذمر، ولا يعبس.

– من هنا نجد أن الصبر ضروري في كل حال وفي كل زمان، وهو غريزة في الإنسان تزيد وتنقص، إلا أنها شأن الغرائز تنمو بالعلم والمران والتجارب.

– ولخلق الصبر أهمية كبيرة تظهر فيما يلي:

أولاً– الصبر صفة من صفات الله ﷻ:

– فالله ﷻ هو (الصبور) أي الذي لا يعاجل العصاة بالانتقام والعقاب، وفي الحديث القدسي أن الله أوحى لإبراهيم عليه السلام: (يا إبراهيم أما علمت أن من أسمائي أني أنا الصبور) [١].

– وفي الحديث النبوي: « لاَ أَحَدَ أَصْبَرُ عَلَى أَذًى يَسْمَعُهُ مِنَ اللَّهِ ﷻ إِنَّهُ يُشْرَكُ بِهِ وَيُجْعَلُ لَهُ الْوَلَدُ ثُمَّ هُوَ يُعَافِيهِمْ وَيَرْزُقُهُمْ »[٢].

---

(١) أخرجه الطبراني في الكبير عن جابر رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي موسى رضي الله عنه.

ثانياً– الصبر خلق أكثر القرآن الكريم من ذكره أكثر من ذكر أي خلق آخر:

– قال الإمام أحمد رحمه الله: (الصبر في القرآن نحو تسعين موضعاً، وقد كرر القرآن الأمر بالصبر، فتكررت كلمة (اصبر) تسع عشر مرة، وتكررت كلمة (اصبروا) ستّ مرات.

– ولذلك قال العلماء: إن الصبر واجب بإجماع الأمة، ولا عجب فهو نصف الإيمان، لأن الإيمان شطران نصفه صبر ونصفه شكر) [١].

ثالثاً– الصبر صفة من صفات الأنبياء والمرسلين:

– فقد ذكر القرآن الكريم صفات الأنبياء والمرسلين في آيات كثيرة، فكان من أبرزها صفة الصبر، فذكر صبر سيدنا أيوب عليه السلام على ما أصابه من ضر ببدنه، وعلى فقده أهله، فقال سبحانه:

﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [٢]

– وكذلك مدح الله عز وجل صبر الأنبياء في آيات كثيرة فقال سبحانه:

﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [٣]

– هذا وقد أمر الله سبحانه وتعالى خاتم رسله وصفوة خلقه ورحمته إلى العالمين سيدنا محمد ﷺ أن يتخذ من صبر الأنبياء أسوةً له في صبره قال تعالى:

﴿فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [٤]

---

(١) ابن القيم: مدارج السالكين.

(٢)سورة ص: ٤٤.

(٣)سورة الأنبياء: ٨٥-٨٦.

(٤)سورة الأحقاف: ٣٥.

- وأولو العزم من الرسل وهم: نوح وإبراهيم وموسى وعيسى بالإضافة إلى سيدنا محمد عليهم صلوات الله أجمعين قد لاقوا من العنت والأذى والبلاء أكثر مما لقيه غيرهم من المرسلين، وهم الذين خصهم الله بالذكر دون غيرهم في قوله:

﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٖ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظٗا ٧﴾[1]

رابعاً- الصبر من أهم الأخلاق التي تخلق بها النبي ﷺ وأمر بها وحث عليها:

- وهذا ما يجده المؤمن إذا تصفح سيرة النبي ﷺ في كل حياته، فكان أعظم قدوة حسنة للناس في كل صفاته وخصاله وخاصة الصبر.

- ومع كون النبي ﷺ قدوة للمؤمنين في الصبر، فقد بين لهم أهميته الكبرى في أحاديثه، وحثهم على التمسك به، قال يصف الصبر: «وَالصَّبْرُ ضِيَاء» [2].

- وقال ﷺ: « عَجَبًا لأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لأَحَدٍ إِلاَّ لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ »[3].

خامساً- من أهم صفات وأخلاق الصحابة الكرام:

- عندما نقرأ سير الصحابة رضوان الله عليهم وخاصة من لازمه منهم منذ فجر الدعوة نجد أن الصبر من أهم صفاتهم وأخلاقهم التي تحلوا بها، فقد صبروا على أذى المشركين وصبروا في الدعوة إلى الله ﷻ، وصبروا في جهاد نفوسهم وجهاد أعدائهم، وصبروا في نشر الإيمان في نفوس العباد،

---

(١)سورة الأحزاب:٧.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي مالك الأشعري ﵁.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه صهيب ﵁.

وصبروا في فتح البلاد، وصبروا على الفقر والشدة والتعب والنصب، وصبروا على العبادة والعمل بأوامر الله، والانتهاء عما نهى الله عنه، وصبروا في حياتهم كلها وفي مجالات أعمالهم، والأمثلة على ذلك كثيرة، من هؤلاء الصابرين عمار بن ياسر وأسرته، حيث كان يمر بهم رسول الله ﷺ ويرى عذاب أهل الكفر بهم فيقول لهم ﷺ: « صبرا يا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة »[(١)].

- ومن أبرز الصابرين من الصحابة الكرام بلال الحبشي، وصهيب الرومي، وخباب بن الأرت، ومصعب بن عمير، وسعد بن أبي وقاص ﷺ، ولم يتحلوا بالصبر فقط بل كانوا يدعون إليه ويأمرون به، فقد وَرَدَ في رسالة لعمر بن الخطاب ﷺ إلى أبي موسى الأشعري: (عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر الصبر في المصيبات حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر)[(٢)].

- وقال علي كرم الله وجهه: (بني الإيمان على أربع دعائم اليقين والصبر والجهاد والعدل وقال أيضاً الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له)[(٣)].

سادساً- الصبر من أهم صفات الصالحين والأولياء والمقربين والدعاة المخلصين:

- من يتصفح سير هؤلاء ويطالع قصصهم يجد الصبر من أهم صفاتهم وأخلاقهم، والقصص في ذلك أكثر من أن تعد.

سابعاً- الصبر من عزم الأمور:

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك عن ابن إسحاق.

(٢) الغزالي: إحياء علوم الدين.

(٣) المصدر نفسه.

- يحدثنا القرآن الكريم أن الصبر هو خلق أهل العزيمة القوية، وأصحاب الإرادة الماضية الذين يعرفون الخير، ويعزمون عليه، ويمضون فيه، لا ينثنون عنه مهما كلفهم من تعب أو مشقة.

- ومن هنا جعل القرآن الصبر من (عزم الأمور)، والعزم هو عقد القلب على إمضاء الأمر، والمحافظة على ما يؤمر الإنسان به، وقيل إن عزم الأمور هو محكم الأمور، قال تعالى:

﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾[1]

- وقال سبحانه: ﴿وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾[2]

- وقال ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾﴾[3]

ثامناً- الصبر طريق الخير:

- وهذا ما بينه القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّـٰبِرِينَ ﴿١٢٦﴾﴾[4]

- وقال تعالى: ﴿وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾[5]

- قال الحسن رضي الله عنه: « الصبر كنز من كنوز الخير ، لا يعطيه الله إلا لعبد كريم عليه »[6].

---

(١) سورة آل عمران: ١٨٦.

(٢) سورة الشورى:٤٣.

(٣) سورة لقمان:١٧.

(٤) سورة النحل:١٢٦.

(٥) سورة النساء:٢٥.

(٦)ابن أبي الدنيا: الصبر والثواب عليه.

تاسعاً– الصبر نتائجه حسنة مضمونة وثوابه عظيم جزيل:

– فبالصبر يتمكن الإنسان بطمأنينة وثبات أن يضع الأشياء في مواضعها، وأن يتصرف في الأمور بعقل واتزان، وينفذ ما يريد في الزمن المناسب، وبالطريقة المناسبة الحكيمة وعلى الوجه المناسب الحكيم بخلاف عدم الصبر الذي يدفع إلى التسرع والعجلة، فيضع الإنسان الأشياء في غير مواضعها، ويتصرف برعونة، وربما يكون صاحب حق أو يريد الخير، فيغدو جانياً أو مفسداً، ولو أنه اعتصم بالصبر لسلم من كل ذلك.

– فنتائج الصبر وثمراته عظيمة في الدنيا والآخرة، ومن أهمها: أن أهل الصبر لهم البشرى السارة من الله ﷻ، قال تعالى:﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٥﴾[1]

– ويفوزون بمحبة الله ﷻ: ﴿وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٤٦﴾[2]

– وتشملهم معية الله التي فيها التأييد والنصر والتكريم والمعونة والمثوبة، قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ١٥٣﴾[3]

– قال تعالى:﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[4]

– وقد وعد الله ﷻ الصابرين بمضاعفة أجورهم، فقال سبحانه:

﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُواْ﴾[5]

---

(١) سورة البقرة:١٥٥.

(٢) سورة آل عمران:١٤٦.

(٣) سورة البقرة:١٥٣.

(٤) سورة البقرة:٢٤٩.

(٥) سورة القصص: ٥٤.

- وقد ذكر القرآن الكريم أكثر من مرة أن عاقبة الصابرين الفوز بنعيم الجنة العظيم، فقد قال الله ﷻ عن عباده: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ يُجۡزَوۡنَ ٱلۡغُرۡفَةَ بِمَا صَبَرُواْ وَيُلَقَّوۡنَ فِيهَا تَحِيَّةٗ وَسَلَٰمًا ٧٥ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ حَسُنَتۡ مُسۡتَقَرّٗا وَمُقَامٗا ٧٦﴾[1]

- والغرفة هي أعلى منازل الجنة وأفضلها، وقال سبحانه: ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةٗ وَحَرِيرٗا﴾[2]

- ويؤكد القرآن الكريم عظيم ثواب الصابرين الذي ضمنه، فيقول:

﴿إِنِّي جَزَيۡتُهُمُ ٱلۡيَوۡمَ بِمَا صَبَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ١١١﴾[3]

- وقال تعالى: ﴿وَلَنَجۡزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩٦﴾[4]

وينتهي بنا القرآن الكريم بتكريم الصابرين إلى أن ثوابهم غير محدود، بل هو موكول لفضل الله العظيم الذي لا حدود له ولا قيود فيقول سبحانه: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجۡرَهُم بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾[5]

عاشراً- الصبر من المواضيع التي اهتم بها الشعراء ونظموا فيه الشعر لما له من منزلة عظيمة:

- قال أحدهم[6] :

الصبــــر مثـــل اسمه، مـــر مذاقـــته　　　　لكـــن عواقبـــه أحلى من العســـل

---

(١) سورة الفرقان: ٧٥-٧٦.

(٢) سورة الإنسان:١٢.

(٣) سورة المؤمنون:١١١.

(٤) سورة النحل:٩٦.

(٥) سورة الزمر:١٠.

(٦) ابن القيم: مدارج السالكين.

- وقال آخر[1]:

لا تحســبن المجــد تمـــراً أنت آكله | لن تبلغ المجــد حتى تلعـــق الصبرا

- وقال ثالث[2]:

تصبر ففي اللأواء[3] قد يحمد الصبر | ولولا صروف الدهر[4] لم يعرف الحرّ

- وقال غيره[5]:

إن الأمــور إذا سدت مسالكهـــا | فالصبـــر يفتــح منها كلّ ما ارْتَتَجا[6]

لا تيأسن وإن طالـــت مطالبهـا | إذا استعنـــت بصبر أن ترى فرجـا

أخلـق بذي الصبر أن يحظى بحاجته | ومدمـــن القـــرع للأبواب أن يلجا

- أخيراً: ينبغي للمسلم أن يعلم أن للصبر أنواع متعددة ومجالات كثيرة ولكن أهم هذه الأنواع ما يلي:

أولاً- الصبر على الطاعات:

- ويعني الصبر على الطاعات الاستمساك بأدائها، لأن الطاعات والقربات تحتاج أثناء القيام بها والمداومة عليها إلى تحمل ومعاناة، ومجاهدة للنفس، وكل ذلك يحتاج إلى صبر، قال تعالى:

---

(١)أبو نعيم: حلية الأولياء.

(٢)المحبي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر.

(٣)اللأواء: الشدة.

(٤)صروف الدهر: مصائبه ونوائبه.

(٥) ابن المعتز: طبقات الشعراء.

(٦) ما أغلق.

﴿رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَيۡنَهُمَا فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا ٦٥﴾[1]

- وقال سبحانه: ﴿وَٱسۡتَعِينُواْ بِٱلصَّبۡرِ وَٱلصَّلَوٰةِۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلۡخَٰشِعِينَ ٤٥﴾[2]

- وقال ﷻ: ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَا﴾[3]

- فالصلاة تحتاج إلى وضوء، والوضوء يحتاج إلى صبر، وخاصة في أيام الشتاء الباردة، والصلاة تحتاج إلى صبر، وخاصة صلاة الفجر، وعلى الأخص في فصل الشتاء البارد تحتاج ممن يؤديها أن يستيقظ في الليل ويترك الفراش الدافئ الناعم ليتوضأ بماء بارد، وهذا يحتاج إلى صبر.

- وكذلك الصوم يحتاج إلى صبر يساعد على ترك الطعام والشراب والشهوات، ولذلك سمي رمضان بشهر الصبر.

- وكذلك سائر العبادات والطاعات والقربات الموصلة إلى رضاء الله ﷻ تحتاج إلى صبر، حتى عشرة المؤمنين والإبقاء على مودتهم والإغضاء عن هفواتهم خصال تعتمد على الصبر الجميل، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥ﴾[4]

- وحتى التمسك بالأخلاق الفاضلة، وحمل النفس على مراعاتها تطبيقاً وسلوكاً يحتاج إلى الصبر، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهۡجُرۡهُمۡ هَجۡرٗا جَمِيلٗا ١٠﴾[5]

---

(١) سورة مريم: ٦٥.

(٢) سورة البقرة: ٤٥.

(٣) سورة طه: ١٣٢.

(٤) سورة الكهف: ٢٨.

(٥) سورة المزمل: ١٠.

ثانياً- الصبر عن المعاصي:

- وهو عنصر المقاومة للمغريات والشهوات التي بثت في طريق الناس، وزينت لهم اقتراف المآثم المحظورات، امتحاناً من الله ﷻ، قال رسول الله ﷺ: « حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ، وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ »[1].

- والإقبال على المكاره من المأمورات والإدبار عن الشهوات المنهي عنها لا يتأتى إلا لصبور، والصبر هنا أثر اليقين الحاسم، والتوجه الصادق إلى ما يرضي الله، وهو روح العفاف الذي يحمي المؤمن من أوزار الدنيا ومكر السيئات، لأجل ذلك فإن لسان المؤمن يلهج دائماً بالدعاء فيقول:

﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ ١٢٦﴾[2]

ثالثاً- الصبر على ما يصيب المؤمن من البلاء:

- وذلك بملاحظة حسن الجزاء، وانتظار روح الفرج، وتهوين البلية بِعَدِّ أيادي المنن، وبذكر سوالف النعم.

- والبلاء الذي يصيب المؤمن متعدد، في نفسه أو ماله أو منزلته أو أهله، وهذا مما لا يدخل تحت الاختيار كالمصائب مثل موت الأحبة، وهلاك الأموال، وعمى العين، وزوال الصحة، وسائر أنواع البلاء، فالصبر على ذلك من أعلى المقامات لأنه من ثمرات اليقين.

- وتلك كلها أعراض متوقعة وهيهات أن تخلو الحياة منها، وإذا لم يصب أحد بسيلها الطام ضربه رشاشها المتناثر.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) سورة الأعراف:١٢٦.

- وكل ذلك بتقدير الله وقدره، وهو امتحان واختبار وبلاء من الله ﷻ، لينال المؤمن بذلك المنزلة التي أعدت للصابرين، مع حب الله ﷻ ورضاه، ولا يساعده عل ذلك إلا الصبر الذي هو دواء لكل داء، قال تعالى:

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ
(١٥٥) الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ (١٥٦) أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ
وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ (١٥٧) ﴾[١]

ومن لطف الله ﷻ ورحمته أن جعل الامتحان بـــ (شيء) من البلايا —كما عبرت عنه الآية- وتنكير (شيء) هنا للتقليل والتحقير يدل على ذلك السياق، لأن ما هو أكثر وأكبر لا يطيقونه، فمسهم بشيء قليل من البلاء تخفيفاً عنهم ورحمة بهم، ومراعاة لضعفهم.

والبلاء هنا بلاء عام يصيب القلوب بالخوف، والبطون بالجوع، والأموال بالنقص، والأنفس بالموت، والثمرات بالآفات، وهذا البلاء العام لكل المخلوقات إنما لاختبارهم وإظهار درجة إيمانهم، قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ ﴾[٢]

وقال سبحانه وتعالى يصف المؤمنين الصادقين الناجحين في امتحان البلاء:

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ[٣] أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾[٤]

- هذا وقد جعل الله الاختبار والامتحان لتمييز الصادقين في الإيمان من المنافقين والكاذبين.

---

(١) سورة البقرة: ١٥٥-١٥٧.

(٢) سورة محمد: ٣١.

(٣) البأساء: الفقر، الضراء: المرض، حين البأس: الحرب.

(٤) سورة البقرة: ١٧٧.

قال سبحانه: ﴿الٓمٓ ١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ٣﴾[(١)]

– هذا وقد بيّنت السنة الشريفة أهمية هذا النوع من الصبر، وثوابه العظيم في كثير من الأحاديث النبوية، ومنها الحديث القدسي: (قال الله تعالى: إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدنه أو في ولده أو في ماله فاستقبلها بصبر جميل استحييت يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا)[(٢)].

– وعن النبي ﷺ قال: « مَا يُصِيبُ الْمُسْلِمَ مِنْ نَصَبٍ[(٣)] وَلاَ وَصَبٍ[(٤)] وَلاَ هَمٍّ وَلاَ حُزْنٍ وَلاَ أَذًى وَلاَ غَمٍّ حَتَّى الشَّوْكَةِ يُشَاكُهَا ، إِلاَّ كَفَّرَ اللَّهُ بِهَا مِنْ خَطَايَاهُ »[(٥)].

– وقال ﷺ: « مَا يَزَالُ الْبَلاَءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللَّهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ »[(٦)].

– وقد جعل العلماء الصبر على ثلاثة أشكال:

– الأول صبرٌ بالله ﷻ: أي صبر بالاستعانة به، والاعتقاد بأنه هو المصبر، وأن صبر العبد بربه لا بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ وَمَا صَبۡرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾[(٧)] يعني: إن لم يصبرك الله لن تصبر.

---

(١) سورة العنكبوت: ١–٣.

(٢) أخرجه الترمذي عن أنس ﷺ في جامع الأحاديث القدسية. (وهو ضعيف)

(٣)النَّصب : التعب

(٤)الوصب : الألم والسقم الدائم

(٥)أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة ﷺ.

(٦)أخرجه الترمذي في سننه عن أبي هريرة ﷺ وقال: حديث حسن صحيح.

(٧) سورة النحل: ١٢٧.

– **والثاني الصبر لله ﷻ**: وهو أن يكون الباعث على الصبر محبة الله وإرادة وجهه، والتقرب إليه لا إظهار قوة النفس، والاستحماد إلى الخلق وغير ذلك من الأعراض.

– **الثالث الصبر مع الله ﷻ**: وهو دوران العبد مع مراد الله منه، ومع أحكامه الدينية صابرا نفسه معها سائرا بسيرها مقيما بإقامتها يتوجه معها أنَّى توجهت ركائبها، وينزل معها أنَّى أقامت مضاربها.

– فهذا معنى كونه صابراً مع الله أي جعل نفسه وقفاً على أوامره ومحابه وهو أشد أنواع الصبر وأصعبها على النفس وهو صبر الصديقين.

الباب الخامس:

أبحاثٌ في التصوف

١- أولياء الله.

٢- كرامات الأولياء.

٣- التوسل.

أولاً– أولياء الله

–الولاية علاقة متبادلة بين العبد وربه، فهناك ولاية العبد لربه بأن يحب العبد ربه، فيسعى إلى رضاه وطاعته وتنفيذ أوامره، وتحقيق شرعه، وولاية الله لعبده بنصرته وحفظه ومساعدته وهدايته وإرشاده، قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ ١٩٦﴾[1]

– فقد اعتاد الناسُ في كثيرٍ من أمورِ حياتِهم أن يعتمدوا على أولياءِ أمورِهِمْ، فلكلِّ إنسانٍ وليٌّ يديرُ أمورَه ويتدبرُ أحوالَه من أبٍ أو أمٍّ أو أخٍ أو عمٍّ أو خال.

– لكن باستطاعةِ المؤمنِ أن يتخذَ ولياً أكملَ وأفضلَ وأَقْدَرَ وأقوى وأعلمَ من كلِّ ولي يعتمدُ عليه لا في أمورِ الدنيا فحسبُ بل في جميعِ أمورِ دنياه ودينِهِ وآخرتِهِ، ضامناً لنتائجِ اعتمادِهِ عليه الفوزَ والنجاحَ والتوفيقَ والحفظَ، إنه الله، اللهُ سبحانَهُ الذي ارتضى أن يكونَ ولياً لمن أرادَ، قال الله تعالى على لسان نبيه يوسف عليه السلام :

﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ١٠١﴾[2]

– فما أحرانا أن نواليَ اللهَ ونحن في أشدِّ الحاجةِ إلى وِلايتِهِ، أمامَ هذا الضعفِ الذي نعانيه، والفقرِ الذي نشكو منه، والأمراضِ التي أَلَمَّتْ بنا،والمصائبِ التي تواجِهُنا، والفُرْقةِ التي تُمَزِّقُنا، وتكالُبِ العدوِّ الذي يهدِّدُنا، والإحاطة التي أحطنا بها، والتهديد الذي يوجه إلينا.

– وإذا أرادَ المسلمُ وِلايةَ اللهِ، عليه أن يواليَ الله، حتى يواليَهُ اللهُ، وهذا يتطلَّبُ من العبدِ أن يلتزمَ طاعةَ اللهِ، فيتولَّى اللهُ حِفظَهُ ورِعايتَهُ، قال تعالى: ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[3]

---

(١)سورة الأعراف: ١٩٦.

(٢)سورة يوسف: ١٠١.

(٣)سورة الأعراف: ١٩٦.

- ومفهومُ الوليِّ عندَ كثيرٍ من الناس مفهومٌ خاطئٌ فمنهم مَنْ يَعُدُّ أن بعضَ المجذوبين البُسطاءَ المهملين لشأنِهم وثيابِهم هُمْ أولياءُ اللهِ.

- ومنهم مَنْ يَعُدُّ الذي يدّعي أنه يطيرُ في السماءِ ويمشي على الماءِ هو وليٌّ من أولياءِ اللهِ، ولو خالفَ أوامرَ اللهِ وكان عاصياً.

- وقد اتفقَ العلماءُ على أن الرجلَ لو طارَ في الهواءِ، أو مشى على الماءِ، لا يُغترُّ به حتى يُنْظَرَ إلى متَابَعتِهِ لكتابِ اللهِ وسُنةِ نبيِّه.

- هذا ومن جهةٍ ثانيةٍ فإن الوِلايةَ أيضاً لا تختصُّ بالعلماءِ والمربين والدعاةِ وأهلِ الذكر والعِرْفان، وإنما أولياءُ اللهِ هم الذين عَرَّفَ بهم القرآنُ في قولِهِ تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾﴾[(١)]

- فللولايةِ إذن صفتان: الإيمانُ والتقوى، فكلُّ مسلمٍ آمنَ إيماناً حقيقياً، واتقى اللهَ حقَّ تقاتِهِ، كان ولياً للهِ عَزَّ وَجَلَّ، قال الله تعالى مؤكداً ذلك: ﴿وَٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾﴾[(٢)]

- وقال سبحانه وتعالى أيضاً: ﴿إِنْ أَوْلِيَآؤُهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُتَّقُونَ﴾[(٣)]

- وروي عن النبيِّ ﷺ أنه جمع قريشاً فقالَ لهم: «إنَّ أوليائي منكم المتقون»[(٤)].

---

(١)سورة يونس: ٦٢-٦٤.

(٢)سورة آل عمران: ٦٨.

(٣)سورة الأنفال: ٣٤.

(٤)أخرجه الحاكم في المستدرك عن عبيد بن رفاعة، عن أبيه، عن جده.

- إذاً كلُّ مسلمٍ يصبحَ ولياً لله ﷻ إن كان إيمانُهُ يقينياً وكانت تقواه حقيقة.

- ومن تَحقَّقَتْ فيه هذهِ الوِلايةُ، تولّاه اللهُ بالعنايةِ والحفظِ والرعايةِ والبشرى في الدنيا وفي الآخرةِ وتحقَّقَ له الفوزُ العظيمُ كما قال الله تعالى:

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ۝٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ۝٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ لَا تَبۡدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ ۝٦٤﴾ (١)

- هذا وإن الله ﷻ يغار على أوليائه، فيحفظهم، ويحارب كل من عاداهم، يبين النبي ﷺ ذلك في قوله: « إِنَّ اللَّهَ قَالَ مَنْ عَادَى لِي وَلِيّاً فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، -ثم بين الله ﷻ كيف يصل المسلم إلى هذه الولاية فقال:- وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، -عند ذلك يستجيب الله لدعاء هذا الولي ويحقق آماله- وَإِنْ سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ، يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ » (٢).

- هذا من جهةٍ، ومن جهةٍ أخرى فالوِلاية لا تعني أبداً ضَعْفاً واستكانةً وفقراً وذُلاً وبُعْداً عن الدنيا وما فيها.

- بل الوِلايَةُ أنْ تَستمدَّ من اللهِ التأييدَ والفوزَ والحِفظَ، فهي تعني القوةَ والعِزةَ والغنى، والنصرَ المبينَ، والفوزَ العظيم.

---

(١)سورة يونس: ٦٢-٦٤.

(٢)أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه.

- عندما يكون المؤمن موالياً لله فهو يملِكُ عِزَّ الدنيا والآخرةِ وعزَّ النجاحِ والفرحِ، عزَّ القوةِ والنصرِ، وعزَّ الرفعةِ والسؤْدُدِ، فهو قويٌّ بالله، منتصرٌ بالله، موفقٌ بتوفيقِ الله، محفوظٌ بأمرِ اللهِ، وعند ذلك لاخوفٌ عليك ولا حَزَنٌ بل سرورٌ وفوزٌ ونجاحٌ وانشراحٌ.

- لاخوف عليك من أن يلحقك مكروه، ولا حزن من فوات مطلوب، فلا تخاف من مستقبل لا تعرفه، ولا تحزن من حاضر يمتحنك الله به، بل أنت راضٍ بأمر الله، مطمئن لعطاء الله، لأنك واليت الله، فوالاك الله.

- ولايةُ اللهِ لإبراهيمَ الخليلِ عليه السلام جعلت النارَ لا تُحرقه بل كانت: ﴿بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا﴾[1]

- ووِلايةُ اللهِ لموسى عليه السلام جعلَتِ البحرَ لايُغْرِقُهُ ومَنْ معَهُ:﴿قَالَ كَلَّآۖ إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهۡدِينِ﴾[2]

- ووِلايةُ اللهِ لسيدِنا محمدٍ ﷺ جعلَتْهُ يقولُ لصاحبِهِ وهو في الغارِ محاصَرٌ:

﴿لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[3] فنزل الأمنُ والفتحُ والسكينةُ والنصرُ والحِفْظُ.

- الولايةُ حفِظَتِ الأنبياءَ والرُسُلَ، والولايةُ حَفِظَتِ الصحابةَ والتابعين، والولايةُ حَفِظَتِ المؤمنين المتقين في كلِّ وقتٍ وحين.

- والوِلاية اليومَ تَحفظُ كلَّ مَنْ طلبها وسعى إليها وتقدَّمَ نحوَها وعَمِلَ بأركانها.

- الصحابةُ كلُّهم رضي الله عنهم كانوا أولياءَ للهِ فأعزَّهم اللهُ ونصَرهم وأجرى الفتوحاتِ على أيديهم وانتشرَ الدينُ بدعوتهم

---

(١)سورة الأنبياء: ٦٩.

(٢)سورة الشعراء: ٦٢.

(٣)سورة التوبة: ٤٠.

– التابعون كلُّهم كانوا أولياءَ لله فَدَوَّنُوا العلومَ الإسلاميةَ المختلفةَ، ونشروها في البلادِ، وتابعوا الفتوحاتِ الإسلاميةَ وانتشروا دعاةً معلِّمينَ وهادين مهديين.

– وأولياءُ الله في كلِّ زمان يحملون رايةَ الإسلامِ ويدافعون عنه في كلِّ مكان.

– ومقابلَ ولايةِ المسلمِ لله، فإنَّ الله ﷻ يتولاه في كلِّ شؤونِهِ في دينِهِ ودنياهُ وآخرتِهِ، فلا خوفٌ على هؤلاء الأولياءِ ولا هم يحزنون بل ويحقِّقُ اللهُ آمالَهم ويدفعُ عنهم آلامَهم ويستجيبُ دعاءَهم، فلهم البشرى في الحياةِ الدنيا وفي الآخرةِ ولهم الفوزُ العظيمُ.

– فإن افتقروا فاللهُ وَلِيُّهُمْ فبه يَغْنَوْن، وإن ضَعُفُوا فالله وليُّهم فبه يَقْوَوْن، وإن مرِضُوا فاللهُ وليُّهم فبه يُشْفَوْن، وإن ضاقت عليهم الدنيا بما رَحُبَتْ فاللهُ وليهم فبه يزولُ ضَعْفُهُم، وبه تُفْرَجُ كروبُهم وبه تزولُ آلامهم.

– وإن طلبوا شيئاً فالله وليُّهم يحقِّقُ لهم مطالبَهُمْ، ويستجيبُ دعاءهم ويحقّقُ لهم رغباتِهم، ويحفظُهم في دينِهم ودنياهم وآخرتِهم.

– وبما أن مقام الولاية مقام عظيم ومن الواجب أن يسعى كل مؤمن أن يصل إليه، فإن أهل التصوف ورجالاته هم من أولياء الله وأحبابه، يبغون بتربيتهم وتوجيههم وسلوكهم نقل المريد إلى هذا المقام مقام الولاية ليصبح ولياً لله، وهذا من أوائل اهتمامهم وسعيهم لإيصال مريديهم إلى هذا المقام الإيماني العالي الذي وصل إليه الصحابة بتزكية رسول الله ﷺ نفوسهم، وسعى الصحابة لإيصال التابعين إلى هذا المقام، ويتتابع العمل بهذه الطريقة إلى يوم الدين.

– ولو تتبعنا أخبار أولياء الله الذين والوا الله ووالاهم الله لوجدنا العجب العجاب من مظاهر عناية الله بهم، وتأييدهم، وتحقيق آمالهم في الدنيا قبل الآخرة، والآخرة خير وأبقى.

- (يروي اللواءُ الدكتور محمود شيت خطاب وهو من العراق: قصةً واقعية حقيقيةً جرت معه ملخصُها أن صديقاً له عنده زوجةٌ مؤمنةٌ تقيةٌ أي: هي من أولياءِ اللهِ اشتدَّ عليها المرضُ كثيراً فرأَتْ في نومِها أن شيخين صالحين أتياها فقالَ الأولُ لها: يا ابنتي لقد تعبت كثيراً وأمضَّكِ الألَمُ، وأنت بحاجةٍ إلى الراحةِ الطويلةِ في مستَقرٍّ مُريحٍ فتعالَيْ واستقري هنا وأشار إلى مكان يجاور مكانَهُ الذي هو فيه لتستريحي ولن تعاودَكِ الآلامُ في هذا المكانِ أبداً .

وقال الثاني: يا ابنتي سأكونُ في عَونِكِ حين تكونين بحاجة إلى العَوْنِ ولن أنساك أبداً، فلما سألَتْهما عن اسميهما قال الأول: أنا الشيخُ عبدُ القادرِ الجيلاني، وقال الثاني: أنا أبو أيوبَ الأنصاريُّ.

- يقولُ صاحب القصة فسألتني عن تفسيرِ هذا المنامِ فقلتُ لها خيراً إن شاء الله واستقر في نفسي أنها سَتَرْحَلُ إلى العَالَمِ الآخَرِ فتستريحُ الراحةَ الأبديةَ،ولكني لم أستطع أن أبوحَ لها بذلك، ولكن الذي حيرني في منامِها ما علاقةُ الشيخين بها وبموتها.

- وبعدَ مدةٍ وجيزةٍ ماتتْ هذه الوليةُ وأسرَعْتُ إلى زوجِها لتقديمِ المساعدةِ له فوجدتُه في حَيْرَةٍ من أمرِهِ وعلمتُ أن سببَ حَيْرَتِهِ أنها وصَّت أن تُدْفَنَ في مقبرةِ الشيخِ عبدِ القادرِ الجيلانيِّ وطلَبَ الزوجُ مني أن أسعى في تحقيقِ أمنيتِها لما يعرفُهُ من مكاني ومعارفي، وتوكَّلْتُ على الله وقمتُ باتصالاتي مع معرفتي صعوبةَ هذا الأمرِ فكم من شخصياتٍ كبيرةٍ جداً لم يُسمح لهم بالدفنِ في تلك المقبرةِ ولكن الميسِّرُ يَسَّرَ الأمرَ فقد هُيئ قبلَ أيامٍ قبرٌ بجانبِ قبرِ الشيخِ عبدِ القادرِ الجيلانيِّ، وسُمِحَ لنا باستخدامه، وصلينا المغرب في حرم مسجد عبدِ القادرِ الجيلانيِّ، وحينَ قُضيتِ الصلاةُ نادى الإمامُ يدعو المصلينَ إلى الصلاةِ على المرأةِ المسلمةِ وأنا أفكِّر في منامِها فقد حقَّقَ اللهُ رؤياها في دعوةِ الشيخِ عبدِ القادر لتكونَ إلى جانبه فأين مكانُ أبي أيوبَ الأنصاريِّ في رؤياها وفجأةً وقفَتْ سيارتان كبيرتان، تحملُ كلُّ واحدةٍ منهما ثلاثينَ حاجاً من

الأتراكِ، ترجَّلُوا مسرعينَ ودخلوا بابَ المسجدِ مُهَرْولينَ باتجاه حَرَمِ المسجدِ، ووجدوا أمامَهم صفاً يريدُ الصلاةَ على المرحومةِ فانضموا إلى ذلك الصفِ وشاركوا في الصلاة.

– وبعد أن قُضيتِ الصلاةُ التفتوا يسألونَ عن المرأةِ وكان زوجُها يتكلَّمُ التركيةَ فسلموا عليه وقالَ إمامُهم: أنا إمامُ مسجدِ أبي أيوبَ الأنصاريِّ وهذا خَطِيبُه وهؤلاءِ من المصلين في مسجدِهِ هنالكَ

وجدت الجواب وسارع إلى شفتي قولُ اللهِ ﷻ :

﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢﴾[1])[2].

– (تاجر مشهور في هذا البلد كانت يداه طويلتين في أعمال الخير والبر، ومساعدة الفقراء والمحتاجين وتَدْيينِ المعوزين والغارمين .

– خسرت تجارته، وأدت به إلى الإفلاس النهائي، مما اضطره إلى بيع كل ما يملك حتى منزله الذي يقطنه لإيفاء حقوق الآخرين عليه وحفظ سمعته وشرفه ، ولم يجد بيتاً يسكن فيه إلا مستودعاً صغيراً في قبو عمارة قديمة في حيٍ قديم قدمه له أحدُ أصدقائه من التجار .

– صبر هو وعائلته المؤمنة على قضاء الله تعالى وقدره وبلائه وامتحانه سنةً كاملة ، كانت الأسرة خلالها تعيش عيشة فقر لم تتعود عليها سابقاً أبدا ، ولكنها كانت أسرة مؤمنة صادقة صابرة شاكرة حامدة .

– كما كانت لا تترك صلاة التهجد وتتطيل السجود في الليل وكان التاجر يناجي ربه ، يارب : أنت العليم بحالي ، فلا تخيب رجائي .

– يارب : مارددت يوماً سائلاً ، وما طالبت مديوناً وكنت دائماً في عون عبادك، والتيسير على

---

(١)سورة يونس: ٦٢

(٢)محمود شيت خطاب: تدابير القدر.

المعسر منهم ، وها أنا اليوم على بابك كما عهدتني، محتاج إليك وأنت وعدت بعونك من أعان عبادك ، وبتيسيرك أمور من يسرَ عليهم وبتنفيس الكربة عمن نفس كُرب المكروبين .

يامَنْ يجيبُ دُعا المضطر في الظُّلَمِ   يا كاشفَ الضُّرِ والبلوى مع السقمِ

– كان هذا التاجر يناجي ربه باكياً ولم يكن أحدٌ يسمعه سوى الله الذي لا يغيب ولا ينام وهو السميع البصير وهو على كلِ شيء قدير .

– ارتفعت برقية هذا التاجر إلى الله ﷻ، فأصدر الله أمره بإسعاد هذا التاجر المؤمن الصادق وإنهاء محننته ومصيبته .

– **والسؤال** كيف كان الجوابُ العمليُ لذلك ، رأى الشيخ أحمد الحارون في منامه النبي ﷺ وهو يكلفه بتحقيق ما أمر الله به لهذا التاجر وهو شراء بيتٍ له على أن يكون واسعاً ممتلئاً بكل حاجاته وفي أجملِ حيّ من بقاع دمشق، وقد أَعلم النبيُ ﷺ الشيخ باسم التاجر ومكانه.استيقظ الشيخ أحمد الحارون واستعاد المنام في ذهنه ولكنه وقف حائراً كيف يشتري لهذا التاجر البيت المطلوب وهو لا يملك المال لشرائه، وما إن انتهى من استعراض أفكاره حتى سمع قرع الباب، ففتح الباب، وإذا بأحد تُجار هذا البلدِ الكبار يقدم له مبلغاً كبيراً من المال وقال له تصرف بما أمرك به النبي ﷺأسرع الشيخ إلى مكان التاجر وأخذ بيده باحثاً عمّا يحقق أمر الله واشترى له البيت المطلوب وانتقلت العائلة شاكرةً حامدةً .

– ما أعظم المؤمن عندما يكون مع الله مُطَبِّقاً لشرعه!.وما أعظمَ لُطف الله بعباده**!** [1].

– احفظِ الله يحفظْكَ هو أولُ شعاراتِ الوِلايةِ للهِ.

---

(١)محمد خالد رنكوسي: من أعلام الإحسان ص٣٣.

- (رابعةُ العدويةُ وقفَتْ ليلةً تُصَلّي فدخلَ عليها لِصٌّ وجمعَ محتوياتِ بيتِها وأرادَ أن يخرجَ من دارِها فلم يجدِ البابَ فوضعَ المتاع فرأى البابَ ثم أخذَ المتاعَ ليخرجَ فحُجِبَ عنه البابُ فتعجَّبَ من ذلك فَسَمِعَ نداءً يقول:

حَفِظَتْنا فحفِظْناها، وانشغلَتْ بنا فلا ننشغِلُ عنها، دعِ المتاعَ ترَ البابَ فتركَ المتاعَ وتابَ إلى الله ﷻ، هذه هي الوِلاية وهذا حفظُ اللهِ)[1].

۞ ۞ ۞

---

(١)انظر: محمد عطية خميس المحامي:رابعة العدوية.

ثانياً– كرامات الأولياء

– (الكرامة هي: أمر خارق للعادة، غير مقرون بالتحدي، يظهر على يد عبد ظاهر الصلاح ملتزم بمتابعة النبي ﷺ مصحوب بصحيح الاعتقاد والعمل الصالح، أما المعجزة، فتكون من الأنبياء وهي مقرونة بالتحدي) [١].

– أجرى الله ﷻ على أيدي الأنبياء والمرسلين معجزات خارقة للعادة، وهي إخراج الشيء من العدم إلى الوجود، والمعجزات لا تكون إلا للأنبياء.

– كذلك يجري الله ﷻ للأولياء كرامات: (بإجابة دعوة، وتمام حال، وقوة على فعل، وكفاية مؤونة، يقوم لهم الحق بها، وهي مما يخرج عن العادات) [٢].

– (ومن الفروق بين المعجزات والكرامات ما قاله الإمام أبو بكر بن فورك[٣]: أن الأنبياء عليهم السلام مأمورون بإظهارها والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها، والنبي ﷺ يدعي ذلك، ويقطع القول به، والولي لا يدعيها، ولا يقطع بكرامتها لجواز أن يكون ذلك مكراً) [٤].

– (والكرامة لا تكون إلا لولي، والولي هو صاحب العقيدة الصحيحة المواظب على العمل الصالح، والمتابعة للنبي ﷺ، وأما ما يجري على أيدي بعض الزنادقة كطعن أجسادهم بالأسلحة

---

(١)السفاريني: لوامع الأنوار البهية، جزء٢ ص٣٩٢.

(٢)انظر أبو بكر محمد الكلاباذي: التعرف لمذاهب أهل التصوف ص٧٤.

(٣)(ابن فورك) محمد بن الحسن بن فورك الأنصاري الأصبهاني، أبو بكر: واعظ عالم بالأصول والكلام، من فقهاء الشافعية.سمع بالبصرة وبغداد.وحدث بنيسابور، وبنى فيها مدرسة. وتوفي على مقربة منها سنة (٤٠٦ هـ / ١٠١٥ م). له كتب كثيرة [الأعلام للزركلي]

(٤)القشيري: الرسالة القشيرية، ص٣٥٤.

الحادة، وأكل النار والزجاج مع كونهم مجاهرين بالمعصية، منحرفين عن دين الله تعالى، فهو من قبيل الاستدراج، وأن الولي لا يستأنس بالكرامة، ولا يتفاخر بها على غيره) [١].

- (وقال علي الخواص رحمه الله: الكمل يخافون من وقع الكرمات على أيديهم، ويزدادون بها وجلاً لاحتمال أن تكون استدراجاً)[٢].

- قال العلامة فخر الدين الرازي: (إن صاحب الكرامة لا يستأنس بتلك الكرامة بل عند ظهور الكرامة يصير خوفه من الله تعالى أشد وحذره من قهر الله أقوى فإنه يخاف أن يكون ذلك من باب الاستدراج ، وأما صاحب الاستدراج فإنه يستأنس بذلك الذي يظهر عليه ويظن أنه إنما وجد تلك الكرامة لأنه كان مستحقاً لها وحينئذ يستحقر غيره ويتكبر عليه ويحصل له أمن من مكر الله وعقابه ولا يخاف سوء العاقبة فإذا ظهر شيء من هذه الأحوال على صاحب الكرامة دل ذلك على أنها كانت استدراجاً لا كرامة) [٣].

- وقد أجمع أهل الله وأولياؤه أن أجل الكرامات التقيد بأوامر القرآن الكريم والسنة المطهرة مع الابتعاد عن النواهي والمحرمات، فقد قال أبو القاسم القشيري: (واعلم أن من أجل الكرامات التي تكون للأولياء دوام التوفيق للطاعات والعصمة عن النواهي والمخالفات) [٤].

- وفي ذلك يقول الشيخ أبو الحسن الشاذلي رحمه الله: (الكرامة الحقيقية إنما هي حصول الاستقامة والوصول إلى كمالها، ومرجعها أمران: صحة الإيمان بالله ﷻ، واتباع ما جاء به رسول الله ﷺ ظاهراً وباطناً، فالواجب على العبد ألا يحرص إلا عليها، ولا تكون له همة إلا في الوصول

---

(١)يوسف خطار محمد: الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية ص٤٢٦.

(٢) الشعراني: اليواقيت والجواهر جزء٢، ص١١٣.

(٣) الرازي في تفسيره، تفسير سورة الكهف الآية ٩-١٢.

(٤) القشيري: الرسالة القشيرية، ص٣٥٦.

إليها، وأما الكرامة بمعنى خرق العادة، فلا عبرة بها عند المحققين إذ قد يرزق بها من لم تكتمل استقامته، وقد يرزق به المستدرجون)[١].

- وقال: (إنما هي كرامتان جامعتان محيطتان، كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان، وكرامة العمل على الاقتداء والمتابعة ومجانبة الدعاوي والمخادعة، فمن أعطيهما ثم جعل يشتاق إلى غيرهما فهو عبد مغتر كذاب ليس ذا حظ في العلم والعمل بالصواب)[٢].

- وقال الشيخ أحمد الحارون رحمه الله تعالى: (كرامتان ليس بعدهما كرامة: الإيمان والاستقامة، فإذا وجدتم رجلاً مستقيماً فلا تطلبوا منه كرامة)[٣].

- هذا وإن صاحب الكرامة عند الأولياء والصالحين ليس مفضلاً على غيره.

- قال الإمام الشافعي رحمه الله تعالى: (لا يلزم أن يكون كل من له كرامة من الأولياء أفضل من كل من ليس له كرامة منهم، بل قد يكون بعض من ليس له كرامة منهم أفضل من بعض من له كرامة، لأن الكرامة قد تكون لتقوية يقين صاحبها ودليل على صدقه وعلى فضله لا على أفضليته، وإنما الأفضلية تكون بقوة اليقين وكمال المعرفة بالله تعالى)[٤].

- كذلك فإن الأولياء يعدون عدم ظهور الكرامة ليس دليلاً على عدم الولاية، قال الإمام القشيري: (وليس كل كرامة لوليّ يجب أن تكون تلك بعينها لجميع الأولياء. بل لو لم يكن للولي كرامة ظاهرة عليه في الدنيا لم يقدح عدمها في كونه ولياً)[٥].

---

(١) حامد صقر: نور التحقيق، ص١٢٨.

(٢) المرجع السابق.

(٣) أبو محمد الخلال: كرامات الأولياء، ص١٥.

(٤) اليافعي:نشر المحاسن الغالية، ص١١٩.

(٥) القشيري: الرسالة القشيرية، ص٣٥٥

- وفي ذلك يقول الشيخ زكريا الأنصاري[1] في شرحه لرسالة القشيري عند هذا الكلام:

(بل قد يكون أفضل ممن ظهر له كرامات لأن الأفضلية إنما هي بزيادة اليقين لا بظهور الكرامة)[2].

- ويجب أن نعلم أن الكرامة قد تشبه السحر، فما الفرق بين الكرامة والسحر، أجاب على ذلك الشيخ محمد أمين الكردي، وقال: (الفرق بينها وبين السحر كونه يظهر على يد الفساق والزنادقة والكفار الذين هم على غير شريعة ومتابعة، وأما الكرامة فلا تقع إلا على يد من بالغ في الاتباع للشريعة، حتى بلغ الغاية) [3].

- ثم قال: (واعلم أن الكرامة عند أكابر الرجال معدودة من جملة رعونات النفس إلا إن كانت لنصرة دين أو جلب مصلحة، لأن الله تعالى هو الفاعل عندهم لا هم فالكون في مجاري أقداره أليق بالأدب) [4].

- (ولقد ثبتت كرامات الأولياء في كتاب الله تعالى، وفي سنة رسوله ﷺ وفي آثار الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم إلى يومنا هذا، وأقرها جمهور العلماء من أهل السنة والجماعة من الفقهاء والمحدثين والأصوليين ومشايخ الصوفية، وتصانيفهم ناطقة بذلك، كما ثبتت كذلك بالمشاهدة العيانية في مختلف العصور الإسلامية) [5].

---

(١)(زكريا الأنصاري) أبو يحيى: زكريا بن محمد بن أحمد بن زكريا الأنصاري السنيكي المصري الشافعي، شيخ الاسلام. قاض مفسر، من حفاظ الحديث.ولد في سنيكة (بشرقية مصر) وتعلم في القاهرة وتوفي سنة (٩٢٦ هـ / ١٥٢٠ م) له تصانيف كثيرة. [الأعلام للزركلي]

(٢)القشيري: الرسالة القشيرية، ص٣٥٥

(٣) محمد أمين الكردي: تنوير القلوب: ص٤٤٥.

(٤) المصدر نفسه ص٤٤٦.

(٥) عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف، ص٣٦١.

- **أولاً: أما الدليل من القرآن الكريم:**

فقد ذكر القرآن الكريم نماذج من الكرامات التي ظهرت على الأولياء نذكر من ذلك:

١- قوله سبحانه وتعالى عن مريم عليها السلام، ولم تكن نبياً ولا رسولاً:

﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا ۖ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا ۖ قَالَ يَٰمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا ۖ قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[(١)]

- وقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾﴾[(٢)]، وكان جذع النخلة يابساً، فاخضر وتساقط منه الرطب الجني، وكان هذا في غير أوان الرطب.

٢- قصة أصحاب الكهف وبقاؤهم في النوم سالمين عن الآفات مدة ثلاثمائة وتسع سنين، والأعاجيب التي ظهرت عليهم والكلب الذي معهم.

٣- قصة الخضر مع موسى عليهما السلام، وما ظهر على يديه وهي أمور مناقضة للعادة، ولم يكن نبياً، وإنما كان ولياً.

٤- قصة آصف بن برخيا مع سليمان عليه السلام على ما قاله جمهور المفسرين في قوله تعالى:

﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾[(٣)] فجاء بعرش بلقيس من اليمن إلى بلقيس قبل ارتداد الطرف.

ثانياً- الدليل من السنة الشريفة:

(١) سورة آل عمران: ٣٧.

(٢) سورة مريم: ٢٥.

(٣) سورة النمل: ٤٠.

– قصة جُرَيج العابد: فعَنْ أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قَالَ: «لَمْ يَتَكَلَّمْ فِي الْمَهْدِ إِلاَّ ثَلاَثَةٌ عِيسَى، وَكَانَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ، كَانَ يُصَلِّي، فَجَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ، فَقَالَ: أُجِيبُهَا أَوْ أُصَلِّي. فَقَالَتِ: اللَّهُمَّ لاَ تُمِتْهُ حَتَّى تُرِيَهُ وُجُوهَ الْمُومِسَاتِ[1] . وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ امْرَأَةٌ وَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِيًا، فَأَمْكَنَتْهُ مِنْ نَفْسِهَا فَوَلَدَتْ غُلاَمًا، فَقَالَتْ: مِنْ جُرَيْجٍ . فَأَتَوْهُ فَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ، وَأَنْزَلُوهُ وَسَبُّوهُ، فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الْغُلاَمَ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلاَمُ، قَالَ: الرَّاعِي. قَالُوا نَبْنِي صَوْمَعَتَكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ لاَ إِلاَّ مِنْ طِينٍ..... »[2] .

٢– قصة الثلاثة الذين دخلوا الغار، وانفراج الصخرة عنهم بعد أن سدت عليهم الباب: فعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوُا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ فَقَالُوا: إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمُ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ[3] قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ مَالاً، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْما، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ». قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا

---

(١) المومسات: الزانيات.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣)أغبق : أسقى. والغبوق: اللبن الذي يشرب في المساء.

قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ. فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهْيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ لَهُ: كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ. فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَسْتَهْزِئْ بِي. فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»(١) .

٣- قصة البقرة التي كلمت صاحبها: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: « بَيْنَمَا رَجُلٌ رَاكِبٌ عَلَى بَقَرَةٍ الْتَفَتَتْ إِلَيْهِ. فَقَالَتْ لَمْ أُخْلَقْ لِهَذَا، خُلِقْتُ لِلْحِرَاثَةِ، قَالَ: آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَأَخَذَ الذِّئْبُ شَاةً فَتَبِعَهَا الرَّاعِي، فَقَالَ الذِّئْبُ مَنْ لَهَا يَوْمَ السَّبُعِ، يَوْمَ لاَ رَاعِىَ لَهَا غَيْرِي. قَالَ: آمَنْتُ بِهِ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ »(٢) .

- أما الصحابة الكرام فقد نقل عنهم من الكرامات الشيء الكثير أذكر منها:

١-قصة أبي بكر ﷺ مع أضيافه في تكثير الطعام، حتى صار بعد الأكل منه أكثر مما كان: فقد كان عند أبي بكر أضياف، فقدم لهم الطعام، فلما أكلوا منه ربا من أسفله حتى إذا شبعوا قال

(١) أخرجه البخاري عن صحيحه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

لامرأته: يا أخت بني فراس ما هذا؟ قالت: وقرة عيني لهي ((تعني القصعة)) أكثر منها قبل أن يأكلوا....إلى آخر القصة[1].

٢- قصة عمر ﷺ وهو على منبر المدينة ينادي بقائده يا سارية الجبل: فعن عمرو بن الحارث قال : بينما عمر يخطب يوم الجمعة إذ ترك الخطبة فقال : (يا سارية الجبل – مرتين أو ثلاثا)، ثم أقبل على خطبته، فقال بعض الحاضرين: لقد جن، إنه لمجنون فدخل عليه عبد الرحمن بن عوف وكان يطمئن إليه فقال: إنك لتجعل لهم على نفسك مقالاً، بينا أنت تخطب إذ أنت تصيح: (يا سارية الجبل) أي شيء هذا قال: (والله إني ما ملكت ذلك رأيتهم يقاتلون عند جبل يؤتون من بين أيديهم ومن خلفهم فلم أملك أن قلت: يا سارية الجبل ليلحقوا بالجبل). فلبثوا إلى أن جاء رسول سارية بكتابه أن القوم لقونا يوم الجمعة فقاتلناهم حتى إذا حضرت الجمعة سمعنا مناديا ينادى: يا سارية الجبل مرتين ، فلحقنا بالجبل ، فلم نزل قاهرين لعدونا إلى أن هزمهم الله وقتلهم [2].

٣- قصة عثمان ﷺ مع الرجل الذي دخل عليه، فاخبره عما أحدث في طريقه من نظره إلى المرأة الأجنبية: ذكر التاج السبكي رحمه الله تعالى في الطبقات وغيره: (أنه دخل على عثمان ﷺ رجلٌ، كان قد لقي امرأة في الطريق، فتأملها، فقال له عثمان ﷺ: يدخل أحدكم، وفي عينيه أثر الزنى؟ فقال الرجل: أوحيٌ بعد رسول الله ﷺ؟ قال: لا، ولكنها فراسة المؤمن) [3].

٤- (قصة عبَّاد بن بشر وأسيد بن حضير رضي الله عنهما الذين أضاءت لهم العصا عندما خرجا من عند رسول الله ﷺ في ليلة مظلمة: عن أنس أن أسيد بن حضير الأنصاري ورجلاً آخر

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه عن عبد الرحمن بن أبي بكر ﷺ.

(٢) أخرجه أبو نعيم في الدلائل في جامع الأحاديث.

(٣) النبهاني: حجة الله على العالمين.

من الأنصار ،تحدثا عند النبي ﷺ في حاجة لهما، حتى ذهب من الليل ساعة وكانت ليلة شديدة الظلمة، ثم خرجا من عند رسول الله ﷺ وبيد كل واحد منهما عصية، فأضاءت عصا أحدهما لهما حتى مشيا في ضوئها، حتى إذا افترقت بهما الطريق أضاءت للآخر عصاه فمشى كل واحد منهما في ضوء عصاه حتى بلغ أهله)[1].

٥- قصة خبيب رضي الله عنه في قطف العنب الذي وجد في يده يأكله في غير أوانه فقد روى أبو هريرة رضي الله عنه: أن خبيباً كان أسيراً عند بني الحارث في مكة –في قصة طويلة- وفيها أن بنت الحارث كانت تقول: (ما رأيت أسيراً قط خيراً من خبيب، لقد رأيته يأكل من قطف عنب، وما بمكة يؤمئذ ثمرة، وإنه لموثق في الحديد، وما كان إلا رزقٌ رزقه الله)[2].

٦- (قصة أم أيمن رضي الله عنها، وكيف عطشت يوم هجرتها فنزل عليها دلو من السماء فشربت: فعن عثمان بن القاسم قال خرجت أم أيمن مهاجرة إلى رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة وهي ماشية ليس معها زاد وهي صائمة في يوم شديد الحر فأصابها عطش شديد حتى كادت أن تموت من شدة العطش قال وهي بالروحاء[3] أو قريباً منها فلما غابت الشمس قالت: إذ أنا بخفيف شيء فوق رأسي فرفعت رأسي فإذا أنا بدلو من السماء مدلى برشاء[4] أبيض قالت فدنا مني حتى إذا كان حيث أستمكن منه تناولته فشربت منه حتى رويت قالت فلقد كنت بعد ذلك اليوم الحار أطوف في الشمس كي أعطش وما عطشت بعدها)[5].

(١) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه.

(٣) الروحاء: قرية على بعد ليلتين من المدينة، بينهما أحد وأربعون ميلاً.

(٤)الرشاء: الحبل أو حبل الدلو.

(٥) أخرجه أبو نعيم في الحلية.

٧- قصة عبور العلاء بن الحضرمي ﷺ البحر على فرسه ونبع الماء بدعائه: فكان أبو هريرة ﷺ يقول: (رأيت من العلاء ثلاثة أشياء لا أزال أحبه أبدا، رأيته قطع البحر على فرسه يوم دارين وقدم من المدينة يريد البحرين، فلما كان بالدهناء(١) نفد ماؤهم فدعا الله فنبع لهم من تحت رملة فارتووا وارتحلوا، وأنسي رجل منهم بعض متاعه فرجع فأخذه ولم يجد الماء، وخرجت معه من البحرين إلى صف البصرة فلما كنا بلياس(٢) مات ونحن على غير ماء فأبدى الله لنا سحابة فمطرنا فغسلناه وحفرنا له بسيوفنا ولم نلحد له ودفناه ومضينا، فقال رجل من أصحاب رسول الله، ﷺ: دفناه ولم نلحد له فرجعنا لنلحد له فلم نجد موضع قبره)(٣).

٨- قصة خالد بن الوليد ﷺ في شربه السم: (عن أبي السفر(٤) قال نزل خالد بن الوليد الحيرة على أمر بني المرازبة فقالوا له احذر السم لا يسقيكه الأعاجم فقال: ائتوني به فأتي به فأخذه بيده ثم اقتحمه وقال: بسم الله فلم يضره شيئاً) (٥).

٩- قصة القصعة التي أكل منها سلمان الفارسي وأبو الدرداء رضي الله عنهما وسماعهما التسبيح : (بينما أبو الدرداء وسلمان يأكلان من صفحة إذا سبحت بما فيها)(٦).

١٠- قصة سفينة ﷺ مولى رسول الله ﷺ مع الأسد فعن محمد بن المنكدر ، أن سفينة مولى رسول الله ﷺ قال: « ركبت البحر فانكسرت سفينتي التي كنت فيها فركبت لوحا من ألواحها فطرحني اللوح في أجمة(٧) فيها الأسد فأقبل إلي يريدني فقلت: يا أبا الحارث، أنا مولى رسول الله

---

(١)الدهناء: من ديار بني تميم في الجانب الشرقي والشمالي من نجد.

(٢) بلياس من الصعاب، والصعاب اسم جبل بين اليمامة والبحرين وقيل: إنها رمال بين البصرة واليمامة.

(٣)ابن سعد: الطبقات الكبرى.

(٤)أبو السفر: سعيد بن يحمد، روى عن ابن عباس والبراء وعن سعيد بن جبير [الإكمال لابن ماكولا]

(٥) أخرجه أبو يعلى في مسنده، والبيهقي في دلائل النبوة.

(٦) أخرجه البيهقي في دلائل النبوة.

(٧) الأجمة: الغابة.

ﷺ فطأطأ رأسه، وأقبل إلي فدفعني بمنكبه حتى أخرجني من الأجمة، ووضعني على الطريق وهمهم فظننت أنه يودعني فكان ذلك آخر عهدي به »[1].

– (هذا غيض من فيض، وقليل من كثير مما ورد من كرامات عن صحابة رسول الله ﷺ، ثم توالى ورود الكرامات الكثيرة على أيدي الأولياء في عهد التابعين وتابعي التابعين إلى يومنا هذا، مما يصعب عده، ويضيق حصره، وقد ألف العلماء في ذلك مجلدات كثيرة، وصنف أكابر الأئمة منهم مصنفات في إثبات الكرامة للأولياء)[2].

۞ ۞ ۞

(١) أخرجه الحاكم في مستدركه.

(٢) عبد القادر عيسى: حقائق عن التصوف ص٣٧٠.

ثالثاً– التوسل

– يخطئ كثيرٌ من الناس قي معنى التوجه والتوسل، ويخلطون بينهما.

– **فالتوجه** لا يكون إلا لله، ولا يجوز لغيره، وهو الإقرار بالعقل والقلب بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وبأسمائه الحسنى، وصفاته العليا، وأنه القادر على كل شيء والمقدر لكل شيء وحاجات الخلق بيده ولا معطي إلا هو ولا مستجيب للدعاء إلا هو، وهو سبحانه الذي يقول:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾[(١)]

– فتوجه العبد دائماً في صلاته ودعائه وحاجاته ورغباته وآماله لله سبحانه وتعالى لا إلى غيره، واعتقاد هذا العبد أن الله ﷻ وحده الذي يحقق ما يرغب فيه العبد ويحب لأنه مالك الملك، والواحد الأحد، الفرد الصمد الذي يلجأ إليه لا إلى سواه.

– ويشير إلى هذا حديث النبي ﷺ حيث يقول: « وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ اللَّهُمَّ أَنْتَ الْمَلِكُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنْتَ. أَنْتَ رَبِّي وَأَنَا عَبْدُكَ ظَلَمْتُ نَفْسِي وَاعْتَرَفْتُ بِذَنْبِي فَاغْفِرْ لِي ذُنُوبِي جَمِيعاً إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ وَاهْدِنِي لأَحْسَنِ الأَخْلاَقِ لاَ يَهْدِي لأَحْسَنِهَا إِلاَّ أَنْتَ وَاصْرِفْ عَنِّي سَيِّئَهَا لاَ يَصْرِفُ عَنِّي سَيِّئَهَا إِلاَّ أَنْتَ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ وَالْخَيْرُ كُلُّهُ فِي يَدَيْكَ وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ أَنَا بِكَ وَإِلَيْكَ تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ أَسْتَغْفِرُكَ وَأَتُوبُ إِلَيْكَ»[(٢)].

---

(١) سورة البقرة: ١٨٦.

(٢) أخرجه مسلم عن علي بن أبي طالب ﵁.

- **والتوسل**: هو أن نلتجئ إلى الله ﷻ متوسلين إليه بالأنبياء والصالحين أي بأعمالهم الصالحة، ومكانتهم عند ربهم، أو توسل المسلم بأعماله الصالحة فهذا جائز، ودليله من القرآن والسنة، وإجماع الأمة.

- فالتوسل هو طريقة من طرق التضرع إلى الله ﷻ، وأحد أبواب دعائه والتوجه إليه سبحانه وتعالى، فالوسيلة هي كل ما جعله الله ﷻ سبباً في التقرب إليه، وباباً لقضاء الحوائج منه، قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[1]

- والمسلم عندما يتوسل بالنبي ﷺ أو بالرجل الصالح، إنما يتوسل به لما يعلم من كرامته ومنزلته وجاهه عند الله ﷻ فهو من الذين قال الله فيهم: ﴿يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾[2]

- ونعني بالجاه المنزلة التي يختص الله ﷻ بها من يشاء من عباده، قال تعالى:

﴿ يَخۡتَصُّ بِرَحۡمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٧٤ ﴾[3]

- كما أنه يجتبي سبحانه من يشاء، قال تعالى:

﴿ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ ١٣ ﴾[4]

---

(١) سورة المائدة:٣٥.

(٢) سورة المائدة:٥٤.

(٣) سورة آل عمران: ٧٤.

(٤) سورة الشورى:١٣.

– فالإنسان عندما يتوسل إلى الله تعالى بجاه نبي أو ولي فإن ذلك يعني أنه توسل إلى الله تعالى بما منَّ الله تعالى به على هذا العبد من منزلة واجتباء وما خصه الله من رحمته، وهذا مجمع على جوازه عند أهل الحقيقة.

– أما قول النبي ﷺ: « ...إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ....»[1].

– فإن هذا الحديث ليس المقصود به النهي عن السؤال والاستعانة بما سوى الله، كما يفيد ظاهر لفظه، وإنما المقصود به النهي عن الغفلة عن كون ما جرى من الخير على يد الأسباب أنه من الله، والتنبيه إلى أن ما كان من نعمة على يد المخلوقات، فهو من الله وبالله، لأنه لابد من تحقيق ما يريده الإنسان من الاستعانة بالأسباب البشرية مع قصده الاستعانة بالله مسبب الأسباب، والغرض الذي يرمي إليه الحديث ألا تحجب الأسباب عن رؤية المسبب ﷻ.

أولاً– الأدلة على جواز التوسل من القرآن الكريم:

– في القرآن الكريم آيات يستفاد منها جواز التوسل إلى الله ﷻ أذكر منها ما يلي:

١– قوله تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾[2]

لفظ الوسيلة في الآية عامٌ، فهو شامل للتوسل بالذوات الفاضلة من أنبياء وصالحين في حياتهم وبعد موتهم وبصالح الأعمال.

٢– قوله تعالى: ﴿ أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ﴾[3]

(١) أخرجه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) سورة المائدة:٣٥.

(٣) سورة الإسراء: ٥٧.

- فقد قيل في تفسير هذه الآية: (الوسيلة ما يتقرب به إلى الله تعالى، وقوله أيهم أقرب معناه ينظرون أيهم أقرب إلى الله تعالى، فيتوسلون به.

وقال الزجاج: أيهم أقرب يبتغي الوسيلة إلى الله تعالى ويتقرب إليه بالعمل الصالح ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ﴾ جنته ﴿وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ أي يطلب منه الحذر)[1].

٣- قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾[2]

- فالآية دليل على جواز التوسل والاستشفاع بالنبي ﷺ في سائر الأحوال، لأنه في قبره الشريف حيٌّ تعرض عليه أعمال أمته، فيدعو لهم ويستغفر.

- جاء في تفسير هذه الآية ما يلي: (وقد ذكر جماعة منهم: الشيخ أبو نصر بن الصباغ في كتابه "الشامل" الحكاية المشهورة عن العُتْبي، قال: كنت جالساً عند قبر النبي ﷺ ، فجاء أعرابي فقال: السلام عليك يا رسول الله، سمعت الله يقول: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُواْ ٱللَّهَ وَٱسْتَغْفَرَ لَهُمُ ٱلرَّسُولُ لَوَجَدُواْ ٱللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴿٦٤﴾﴾ وقد جئتك مستغفراً لذنبي مستشفعاً بك إلى ربي ثم أنشأ يقول:

يا خيرَ من دُفنَت بالقاع أعظُمُه ... فطاب منْ طيبهنّ القاعُ والأكَمُ

نَفْسي الفداءُ لقبرٍ أنت ساكنُه ... فيه العفافُ وفيه الجودُ والكرمُ

ثم انصرف الأعرابي فغلبتني عيني، فرأيت النبي ﷺ في النوم فقال: يا عُتْبي، الحقْ الأعرابيّ فبشره أن الله قد غفر له)[3].

---

(١) تفسير البغوي.

(٢) سورة النساء: ٦٤.

(٣) تفسير ابن كثير.

وذكر ذلك الإمام النووي في كتابه الإيضاح والمجموع وزاد البيتين التاليين:

أنت الشفيع الذي ترجى شفاعته　　　على الصراط إذا ما زلت القدم

وصاحباك فلا أنساهما أبدا　　　مني السلام عليكم ما جرى القلم[1]

ثانياً– الأدلة من الأحاديث النبوية الشريفة وآثار الصحابة:

وهي أيضاً كثيرة ومتعددة ذكرت في عدة كتب اهتمّت بهذا الموضوع أذكر منها:

١- حديث عُثْمَانَ بْنِ حُنَيْفٍ فقد روى: أَنَّ رَجُلاً ضَرِيراً أَتَى النَّبِيَ ﷺ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُعَافِيَنِي. فَقَالَ: «إِنْ شِئْتَ أَخَّرْتُ ذَلِكَ فَهُوَ أَفْضَلُ لآخِرَتِكَ وَإِنْ شِئْتَ دَعَوْتُ لَكَ». قَالَ لاَ بَلِ ادْعُ اللَّهَ لِي. فَأَمَرَهُ أَنْ يَتَوَضَّأَ وَأَنْ يُصَلِّىَ رَكْعَتَيْنِ وَأَنْ يَدْعُوَ بِهَذَا الدُّعَاءِ «اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ وَأَتَوَجَّهُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّكَ مُحَمَّدٍ ﷺ نَبِيِّ الرَّحْمَةِ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَتَوَجَّهُ بِكَ إِلَى رَبِّى فِي حَاجَتِي هَذِهِ فَتُقْضَى وَتُشَفِّعُنِي فِيهِ وَتُشَفِّعُهُ فِيَّ». قَالَ: فَفَعَلَ الرَّجُلُ فَبَرَأَ[2].

فقوله إني أسألك وأتوجه إليك توسلٌ ظاهر بذاته وجاهه ﷺ وقد اعتمده العلماء المحدثون والحفاظ في كتب السنة في صلاة الحاجة حاثين الأمة عليها.

٢- حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه حيث روى عن رسول الله ﷺ أنه قال: « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الصَّلاَةِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَاىَ هَذَا فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشَرًا[3] وَلاَ بَطَرًا[4] وَلاَ رِيَاءً وَلاَ سُمْعَةً وَخَرَجْتُ اتِّقَاءَ سُخْطِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ فَأَسْأَلُكَ أَنْ

---

(١) النووي: الإيضاح والمجموع، القصة تم ذكرها عند ابن قدامة في كتابه المغني جزء٧ ص٤٢٠، وأبو الفرج بن قدامة في كتابه الشرح الكبير جزء٣ ص ٤٩٤، والشيخ منصور البهوتي في كتابه المعروف بكشاف القناع، وهو من أشهر كتب المذهب الحنبلي جزء٥ ص٣٠، ولم يذكر واحدٌ منهم أن هذا الفعل إشراك بالله فيكون إقرار منهم بالتوسل.

(٢) أخرجه أحمد والنسائي والترمذي وابن ماجه وابن خزيمة والحاكم وقال أبو إسحاق هذا حديث صحيح.

(٣)الأشر : الطغيان بالنعمة.

(٤)البطر : التكبر على الحق فلا يقبل.

تُعِيذَنِي مِنَ النَّارِ وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ »(١).

(وهذا حثّ ظاهر من النبي ﷺ للصحابة على التوسل إلى الله تعالى بحقّ سائليه عليه، والسائلون: جمع يشمل الأحياء والأموات ومن كان حاضراً ومن غائباً، وفي الحديث دليل التوسل بالعمل الصالح وهو ممشى الرجل إلى المسجد لوجه الله، فالشرع لم يفرق بين التوسل بالذوات الفاضلة وبين التوسل بالعمل الصالح، بل لقائل أن يقول: كيف لا يجوز التوسل بذات النبي ﷺ الذي هو أشرف خلق الله، ويجوز التوسل بصلاة العبد وصيامه وصدقته وكلا الأمرين خلق الله)(٢).

٣- حديث سيدنا علي ﷺ أن النبي ﷺ لما دفن فاطمة بنت أسد أم سيدنا علي رضي الله عنهما قال: « اللهم بحقي وحق الأنبياء من قبلي اغفر لأمي بعد أمي» (٣).

٤- عَنْ أَنَسِ بن مالك ﷺ أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ﷺكَانَ إِذَا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بِالْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَقَالَ: (اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا. قَالَ: فَيُسْقَوْنَ)(٤) .

٥- عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال، قال رسول الله ﷺ:« انْطَلَقَ ثَلاَثَةُ رَهْطٍ مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوَوُا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ ، فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ فَقَالُوا إِنَّهُ لاَ يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلاَّ أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ . فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمُ

---

(١) أخرجه ابن ماجه وأحمد والطبراني والبيهقي وغيرهم.

(٢) الشيخ يوسف خطار محمد: الموسوعة اليوسفية في بيان أدلة الصوفية.

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، وأبو نعيم في الحلية والهيثمي في مجمع الزوائد.

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه.

اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ ، وَكُنْتُ لاَ أَغْبِقُ[١] قَبْلَهُمَا أَهْلاً وَلاَ مَالاً ، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا ، فَلَمْ أُرِحْ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا ، فَحَلَبْتُ لَهُمَا غَبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقَ قَبْلَهُمَا أَهْلاً أَوْ مَالاً ، فَلَبِثْتُ وَالْقَدَحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاظَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ ، فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غَبُوقَهُمَا ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ ، فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ ». قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:« وَقَالَ الآخَرُ اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ ، فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا ، فَامْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمَّتْ بِهَا سَنَةٌ مِنَ السِّنِينَ ، فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عِشْرِينَ وَمِائَةَ دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا ، فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ لاَ أُحِلُّ لَكَ أَنْ تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلاَّ بِحَقِّهِ . فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا ، فَانْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهْىَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أَعْطَيْتُهَا ، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ . فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ ، غَيْرَ أَنَّهُمْ لاَ يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا . قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أُجَرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ ، غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَثَمَّرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الأَمْوَالُ ، فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي . فَقُلْتُ لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ . فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لاَ تَسْتَهْزِئْ بِي. فَقُلْتُ: إِنِّي لاَ أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَاقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»[٢] . وفي هذا الحديث دلالة واضحة على توسل المسلم بأعماله الصالحة لتحقيق ما يحب ويرغب فيه ويأمل أو في دفع بلاء أو مصيبة،أو قدر وقع عليه.

ثالثاً– أقوال العلماء الكبار من أئمة الفقه والعلوم الأخرى:

---

(١)أغبق : أسقى والغبوق شرب آخر النهار مقابل الصبوح، والغبوق : اللبن الذي يشرب في المساء.

(٢) أخرجه البخاري عن صحيحه.

كلهم أجمعوا بجواز التوسل وساقوا الأدلة التي ذكرنا بعضها، ومما يؤيد قولنا ويثبت جواز التوسل ما ورد عن الشيخ ابن تيمية رحمه الله تعالى عندما سئل هل يجوز التوسل بالنبي ﷺ فأجاب: (الحمد لله التوسل بالإيمان به ومحبته وطاعته والصلاة والسلام عليه وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك مما هو من أفعاله وأفعال العباد المأمور بها في حقه مشروع باتفاق المسلمين) (١).

- وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في رسالته الموجهة لأهل القصيم مستنكراً بشدة على من نسب إليه تكفير المتوسل بالصالحين: (إن سليمان بن سحيم افترى عليَّ أموراً لم أقلها، ولم يأتِ أكثرها على بالي، فمنها: أني أكفر من توسل بالصالحين، وأني أكفر البوصيري لقوله: يا أكرم الخلق، وأني أحرق دلائل الخيرات، وجوابي عن هذه المسائل أن أقول:

﴿سُبْحَانَكَ هَٰذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾﴾ (٢)) (٣).

- وسئل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عن قولهم في الاستسقاء: لا بأس بالتوسل بالصالحين، فأجاب بكلام كثير منه: (... ولكن يقول في دعائه أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بعبادك الصالحين أو يقصد قبراً معروفاً أو غيره يدعو عنده) (٤). وهذا يدل على جواز التوسل عنده.

- كذلك فإن الشيخ محمد بن ناصر الألباني -وهو كبير شيوخ المذهب الوهابي في سورية- يذكر: (أنه يجوز التوسل بأسماء الله وصفاته، وبعمل الداعي، ودعاء رجل صالح آخر) (٥).

---

(١) ابن تيمية: الفتاوى الكبرى، جزء ١ ص٢٤٠.

(٢) سورة النور:١٦.

(٣)الرسالة الأولى والحادية عشرة من رسائل محمد بن عبد الوهاب، القسم الخامس ص١٢، وص٦٤.

(٤) فتاوى الشيخ محمد بن عبد الوهاب في مجوعة المؤلفات القسم الثالث ص٦٨ التي نشرتها جامعة الإمام محمد بن مسعود الإسلامية في أسبوع الشيخ محمد بن عبد الوهاب. (والغريب من الذين يُقِرّون أسبوع محمد بن عبد الوهاب وينكرون مولد النبي ﷺ محمد بن عبد الله السنوي).

(٥) نقله عنه عيد العباسي في كتابه (التوسل أنواعه وأحكامه) ذلك الذي قال عنه مؤلفه إنه مقالات كتبها وألقاها الشيخ ناصر الألباني.

- وقال بعد أن ساق أدلة متعددة : (فمما سبق تعلم أن التوسل هو مشروع دلت عليه نصوص الكتاب والسنة وجرى عليه عمل السلف الصالح، وأجمع عليه المسلمون وهو:

١- التوسل باسم من أسماء الله تبارك وتعالى أو صفة من صفاته.

٢- التوسل بعمل صالح قام به الداعي.

٣- التوسل بدعاء رجل صالح.

٤- ثم ينقل أقوال الأئمة المعتمدين في مسألة التوسل فيقول:

فأجاز الإمام أحمد التوسل بالرسول ﷺ وحده، وأجاز غيره كالإمام الشوكاني التوسل به وبغيره من الأنبياء والصالحين) [(١)].

وأخيراً: نجد أن للتوسل أنواعاً عدة نذكرها باختصار[(٢)]:

١- التوسل باسم من أسماء الله سبحانه وتعالى:

- قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ﴾[(٣)]

- ويستدل على التوسل بأسماء الله تعالى بما روته عَائِشَة رضي الله عنها قَالَتْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ:

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ بِاسْمِكَ الطَّاهِرِ الطَّيِّبِ الْمُبَارَكِ الأَحَبِّ إِلَيْكَ الَّذِي إِذَا دُعِيتَ بِهِ أَجَبْتَ وَإِذَا سُئِلْتَ بِهِ أَعْطَيْتَ وَإِذَا اسْتُرْحِمْتَ بِهِ رَحِمْتَ وَإِذَا اسْتُفْرِجْتَ بِهِ فَرَّجْتَ ». قَالَتْ وَقَالَ ذَاتَ يَوْمٍ «يَا عَائِشَةُ هَلْ عَلِمْتِ أَنَّ اللَّهَ قَدْ دَلَّنِي عَلَى الِاسْمِ الَّذِي إِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ ». قَالَتْ فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي فَعَلِّمْنِيهِ. قَالَ:

---

(١) محمد ناصر الألباني: شرح العقيدة الطحاوية، ص٤٦.

(٢) انظر: مصطفى الحمصي: الثقافة النبوية ص٢٠٠.

(٣) سورة الأعراف: ١٨٠.

« إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لَكِ يَا عَائِشَةُ ». قَالَتْ فَتَنَحَّيْتُ وَجَلَسْتُ سَاعَةً ثُمَّ قُمْتُ فَقَبَّلْتُ رَأْسَهُ ثُمَّ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ عَلِّمْنِيهِ. قَالَ: « إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لَكِ يَا عَائِشَةُ أَنْ أُعَلِّمَكِ إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي لَكِ أَنْ تَسْأَلِي بِهِ شَيْئًا مِنَ الدُّنْيَا ». قَالَتْ: فَقُمْتُ فَتَوَضَّأْتُ ثُمَّ صَلَّيْتُ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ قُلْتُ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَدْعُوكَ اللَّهَ وَأَدْعُوكَ الرَّحْمَنَ وَأَدْعُوكَ الْبَرَّ الرَّحِيمَ وَأَدْعُوكَ بِأَسْمَائِكَ الْحُسْنَى كُلِّهَا مَا عَلِمْتُ مِنْهَا وَمَا لَمْ أَعْلَمْ أَنْ تَغْفِرَ لِي وَتَرْحَمَنِي.

قَالَتْ فَاسْتَضْحَكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: « إِنَّهُ لَفِي الأَسْمَاءِ الَّتِي دَعَوْتِ بِهَا »(١).

وبقوله ﷺ:« مَا أَصَابَ أَحَداً قَطُّ هَمٌّ وَلاَ حَزَنٌ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي عَبْدُكَ وَابْنُ عَبْدِكَ وَابْنُ أَمَتِكَ نَاصِيَتِي بِيَدِكَ مَاضٍ فِيَّ حُكْمُكَ عَدْلٌ فِيَّ قَضَاؤُكَ أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَداً مِنْ خَلْقِكَ أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي وَنُورَ صَدْرِي وَجَلاَءَ حُزْنِي وَذَهَابَ هَمِّي. إِلاَّ أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّهُ وَحُزْنَهُ وَأَبْدَلَهُ مَكَانَهُ فَرَجاً». قَالَ فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلاَ نَتَعَلَّمُهَا فَقَالَ: « بَلَى يَنْبَغِي لِمَنْ سَمِعَهَا أَنْ يَتَعَلَّمَهَا »(٢).

٢- التوسل بجاه النبي ﷺ أو حرمته:

كأن يقول: (أتوسل إليك بجاه نبيك عندك أو حرمته). أي: اجعل قدر نبيك العظيم ومنزلته العالية عندك سبباً في قضاء حاجتي، ولاشك أن قدر سيدنا محمد ﷺ وجاهه عند الله ﷯ عظيم، فهو خير الخلق وأحبهم إلى الله ﷯، وبالطبع فليس المسؤول هنا هو النبي ﷺ، وإنما المسؤول هو الله ﷯، والرسول ﷺ هو متوسل بقدره وجاهه عند الله ﷯.

٣- التوسل بحق النبي ﷺ:

كأن يقول: (اللهم إني اسألك بحق نبيك المصطفى عندك) وهو راجع إلى معنى الجاه والحرمة السابقة، ويستدل على ذلك بقول النبي ﷺ: « مَنْ خَرَجَ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى الصَّلاَةِ فَقَالَ اللَّهُمَّ إِنِّي

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه.

(٢) أخرجه أحمد وابن حبان والحاكم في مستدركه عن عبد الله بن مسعود ﵁.

أَسْأَلُكَ بِحَقِّ السَّائِلِينَ عَلَيْكَ وَأَسْأَلُكَ بِحَقِّ مَمْشَايَ هَذَا فَإِنِّي لَمْ أَخْرُجْ أَشَرًا[1] ولاَ بَطَرًا[2] وَلاَ رِيَاءً وَلاَ سُمْعَةً وَخَرَجْتُ اتِّقَاءَ سُخْطِكَ وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِكَ فَأَسْأَلُكَ أَنْ تُعِيذَنِي مِنَ النَّارِ وَأَنْ تَغْفِرَ لِي ذُنُوبِي إِنَّهُ لاَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ أَنْتَ، أَقْبَلَ اللَّهُ عَلَيْهِ بِوَجْهِهِ وَاسْتَغْفَرَ لَهُ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ »[3].

٤-التوسل بذات النبي ﷺ:

وذلك على معنى الاستشفاع به إلى الله تعالى، لبلوغ المأرب كأن يقول: (اللهم إني أتوسل إليك بنبيك محمد أن تقضي حاجتي) والشاهد على ذلك حديث الرجل الضرير الذي مر معنا سابقاً.

٥- التوسل بالأعمال الصالحة:

ودليله حديث أصحاب الغار الثلاثة الذين توسلوا بصالح أعمالهم إلى الله تعالى، وقد مر معنا سابقاً.

٦- التوسل بجاه الصالحين:

ودليله ما روي عن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه عندما توسل بعم النبي ﷺ العباس عندما أراد الاستسقاء.

۞ ۞ ۞

(١)الأشر : الطغيان بالنعمة.

(٢)البطر : التكبر على الحق فلا يقبل.

(٣) أخرجه ابن ماجه وأحمد والطبراني والبيهقي وغيرهم عن أبي سعدي الخدري رضي الله عنه، وهو حديث حسن .

الباب السادس:

من أعلام التصوف (حسب وفاتهم)

١- الحسن البصري.(ت ١١٠هـ)

٢- إبراهيم بن أدهم.(ت١٦١هـ/ ٧٧٨م)

٣- الفضيل بن عياض. (ت١٨٧هـ/٨٠٣م).

٤- شقيق البلخي. (ت ١٩٤هـ/٨١٠م)

٥- بشر الحافي. (ت ٢٢٧هـ/٨٤١م)

٦- حاتم الأصم. (ت٢٣٧هـ/٨٥١م)

٧- سري السقطي. (ت ٢٥٣هـ/٨٦٧م)

٨- أبو يزيد البسطامي. (ت ٢٦١هـ/٨٧٥م)

٩- الجنيد بن محمد.(ت٢٩٧هـ/ ٩١٠م)

١٠- محمد الغزالي. (ت٥٢٠هـ)

من أعلام التصوف[1]

- أعلام التصوف أكثر من أن يحصوا، وهم أعلام العلم والعلماء، وأهل الفضل والإحسان، وأصحاب التقوى والإيمان، وذو الذكر والعرفان وأكابر الصالحين وأهل اللّه، الذين ظهروا على مر العصور والأزمنة، وفي كل مكان وزمان، وحملوا راية الدعوة والإرشاد، والتزكية والإحسان، فبلغوا الأمانة، ونصحوا الأمة، وربوا الأجيال المتلاحقة، وحافظوا على السنة المطهرة، وعلى الأمة الخيّرة.

- ذكرت سيرهم وهم الألوف المؤلفة في العديد من كتب التراجم والسير نورد خلاصة بسيطة عن عدد قليل منهم للذكر لا للحصر، وللتعرف على هذه النماذج القدوة في العلم والصلاح والتزكية والإحسان والزهد والرضا والرضوان والصبر والشكر في كل حال من الأحوال، حتى أصحبوا منارات للهداية، وأئمةً في الزهد والصلاح والتقوى والورع والتوكل والرضا، يقتدي بهم مَنْ بعدهم من الذين ساروا على نهجهم وطريقتهم، فذاع صيتهم، وانتشر خبرهم وعلا أمرهم، وكثر الحديث عنهم، وعمَّ نفعهم في كل زمان ومكان وإلى يومنا هذا.

- هذا وإن الدارس لهؤلاء الأعلام يجد أن هناك تشابهاً بينهم في كثير من الأحيان في طريق وصولهم إلى معرفة الله ﷻ، واجتماع قلوبهم عليه، وذلك من خلال ما خصهم الله به من صحوة إيمانية، ودلالة ربانية عليه بعد أن كانوا في غفلة عنه، فأسرعوا إلى التمسك بهذا الطريق المستقيم والاستقامة عليه في أعلى مستواه، وأرقى محتواه، فأفاض الله على ألسنتهم من الأقوال التي فيها

---

(١) انظر سير السلف الصالحين: الإمام أبو القاسم إسماعيل الأصبهاني. والرسالة القشيرية:الإمام القشيري، وصفة الصفوة: للإمام أبي الفرج بن عبد الرحمن الجوزي، وسير أعلام النبلاء: للإمام الذهبي، وطبقات ابن سعد، وحلية الأولياء: لأبي نعيم، والكامل في التاريخ: لابن الأثير، والبداية والنهاية: لابن كثير. وطبقات الصوفية: للسلمي، وميزان الاعتدال: للذهبي.

العظة النيرة والحكمة البالغة والعبرة القيمة التي انتفع بها كل من صاحبهم، وكل من سار على دربهم، واطلع بسلامة قلب على أخبارهم وأقوالهم.

– وقد اخترت عشرة من أعلامهم للذكر لا للحصر، لنقف على أحوالهم وأقوالهم بصفتهم نماذج لأولئك الأعلام، مع الانتباه إلى أنهم ما عدا حجة الإسلام محمد الغزالي من الرعيل الأول، ومن القرون الخيرة التي ذكرها النبي ﷺ، فسنوات وفاتهم قبل القرن الثالث الهجري، وقد عاشوا في أزمان أئمة الفقه المجتهدين وأعلام الحديث رواية ودراية، فأخذوا عنهم وتعلموا، كما أخذ أولئك الأئمة عنهم واستفادوا، فكان عصرهم عصر الصفاء والنقاء والتمسك بالقرآن الكريم والسنة المطهرة العصرَ الذي لم تظهر فيه البدع في الدين أو البعد عنه فكانوا من القرون الخيرة التي ذكرها النبي ﷺ: ((خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)) [1].

۞ ۞ ۞

(١) متفق عليه عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

أولاً– الحسن البصري

– هو أبو سعيد الحسن بن أبي الحسن يسار البصري، كان من سادات التابعين وكبرائهم سناً ومقاماً، ولد لسنتين بقيتا من خلافة سيدنا عمر ﵁، وحنكه عمر ﵁ بيده.

– كان أبوه مولى لزيد بن ثابت الأنصاري ﵁ وأمه خيرة مولاة أم سلمة زوج النبي ﷺ وكانت أمه تغيب أحياناً فيبكي فتأخذه أم سلمة تعلله بثديها حتى تعود أمه، ولتكرر محاولات إسكاته در عليه ثديها فرضع منها فهو من بيت النبوة رضاعة.

– وقد رأى ثلاثين ومائة من أصحاب النبي ﷺ، وكان يشبه كلامه كلام الأنبياء، وكان رجلاً غلب عليه الحزن ، ومات في شهر رجب سنة عشر ومائة وهو ابن تسع وثمانين سنة.

– ويعدّه الصوفية في رأس سلسلة سند التصوف، فهم يقولون إنه أخذ الطريقة (ولبس الخرقة) من الإمام علي بن أبي طالب كرم اللّه وجهه، وعلي ﵁ أخذها من الرسول ﷺ.

– قال يونس بن عبيد (وهو من أصحاب الحسن): ما رأيت رجلاً قط أطول حزناً من الحسن، كان إذا أقبل كأنه أقبل من دفن أمه، وإذا جلس كأنه أسير قُدِّمَ ليضرب عنقه، وإذا تكلم كأن النار لم تخلق إلا له.

من أقواله:

- لا تضحك فإنك لا تدري لعل اللّه قد اطلع على بعض أعمالنا فقال: لا أقبل منكم شيئاً.
- لا تخرج نفس ابن آدم من الدنيا إلا بحسرات ثلاث، أنه لم يشبع مما جمع، ولم يدرك ما أحل، ولم يحسن الزاد لما قدم عليه.
- بئس الرفيقان: الدنيا والدرهم، لا ينفعانك حتى يفارقانك.

- لا تزال كريماً على إخوانك ما لم تحتج إلى ما في أيديهم فإذا احتجت إلى ما في أيديهم ثقل عليهم حديثك وُهنت عليهم.
- عظ الناس بفعلك ولا تعظهم بقولك.
- إذا رأيت الرجل ينافس في الدنيا فنافسه في الآخرة.
- الفكرة مرآة تريك حسناتك وسيئاتك.
- ما يسرني مودة ألف رجل بعداوة رجل واحد.
- نبكي على الميت ثلاثة أيام وعلى الأحمق حتى يموت.
- قيل له: إن الناس يقولون: إن الحجاج مغفور له، قال: آية ذلك أن يدع سيِّئ ما كان عليه.
- يا عجباً لقوم أمروا بالزاد ونودوا بالرحيل وحبس أولهم على آخرهم وهم قعود يلعبون.
- أصول الشر ثلاثة وفروعه ستة، فالأصول: الحسد والحرص وحب الدنيا، وفروعه: حب الرياسة، وحب الفخر، وحب الثناء، وحب الشبع، وحب النوم، وحب الراحة.
- من أحب الدنيا ذهب خوف الآخرة من قلبه.
- أكثروا من الاستغفار في بيوتكم وعلى موائدكم وفي طرقكم وفي أسواقكم وفي مجالسكم وأينما كنتم فإنكم لا تدرون متى تنزل المغفرة.
- المؤمن في الدنيا كالغريب لا ينافس في عزها ولا يجزع من ذلها، للناس حال وله حال.

- إن الرجل ليعمل بالحسنة فتكون نوراً في قلبه وقوة في بدنه وإن الرجل ليعمل بالسيئة فتكون ظلمة في قلبه ووهناً في بدنه.

- وكان من دعائه: اللهم عافيت فيما مضى فَعَافِ فيما بقي، اللهم أحسنت فيما مضى وأنت لما بقي.

- مسكين ابن آدم رضي بدار حلالها حساب، وحرامها عذاب، إن أخذه من حِلٍّ حوسب بنعيمه، وإن أخذه من حرام عُذب به.

- ابن آدم يستقل ماله ولا يستقل عمله، يفرح بمصيبته في دينه ويجزع بمصيبته في دنياه.

- كان يقول: لسان الحكيم من وراء قلبه إذا أراد أن يقول رجع إلى قلبه، فإن كان له قال، وإن لم يكن له أمسك.

- وكانوا يقولون: إن قلب الجاهل في طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه ما أتى على لسانه تكلم به.

- إياكم وما يشغل من الدنيا، فإنه لا يفتح رجل على نفسه باباً من الدنيا إلا سد عليه عشرة أبواب من عمل الآخرة.

- ابن آدم اصحب الناس بأي خلق شئت يصحبوك بمثله.

- قال أبو كعب صاحب الحرير: أردت سفراً، فأتيت الحسن، فقلت له: أَوْصِينِي، فقال: أعز أمر الله حيثما كنت يعزك، ففعلت: فلم أزل عزيزاً حتى رجعت.

ثانياً– إبراهيم بن أدهم

– هو أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور، من كدرة بلخ في خرسان[١]، كان من أبناء الملوك، فخرج يوماً يتصيد، فأثار ثعلباً أو أرنباً وهو في طلبه، فهتف به هاتف: يا إبراهيم ألهذا خلقت؟ أم بهذا أمرت؟ ثم هتف به: ما لهذا خلقت ولا بهذا أمرت.

– فنزل عن دابته، وصادف راعياً لأبيه، فأخذ جبة للراعي من صوف ولبسها، وأعطاه فرسه وما معه، ثم إنه دخل البادية، ثم دخل مكة المكرمة، وصحب بها سفيان الثوري والفضيل بن عياض، ثم انطلق إلى الشام طلباً للحلال فأقام بها غازياً (ت١٦١هـــ/ ٧٧٨م).

– وكان يعمل في البساتين والحصاد وغير ذلك فيأكل من عمل يده.

– قال حذيفة المرعشي[٢]: قدم شقيق البلخي (ستمر ترجمته) مكة وإبراهيم بن أدهم فيها فاجتمع الناس فقالوا: نجمع بينهما فجمعوا بينهما في المسجد الحرام.

فقال إبراهيم بن أدهم لشقيق: يا شقيق، على ماذا أصّلتم أصولكم؟ فقال شقيق: أصّلنا أصولنا أنا إذا رزقنا أكلنا، وإذا مُنعنا صبرنا. فقال إبراهيم بن أدهم: هكذا كلاب بلخ. إذا رزقت أكلت وإذا منعت صبرت، فقال شقيق: فعلى ماذا أصّلتم أصولكم يا أبا اسحاق؟ قال: أصّلنا أصولنا على إنا إذا رزقنا آثرنا، وإذا منعنا حمدنا وشكرنا. فقام شقيق وجلس بين يديه وقال: يا أبا إسحاق أنت أستاذنا.

---

(١)معنى خراسان بالفارسية: مطلع الشمس، والعرب إذا ذكرت المشرق كله قالوا فارس،فخراسان من فارس.

(٢)حذيفة بن قتادة المرعشي من العباد يروى عن أبي إسحاق الفزاري، وهو ممن لا يأكل إلا الحلال المحض سكن أنطاكية قيل مات سنة سبع ومائتين.

– وكان إبراهيم بن أدهم يحرس كرماً، فمر به جندي، فقال: أعطنا من هذا العنب، فقال: ما أمرني به صاحبه، فأخذ يضربه بسوطه، فطأطأ رأسه، وقال: اضرب رأساً طالما عصى اللّه تعالى، فأعجز الرجل ومضى.

– حدث ابن تميم[١] فقال: قلت لإبراهيم بن أدهم: منذ كم أنت بالشام؟ قال: منذ أربع وعشرين سنة، وما أتيتها لرباط –يعني لغزو– قلت: فَلِمَ؟ قال: لأشبع من خبز الحلال.

– خرج إبراهيم بن أدهم من بيت المقدس فمر بمَسْلَحَةٍ (قوم ذوي سلاح) فقالوا: عبدٌ؟ قال: نعم، قالوا: آبق؟ قال: نعم، فذهبوا به فحبسوه بسجن في طبريا[٢]، قال فجاء رجل يطلب عبداً له آبقاً من بيت المقدس، فقيل له: إن في مسلحة كذا قد أصابوا غلاماً آبقاً، وهو في السجن بطبريا، قال: فذهب إلى السجن فإذا هو بإبراهيم بن أدهم، قال: سبحان الله ما تصنع ها هنا، قال: أنا ها هنا، وما أحسن مكاني! قال: فرجع الرجل إلى بيت المقدس، فأخبرهم فجاء الناس من بيت المقدس إلى أمير طبريا فقالوا: إبراهيم ما يصنع في حبسك؟ قال: ما حبسته. قالوا: بلى، قال: فبعث إليه فجاءه، فقال له: لمَ حبست؟ فقال: مررت بمسلحة، فقالوا: عبدٌ، قلت: نعم وأنا عبد الله، قالوا: آبقٌ، قلت: نعم وأنا آبق من ذنوبي، قال: فخلى سبيله.

– كتب إبراهيم بن أدهم إلى سفيان الثوري: من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن طال أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.

---

(١)خلف بن تميم بن أبي عتّاب: أبو عبد الرحمن الكوفي. روى عن سفيان وزائدة وأبي بكر النَّهشلي، وجماعة. وروى عنه أبو إسحاق الفزاري مع تقدُّمه وأحمد بن الخليل البرجلاني وغيرهما. وقال ابن شيبة: ثقة صدوق، أحد النُّسّاك المجاهدين، صحب إبراهيم بن أدهم. توفي سنة ستٍ ومائتين، وروى له النسائيّ وابن ماجه. [الوافي بالوفيات]

(٢) طبريا معروفة في الشام سميت بذلك لأن أحد ملوك الروم بناها واسمه طباري.

- كان إبراهيم بن أدهم في البحر فعصفت الريح واشتدت، وإبراهيم ملفوف في كسائه، فجعل أهل السفينة ينظرون إليه، فقال له رجل منهم: يا هذا ما ترى ما نحن فيه من هذا الهول، وأنت نائم في كسائك؟ قال: فكشف إبراهيم رأسه فأخرجه من الكساء ثم رفع رأسه إلى السماء، فقال: اللهم قد أريتنا قدرتك فأرنا عفوك، قال:فسكن البحر وهدأت السفينة.

- قالَ: يا أهلَ البصرةِ قد ماتتْ قلوبُكُمْ بعشرةِ أشياءَ فكيفَ يُستجابُ لكم؟

أولاً: عرفْتُم اللهَ ولم تؤدوا حقَّهُ.

ثانياً: قرأْتُم القرآنَ ولم تعملوا به.

ثالثاً: ادَّعيْتُمْ حُبَّ الرسولِ وتركْتُمْ سُنَّتَهُ.

رابعاً: ادَّعيتم عداوةَ الشيطانِ وأطعْتُموه.

خامساً: ادَّعيتم دخولَ الجنةِ ولم تعملوا لها.

سادساً: ادعيتم النجاةَ من النار ورَمَيْتُمْ بها أنفسَكُمْ.

سابعاً: قلتم الموتُ حقٌّ ولم تستعِدُّوا له.

ثامناً: اشتغلتم بعيوبِ الناسِ وتركتم عيوبَكُمْ.

تاسعاً: دفنْتُمْ موتاكم ولم تَعْتبروا.

عاشراً: أكلتم نعمةَ الله ولم تشكروه عليها.

- **من أقواله:**

- من عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل، ومن أطلق بصره طال أسفه، ومن طال أمله ساء عمله، ومن أطلق لسانه قتل نفسه.
- اتخذ اللّه صاحباً، وذر الناس جانباً.
- من أراد الراحة فليخرج الخلق من قلبه حتى يستريح.
- كثرة النظر إلى الباطل يذهب بمعرفة الحق من القلب.
- ما صدق اللّه عبد أحب الشهرة.

۞ ۞ ۞

ثالثاً– الفضيل بن عياض

– هو الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي أبو علي، ولد بسمرقند ونشأ بكورة بأبيورد[1]، وقدم الكوفة وهو كبير، فسمع بها الحديث، ثم تعبد وانتقل إلى مكة فمات بها سنة (١٨٧هـ/٨٠٣م) في الشهر المحرم.

– قال الفضيل بن موسى (من أصحاب الفضيل): كان الفضيل شاطراً [2]يقطع الطريق بين أبيرود وسرخس، وكان سبب توبته أنه عشق جارية، فبينما هو يرتقي الجدار إليها سمع قارئاً يتلو قوله تعالى: ﴿ ۞ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ [3]

فقال: يارب قد آنَ، فرجع فآواه الليل إلى خربة، فإذا فيها رفقة، فقال بعضهم: نرتحل، وقال بعض آخر: حتى نصبح فإن فضيلاً على الطريق يقطع علينا، فتاب الفضيل وأمنهم، وجاور الحرم حتى مات.

– قال إسحاق بن إبراهيم (من أصحاب الفضيل): كانت قراءة الفضيل حزينة شهية بطيئة مترسلة، كأنه يخاطب إنساناً، وكان إذا مر بآية فيها ذكر الجنة يرددها، وكان يلقى له حصير بالليل في مسجده، فيصلي من أول الليل ساعة حتى تغلبه عينه، فيلقي نفسه على الحصير، فينام قليلاً ثم يقوم، فإذا غلبه النوم نام، ثم يقوم هكذا حتى يصبح.

---

(١) أبيورد: مدينة بخراسان بين سرسخ ونسا، فتحت عام ٣١هـــ على يد عبد الله بن عامر بن كريز، وهذه المدينة تابعة اليوم للتركستان الروسية.

(٢)الشاطر :هو بمعنى قاطع الطريق، وبمعنى: الخبيث الفاجر. وإطلاق المدرسين له على المتميز من الطلاب في الدرس خطأ فاحش، فليتنبه.[معجم المناهي اللفظية ومعه فوائد في الألفاظ للشيخ بكر أبو زيد]

(٣) سورة الحديد: ١٦.

- قال وسمعت الفضيل يقول: إذا لم تقدر على قيام الليل، وصيام النهار، فاعلم أنك محروم مكبل كبَّلتكَ خطيئتك.

- وعن مهران بن عمرو الأسدي (من أصحاب الفضيل) قال: سمعت الفضيل بن عياض عشية عرفة بالموقف، وقد حال بينه وبين الدعاء البكاء يقول: واسوأتاه وفضيحتاه إن لم تعْفُ عني.

- وعن أحمد بن سهل قال: قدم علينا سعد بن زنبور (من رواة الفضيل) فأتيناه فحدثنا قال: كنا على باب الفضيل بن عياض فاستأذنا عليه فلم يؤذن لنا، فقيل لنا إنه لا يخرج إليكم أو يسمع القرآن، قال: وكان معنا رجل مؤذن، وكان صيتاً، فقلنا له: اقرأ (ألهاكم التكاثر) فقرأها ورفع بها صوته، فأشرف علينا الفضيل، وقد بكى حتى بلَّ لحيته بالدموع، ومعه خرقة ينشف بها الدموع، وأنشأ يقول:

بلغت الثمانين أو جزتها فماذا أؤمل أو أنتظـــر؟

أتى لي ثمانون من مولدي وبعد الثمانين ما ينتظر؟

علتني السنون فأبلينني...

- قال: ثم خنقته العبرة، وكان معنا علي بن خشرم[1]، فأتمه لنا فقال:

علتني السنون فأبلينني فرقت عظامي وكلَّ البصر

- قال أبو علي الرازي (من أصحاب الفضيل): صحبت الفضيل ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكاً ولا متبسماً إلا يوم مات ابنه علي، فقلت له في ذلك، فقال: إنَّ الله أحب أمراً فأحببت ذلك.

---

(١)علي بن خشرم المروزي ابن أخت بشر الحافي. روى عنه مسلم والنسائي. توفي سنة سبع وخمسين ومائتين. [الوافي بالوفيات]

من أقواله:

- لو أن الدنيا بحذافيرها عرضت عليَّ ولا أحاسب بها لكنت أتقذرها كما يتقذر أحدكم الجيفة إذا مر بها أن تصيب ثوبه.
- ترك العمل لأجل الناس هو رياء، والعمل لأجل الناس هو شرك.
- قال لرجل: لأعلمنك كلمة هي خير من الدنيا وما فيها: والله لَئِنْ علم الله منك إخراج الآدميين من قلبك حتى لا يكون في قلبك مكان لغيره لم تسأله شيئاً إلا أعطاك.
- وعن الفضل بن الربيع[1] قال: حج أمير المؤمنين الرشيد فأتاني فخرجت مسرعاً فقلت يا أمير المؤمنين لو أرسلت إليّ أتيتك فقال: ويحك قد حاك في نفسي شيء فانظر لي رجلاً أسأله فقلت ها هنا سفيان بن عيينة فقال امض بنا إليه.

فأتيناه فقرعت الباب فقال من ذا؟ فقلت أجب أمير المؤمنين فخرج مسرعاً فقال يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك فقال له: خذ لما جئناك له رحمك الله (يريد النصيحة).

فحدثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم فقال أبا عباس اقض دينه فلما خرجنا قال: ما أغنى عني صاحبك شيئا انظر لي رجلاً اسأله فقلت له هاهنا عبد الرزاق بن همام[2] قال امض بنا إليه فأتيناه فقرعت الباب فقال من هذا؟ قلت: أجب أمير المؤمنين. فخرج مسرعاً فقال: يا أمير المؤمنين لو أرسلت إلي أتيتك قال خذ لما جئناك له.

فحادثه ساعة ثم قال له عليك دين قال نعم قال أبا عباس اقض دينه.

---

(١)الفضل بن الربيع أبو العباس الفضيل بن الربيع بن يونس،: وزير أديب حازم . تولى الوزارة في عهد الرشيد توفي سنة (٢٠٨ هـ /٨٢٤ م) [الأعلام للزركلي]

(٢)عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري أبو بكر الصنعاني: من حفاظ الحديث الثقات، من أهل صنعاء.كان يحفظ نحواً من سبعة عشر ألف حديث. له (الجامع الكبير) في الحديث. توفي سنة (٢١١ هـ/ ٨٢٧ م) [الأعلام للزركلي]

فلما خرجنا قال ما أغنى صاحبك شيئا انظر لي رجلا اسأله قلت ها هنا الفضيل بن عياض قال: امض بنا إليه فأتيناه فإذا وهو قائم يصلي يتلو آية من القرآن يرددها فقال اقرع الباب فقرعت الباب فقال من هذا فقلت أجب أمير المؤمنين فقال ما لي ولأمير المؤمنين فقلت سبحان الله أما عليك طاعة؟ أليس قد روي عن النبي ﷺ انه قال: ليس للمؤمن أن يذل نفسه فنزل ففتح الباب ثم ارتقى إلى الغرفة فأطفأ المصباح ثم التجأ إلى زاوية من زوايا البيت فدخلنا فجعلنا نجول عليه بأيدينا فسبقت كف هارون قبلي إليه فقال يا لها من كف ما ألينها إن نجت غداً من عذاب الله ﷻ فقلت في نفسي ليكلمنه الليلة بكلام نقيّ من قلب تقيّ فقال له خذ لما جئناك له رحمك الله فقال إن عمر بن عبد العزيز لما ولى الخلافة دعا سالم بن عبد الله ومحمد بن كعب القرظي ورجاء بن حيوة (وهم من علماء زمانه) فقال لهم إني قد ابتليت بهذا البلاء فأشيروا علي. فعد الخلافة بلاءِ وعددتها أنت وأصحابك نعمة فقال له سالم بن عبد الله إن أردت النجاة غداً من عذاب الله فصم عن الدنيا وليكن إفطارك من الموت وقال له محمد بن كعب القرظي إن أردت النجاة من عذاب الله فليكن كبير المسلمين عندك أباً وأوسطهم عندك أخاً وأصغرهم عندك ولداً فوقر أباك وأكرم أخاك وتحنن على ولدك.

وقال له رجاء ين حيوة إن اردت النجاة غدا من عذاب الله ﷻ فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك واكره لهم ما تكره لنفسك ثم مت إذا شئت وإني أقول لك إني أخاف عليك أشد الخوف يوماً تزل فيه الأقدام فهل معك رحمك الله من يشير عليك بمثل هذا؟ فبكى هارون بكاء شديدا حتى غشي عليه فقلت له ارفق بأمير المؤمنين فقال يا ابن أم الربيع تقتله أنت وأصحابك وارفق به أنا ثم أفاق فقال له: زدني رحمك الله فقال: يا أمير المؤمنين بلغني أن عاملا لعمر بن عبد العزيز شكا إليه فكتب إليه عمر يا أخي أذكرك طول سهر أهل النار في النار مع خلود الأبد وإياك أن ينصرف بك من عند الله فيكون آخر العهد وانقطاع الرجاء قال فلما قرأ الكتاب طوى

البلاد حتى قدم على عمر بن عبد العزيز فقال له ما أقدمك قال خلعت قلبي بكتابك لا أعود إلى ولاية أبداً حتى ألقى الله ﷻ.

قال فبكى هارون بكاء شديداً ثم قال له زدني رحمك الله فقال يا أمير المؤمنين إن العباس عم المصطفى ﷺ جاء إلى النبي ﷺ فقال يا رسول الله أمرني على إمارة فقال له النبي ﷺ إن الإمارة حسرة وندامة يوم القيامة فإن استطعت أن لا تكون أميرا فافعل .

فبكى هارون بكاء شديداً وقال له زدني رحمك الله فقال يا حسن الوجه أنت الذي يسألك الله ﷻ عن هذا الخلق يوم القيامة فإن استطعت أن تقي هذا الوجه من النار فافعل وإياك أن تصبح وتمسي وفي قلبك غش لأحد من رعيتك فإن النبي ﷺ قال: من أصبح لهم غاشاً لم يرح رائحة الجنة.

بكى هارون وقال له عليك دين قال نعم دين لربي يحاسبني عليه فالويل لي إن سألني والويل لي إن ناقشني والويل لي إن لم ألهم حجتي قال إنما أعني دين العباد قال إن ربي لم يأمرني بهذا أمر ربي أن أوحده وأطيع أمره فقال ﷻ: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ ﴿٥٨﴾ ﴾(١)

فقال له هذه ألف دينار خذها فأنفقها على عيالك وتَقَوَّ بها على عبادتك فقال: سبحان الله أنا أدلك على طريق النجاة وأنت تكافئني بمثل هذا؟ سلمك الله ووفقك.

ثم صمت فلم يكلمنا فخرجنا من عنده فلما صرنا على الباب قال هارون: أبا عباس إذا دللتني على رجل فدلني على مثل هذا، هذا سيد المسلمين.

(١) سورة الذاريات:٥٦-٥٨.

فدخلت عليه امرأة من نسائه فقالت يا هذا قد ترى ما نحن فيه من ضيق الحال فلو قبلت هذا المال فتفرجنا به فقال لها مثلي ومثلكم كمثل قوم كان لهم بعير يأكلون من كسبه فلما كبر نحروه فأكلوا لحمه.

فلما سمع هارون هذا الكلام قال ندخل فعسى أن يقبل المال فلما علم الفضيل خرج فجلس في السطح على باب الغرفة فجاء هارون فجلس إلى جنبه فجعل يكلمه فلا يجيبه فبينا نحن كذلك إذ خرجت جارية سوداء فقالت يا هذا قد آذيت الشيخ منذ الليلة فانصرف رحمك الله فانصرفنا.

ومن أقواله أيضاً:

- يجيء في آخر الزمان أقوام يكونون إخوان العلانية أعداء السريرة.
- لم يتزين الناس بشيء أفضل من الصدق وطلب الحلال.
- ثلاث خصال يقسين القلب: كثرة الأكل، وكثرة الكلام، وكثرة النوم.

رابعاً– شقيق البلخي

– هو أبو علي شقيق بن إبراهيم البلخي، ت(١٢٤هـ/٨١٠م) من مشايخ خراسان[١]، كان أستاذ حاتم الأصم (ستمر ترجمته لاحقاً)، وقد صحب إبراهيم بن الأدهم وأخذ عنه، قيل كان سبب زهده أنه كان من أبناء الأغنياء، خرج للتجارة إلى أرض الترك وهو حدث، فدخل بيتاً للأصنام، فرأى خادماً للأصنام قد حلق رأسه ولحيته، ولبس ثياباً أرجوانية، فقال شقيق للخادم: إن لك صانعاً حياً عالماً قادراً فاعبده، ولا تعبد هذه الأصنام التي لا تضر ولا تنفع، فقال: إن كان كما تقول فهو قادر على أن يرزقك ببلدك، فلماذا أتعبت نفسك بالمجيء إلى ها هنا للتجارة، فانتبه شقيق، وأخذ في طريق الزهد.

– وقيل: كان سبب زهده أنه رأى مملوكاً يلعب ويمرح في زمن قحطٍ، وكان الناس مهتمين به، فقال شقيق: ما هذا النشاط الذي فيك؟ أما ترى ما فيه الناس من الجدب والقحط؟ فقال ذلك المملوك: وما علي من ذلك، ولمولاي قرية خاصة يدخل له منها ما نحتاج نحن إليه، فانتبه شقيق وقال: إن كان لمولاه قرية، ومولاه مخلوق فقير ثم إنه لا يهتم لرزقه، فكيف ينبغي أن يهتم لرزقه ومولاه غني.

– قال حاتم الأصم: كان شقيق البلخي موسراً، وكان يعاشر الفتيان، وكان علي بن عيسى بن ماهان أمير بلخ، وكان يحب كلاب الصيد، ففقد كلباً من كلابه، فسعى برجل أنه عنده، وكان الرجل في جوار شقيق، فطلب الرجل فهرب، فدخل دار شقيق مستجيراً، فمضى شقيق إلى الأمير، وقال: خلُّوا سبيله، فإن الكلب عندي أرده عليكم خلال ثلاثة أيام، فخلُّوا سبيله وانصرف شقيق.

---

(١) خراسان: بلاد واسعة أول حدودها مما يلي العراق، وآخر حدودها مما يلي الهند [معجم البلدان].

- ولما كان اليوم الثالث، كان رجل من أصدقاء شقيق غائباً من بلخ، وقد رجع منها، فوجد في الطريق كلباً عليه قلادة، فأخذه، وقال: أهديه إلى شقيق، فحمله فنظر شقيق فإذا هو كلب الأمير، فسر به وحمله إلى الأمير، وتخلص من الضمان، فرزقه الانتباه، وتاب مما كان فيه وسلك طريق الزهد.

- وحكي أن حاتماً الأصمَّ قال: كنا مع شقيق في مصاف (موضع الحرب) نحارب الترك في يوم لا نرى فيه إلا رؤوساً تندر (تسقط)، ورماحاً تنقصف، وسيوفاً تنقطع، فقال لي شقيق: كيف ترى نفسك يا حاتم في هذا اليوم؟ تراه مثل ما كنت في الليلة التي زفّت إليك امرأتك؟ فقال: لا، والله. قال: لكنّي والله أرى نفسي في هذا اليوم مثلَ ما كنتُ تلك الليلة.

ثم نام بين الصفَّين ودرقته تحت رأسه حتى سمعت غطيطه.

من أقواله:

- إذا أَردت أن تعرف الرجل فانظر لما وعده الله ووعده الناس، فبأيهما يكون قلبه أوثق؟
- تُعرف تقوى الرجل في ثلاثة أشياء: في أخذِه، ومنعِه، وكلامِه.
- العاقل لا يخرج من هذه الثلاثة الأحرف، أوله: أن يكون خائفاً لما سلف منه من الذنوب، والثاني: لا يدري ما ينزل به ساعة بعد ساعة، والثالث: يخاف من إبهام العاقبة، لا يدري بما يختم له.
- احذر أن تهلك بالدنيا، فإن رزقك لا يعطى لأحد سواك.
- التوكل أن يطمئن قلبك بموعود الله.

- دخل الفساد في الخلق من ستة أشياء:

الأول: ضعف النية في عمل الآخرة، والثاني: صارت أبدانهم رهينة بشهواتهم.

والثالث: غلب طول الأمل على قرب أجلهم.

والرابع: اتبعوا أهواءهم ونبذوا سنة رسولهم ﷺ وراء ظهورهم.

والخامس: آثروا رضا المخلوقين فيما يشتهون على رضا خالقهم فيما يكرهون.

والسادس: جعلوا زلات السلف ديناً ومناقب لأنفسهم.

- من أراد أن يعرف معرفته بالله فلينظر إلى ما وعده الله ووعده الناس بأيهما قلبه أوثق.

- ميز بين ما تُعْطِي وتعطَى، إن كان من يعطيك أحب إليك فإنك محب للدنيا، وإن كان من تعطيه أحب إليك فأنت محب للآخرة.

- اتقِ الأغنياء، فإنك متى عقدت قلبك معهم وطمعت فيهم، فقد اتخذتهم رباً من دون الله.

- ليس شيء أحب إليَّ من الضيف، لأن رزقه ومؤونته على الله ولي أجره.

- إذا أردت أن تكون في راحة فَكُلْ ما أصبت، والبْس ما وجدت، وارضَ بما قضى الله عليك.

- مثل المؤمن كمثل رجل غرس نخلة وهو يخاف أن تحمل شوكاً ومثل المنافق كمثل رجل زرع شوكا وهو يطمع أن يحصد تمرا هيهات، كل من عمل حسنا فإن الله لا يجزيه إلا حسنا، ولا ينزل الأبرار منازل الفجار.

خامساً–بشر الحافي

– بشر بن الحارث الحافي يكنى أبا نصر المروزي ثم البغدادي المشهور بالحافي، وهو الإمام العالم المحدث الزاهد الرباني القدوة شيخ الإسلام، ولد في سنة (١٥٠هـ/ ٧٦٧م) وتوفي (٢٢٧هـ/٨٤١م). أصله من مرو، وقد سكن بغداد ومات فيها، وهو ابن أخت علي بن خشرم[1] صحب الفضيل بن عياض، وكان عالماً ورعاً يذهب مذهب سفيان الثوري في الفقه والورع جميعاً.

– قيل: إنه كان مع رفاقه في بيته يعصي الله ﷻ باللهو والطرب وشرب الخمور، فاجتاز بهم رجلٌ من الصالحين، وسمع ضوضاءهم، فدق بابه، فخرجت إليه جاريته، فسألها: صاحب الدار حرٌ أم عبدٌ؟ فقالت: بل حرٌ، فقال: صدقت، لو كان عبداً لاستعمل أدب العبودية، وترك اللهو والطرب، فسمع بِشرٌ المحاورة، فخرج إليه، وأسرع بالمشي إليه حافياً، ثم استوقفه ومرغ خده على الأرض، وقال: بل عبدٌ عبدٌ عبدٌ، وتاب، وبقي حافياً حتى وفاته.

– عن أيوب العطار قال، قال لي بشر بن الحارث الحافي: أحدثك عن بدوِّ أمري بينما أنا أمشي رأيت قرطاساً على وجه الأرض فيه اسم الله تعالى فنزلت إلى النهر فغسلته وكنت لا أملك من الدنيا إلا درهماً فيه خمسة دوانق فاشتريت بأربعة دوانيق مسكاً وبدانق ماء ورد وجعلت أتتبع اسم الله تعالى وأطيبه ثم رجعت إلى منزلي فنمت فأتاني آت في منامي فقال يا بشر كما طيبت اسمي لأطيبن اسمك وكما طهرته لأطهرن قلبك.

– سئل أحمد بن حنبل عن مسألة في الورع، فقال: أنا، أستغفر الله، لا يحل لي أن أتكلم في مسألة في الورع أنا آكل من غلة بغداد لو سألت بشر بن الحارث صلح أن يجيبك عنها، فإنه كان لا يأكل من غلة بغداد ولا من طعام السواد فهو يصلح أن يتكلم في الورع.

---

(١) من رواة الحديث قال عنه النسائي: ثقة، وذكره ابن حبان في كتاب الثقات.

- رحل بشر بن الحارث في طلب العلم إلى مكة والكوفة والبصرة، وسمع من وكيع وعيسى بن يونس وشريك بن عبد الله وأبي معاوية وحماد بن زيد ومالك بن أنس وأبي يوسف القاضي وابن المبارك والفضيل بن عياض وأبي نعيم وغيرهم غير أنه لم يتصَدَّ للرواية، فلم يضبط عنه من الحديث إلا اليسير.

من أقوله:

- اللهم استر واجعل تحت الستر ما تحب، فربما سترت على ما تكره.
- إن الجوع يصفي الفؤاد، ويورث العلم الدقيق، طوبى لمن ترك شهوة حاضرة لموعد غيب لم يره.
- ليس من المودة أن تحب ما يبغض حبيبك.
- بحسبك أن أقواماً موتى تحيا القلوب بذكرهم، وأن أقواماً أحياء تعمى الأبصار بالنظر إليهم.
- يكون الرجل مرائياً في حياته مرائياً بعد موته، قيل: كيف يكون مرائياً بعد موته؟ قال: يحب أن يكثر الناس على جنازته.
- النظر إلى الأحمق سخنة[1] عين، والنظر إلى البخيل يقسي القلب.
- الصبر الجميل الذي لا شكوى فيه إلى الناس.
- أوحى الله إلى داود أني لم أخلق الشهوات إلا للضعفاء من عبادي، فأما الأبطال فما لهم ولها.
- أوحى الله إلى داود: اغضب لي أشد ما تغضب لنفسك.
- من لم يحتمل الغضة[2] والأذى لم يقدر أن يدخل فيما يحب.

---

(١) سخنة: حرّ أو حمى.

(٢) الغضة: الذلة والمنقصة و العيب يقال لا غضاضة عليك في هذا الفعل. [القاموس المحيط]

ذهب الرجال المرتجى لفعالهم والمنكرون لكل أمر مُنكَرِ

وبقيت في خَلْفٍ يزيِّن بعضهم بعضاً ليدفع معور عن معْورِ(١)

- أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام يا موسى لا تخاصم أهل الأهواء، فيلقوا في قلبك شيئاً فيرديك، فيسخط الله عليك.

- قال بشر يوم ماتت أخته: إن العبد إذا قصر عن طاعة الله سلبه من يؤنسه.

- توفي رضي الله عنه عشية الأربعاء لعشر بقين من ربيع الأول، وقد بلغ من العمر خمساً وسبعين سنة.

- قال ابن خزيمة: لما مات أحمد بن حنبل بت من ليلتي فرأيته في النوم، فقلت له: ما فعل الله بك؟

قال: غفر لي وتوجني وألبسني نعلين من ذهب، وقال لي: يا أحمد هذا بقولك القرآن كلامي، قلت: فما فعل بشر؟ فقال لي: بخٍ بخٍ من مثل بشر؟ تركته بين يدي الجليل وبين يديه مائدة من الطعام، والجليل مقبل عليه، وهو يقول له: كُلْ يا من لم يأكل، واشرب يا من لم يشرب، وانْعَمْ يا من لم ينعم. رحمه الله ورضي عنه.

- وما أجمل قوله:

موت التقي حياة لا نفاد لها قد مات قومٌ وهم في الناس أحياء

---

(١) رجل معور: قبيح السريرة.

سادساً- حاتم الأصم

- هو أبو عبد الرحمن حاتم بن عنوان المعروف بالأصم من أهل بلخ توفي (٢٣٧هـ/٧٥١م) من أكابر مشايخ خراسان، وهو تلميذ شقيق، وأستاذ أحمد بن خضرويه (من كبار علماء التصوف)، وكان غزير الحديث، ويقال إنه لم يكن أصم، وإنما تصامَّ مرة فسمي بذلك.

- قال الأستاذ أبو علي الدقاق رحمه الله: جاءت امرأة فسألت حاتماً عن مسألة فاتفق أنه خرج منها في تلك الحالة صوت، فخجلت، فقال حاتم: ارفعي صوتك، فأرى من نفسه أنه أصم، فسرت المرأة بذلك، وقالت: إنه لم يسمع الصوت، فغلب عليه اسم الأصم.

- سئل: ألا تشتهي شيئاً؟ فقال: أشتهي عافية يوم إلى الليل، فقيل له: أليست الأيام كلها عافية؟ فقال: إنَّ عافية يومي ألا أعصي الله فيه.

- وحكي أن حاتماً الأصم كان رجلاً كثير العيال، وكان له أولاد ذكور وإناث، ولم يكن يملك حبة واحدة، وكان قدمه التوكل فجلس ذات ليلة مع أصحابه يتحدث معهم، فتعرضوا لذكر الحج، فداخل الشوق قلبه، ثم دخل على أولاده، فجلس معهم يحدثهم، ثم قال لهم: لو أذنتم لأبيكم أن يذهب إلى بيت ربه في هذا العام حاجاً، ويدعولكم ماذا عليكم لو فعلتم؟ فقالت زوجته وأولاده: أنت على هذه الحالة لا تملك شيئاً ونحن على ما ترى من الفاقة، فكيف تريد ذلك ونحن بهذه الحالة؟ وكان له ابنة صغيرة فقالت: ماذا عليكم لو أذنتم له ولا يهمكم ذلك، دعوه يذهب حيث شاء، فإنه مناول للرزق، وليس برزاق، فذكرت لهم ذلك، فقالوا: صدقت والله هذه الصغيرة يا أبانا انطلق حيث أحببت، فقام من وقته وساعته وأحرم بالحج، وخرج مسافراً، وأصبح أهل بيته يدخل عليهم جيرانهم يوبخونهم كيف أذنوا له بالحج، وتأسف على فراقه أصحابُهُ وجيرانُهُ، فجعل أولاده يلومون تلك الصغيرة ويقولون: لو سكت ما تكلمنا، فرفعت الصغيرة طرفها إلى السماء، وقالت: إلهي وسيدي ومولاي عودت القوم فضلك وأنك لا تضيعهم

فلا تخيبهم، ولا تخجلني معهم، فبينما هم على هذه الحالة إذ خرج أمير البلدة متصيداً، فانقطع عن عسكره وأصحابه، فحصل له عطش شديد، فاجتاز ببيت الرجل الصالح حاتم الأصم، فاستسقى منهم ماء، وقرع الباب فقالوا: من أنت؟ قال: الأمير ببابكم يستسقيكم، فرفعت زوجة حاتم رأسها إلى السماء وقالت: إلهي وسيدي سبحانك البارحة بتنا جياعاً، واليوم يقف الأمير على بابنا يستسقينا، ثم إنها أخذت كوزاً جديداً وملأته ماء، وقالت للمتناول منها: اعذرونا، فأخذ الأمير الكوز وشرب منه، فاستطاب الشرب من ذلك الماء فقال: هذه الدار لأمير؟ فقالوا: لا والله بل لعبد من عباد الله الصالحين يعرف بحاتم الأصم. فقال الأمير: لقد سمعت به، فقال الوزير: يا سيدي لقد سمعت أنه البارحة أحرم بالحج وسافر ولم يخلف لعياله شيئاً، وأخبرت أنهم البارحة باتوا جياعاً، فقال الأمير: ونحن أيضاً قد ثقلنا عليهم اليوم، وليس من المروءة أن يثقل مثلنا على مثلهم، ثم حل الأمير منطقته من وسطه ورمى بها في الدار، ثم قال لأصحابه: من أحبني، فليلق منطقته، فحل جميع أصحابه مناطقهم ورموا بها إليهم، ثم انصرفوا، وقال الوزير: السلام عليكم أهل البيت، لآتينكم الساعة بثمن هذه المناطق، فلما أنزل الأمير رجع إليهم الوزير، ودفع إليهم ثمن المناطق مالاً جزيلاً واستردها منهم، فلما رأت الصبية الصغيرة ذلك بكت بكاء شديداً، فقالوا لها: ما هذا البكاء. إنما يجب أن تفرحي، فإن الله قد وسع علينا، فقالت: يا أم. والله إنما بكائي كيف بتنا البارحة جياعاً، فنظر إلينا مخلوق نظرة واحدة، فأغنانا بعد فقرنا، فالكريم الخالق إذا نظر إلينا لا يكلنا إلى أحد طرفة عين، اللهم انظر إلى أبينا، ودبره بأحسن التدبير، هذا ما كان من أمرهم.

– وأما ما كان من أمر حاتم أبيهم، فإنه لما خرج محرماً ولحق بالقوم توجع أمير الركب، فطلبوا له طبيباً، فلم يجدوا، ففال: هل عبد صالح، فدل على حاتم، فلما دخل عليه وكلمه دعا له فعوفي الأمير من وقته، فأمر له بما يركب، وما يأكل، وما يشرب، فنام تلك الليلة مفكراً في أمر عياله، فقيل له في منامه: يا حاتم من أصلح معاملته معنا أصلحنا معاملتنا معه، ثم أخبر بما كان من أمر

عياله، فأكثر الثناء على الله تعالى، فلما قضى حجه ورجع تلقّاه أولاده، فعانق الصبية الصغيرة وبكى، ثم قال: صغار قوم كبار قوم آخرين. إن الله لا ينظر إلى أكبركم ولكن ينظر إلى أعرفكم به، فعليكم بمعرفته والاتكال عليه فإنه من توكل على الله فهو حسبه.

من أقواله:

- اختلفت إلى شقيق ثلاثين سنة، فقال لي يوماً: أي شيء تعلمت؟ فقلت: رأيت رزقي من عند ربي، فلم أشتغل إلا بربي، ورأيت أن الله تعالى وكل بي ملكين يكتبان علي ما تكلمت به فلم أنطق إلا بالحق، ورأيت أن الخلق ينظرون إلى ظاهري والرب تعالى ينظر إلى باطني، فرأيت مراقبته أولى وأوجب، فسقطت عني رؤية الخلق، ورأيت أن الله مستحثاً يدعو الخلق إليه فاستعددت له متى جاءني، فقال لي: يا حاتم ما خاب سعيك.

- كنت في بعض الغزوات فأخذني عدوي فأضجعني للذبح، فلم يشتغل به قلبي بل كنت أنظر ماذا يحكم الله تعالى فيَّ، فبينما هو يتناول السكين من خلفه للذبح، إذ بسهم أصابه فقتله وطرحه عني فقمت.

- أربعة يندمون على أربع: المقصر إذا فاته العمل، والمنقطع عن أصدقائه إذا نابته نائبة، والممكن منه عدُوه بسوء رأيه، والجريء على الذنوب.

- الزم خدمة مولاك تَأتِكِ الدنيا راغمة والجنة عاشقة.

- تعهد نفسك في ثلاثة مواضع : إذا عملت فاذكر نظر الله إليك، وإذا تكلمت فاذكر سمع الله إليك، إذا سكت فاذكر علم الله فيك.

- من ادعى ثلاثاً بغير ثلاث فهو كذاب: من ادعى حب الله من غير ورع عن محارمه فهو كذاب، ومن ادعى حب الجنة من غير إنفاق ماله فهو كذاب، ومن ادعى محبة النبي ﷺ من غير محبة الفقراء فهو كذاب.

- إن كنت تريد أن تعصي مولاك فاعصه في موضع لا يراك.

- الجهاد ثلاثة: جهاد في سرك مع الشيطان حتى تكسره، وجهاد في العلانية في أداء الفرائض حتى تؤديها كما أمر الله ﷻ، وجهاد مع أعداء الله في عز الإسلام.

- النصيحة للخلق: إذا رأيت إنساناً في الحسنة أن تحثه عليها، وإذا رأيته في معصية أن ترحمه.

- المنافق: ما أخذ من الدنيا يأخذ بحرص، ويمنع بالشك، وينفق بالرياء، والمؤمن يأخذ بالخوف، ويمسك بالشدة، وينفق خالصاً في الطاعة.

- يقال: العجلة من الشيطان، إلا في خمس: إطعام الطعام إذا حضر ضيف، وتجهيز الميت إذا مات، وتزويج البكر إذا أدركت، وقضاء الدين إذا أوجب، والتوبة من الذنب إذا أذنب.

- لو أن صاحب خبر جلس إليك ليكتب كلامك لاحترزت منه، وكلامك يعرض على الله تعالى فلا تحترز.

- وسأله رجل فقال: علام بنيت أمرك هذا في التوكل؟ قال: على خصال أربع:

علمت أن رزقي لا يأكله غيري فاطمأنت به نفسي.

وعلمت أن عملي لا يعمله غيري فأنا مشغول به.

وعلمت أن الموت يأتيني بغتة فأنا أبادره.

وعلمت أني لا أخلو من عين الله حيث كنت فأنا مستحي منه.

• مر عصام بن يوسف[1] بحاتم الأصم وهو يتكلم في مجلسه، فقال: يا حاتم تحسن تصلي؟ قال: نعم قال: كيف تصلي؟ قال حاتم: أقوم بالأمر، وأمشي بالخشية، وأدخل بالنية، وأكبر بالعظمة، وأقرأ بالترتيل والتفكر، وأركع بالخشوع، وأسجد بالتواضع، وأجلس للتشهد بالتمام، وأسلم بالسبيل والسنة، وأسلمها بالإخلاص إلى الله ﷿، وأرجح على نفسي بالخوف أخاف أن لا يقبل مني، وأحفظه بالجهد إلى الموت، قال: تكلم فأنت تحسن أن تصلي.

۞ ۞ ۞

(١)عصام البلخي عصام بن يوسف بن ميمون بن قدامة البلخي، الحنفي.من آثاره: مختصر في الفقه.توفي سنة (٢١٥ هـ/ ٨٣٠ م). [معجم المؤلفين]

سابعاً– سرّي السقطي

– ويقال له السري وهو أبو الحسن السرّي بن المغْلس(1) السقطي توفي (٢٥٣هـ/٨٦٧م) يكنى أبا الحسن خال أبي القاسم الجنيد وأستاذه وتلميذ معروف الكرخي وكان وحيد زمانه في الورع وأحوال السنة وعلوم التوحيد.

– كان يقول: من أراد أن يسلم دينه، ويستريح قلبه وبدنه، ويقل غمه، فليعتزل الناس لأن هذا زمان عزلة ووحدة.

– قال أبو العباس بن مسروق (من رجال أهل التصوف): بلغني أن السريَّ السقطي كان يتَّجر في السوق، وهو من أصحاب معروف الكرخي، فجاءه معروف يوماً، ومعه صبي يتيم، فقال: اكسُ هذا اليتيم. قال سري: فكسوته، ففرح به معروف، وقال: بغَّض الله إليك الدنيا، وأَراحك مما أَنت فيه.

فقمت من الحانوت وليس شيء أبغض إليَّ من الدنيا، وكل ما أنا فيه من بركات معروف.

– عن أبي القاسم سليمان بن محمد الضراب (أحد معاصري السري) قال حدثني بعض إخواني أن سريا السقطي مرت به جارية معها إناء فيه شيء فسقط من يدها فانكسر فاخذ سري شيئا من دكانه فدفعه إليها بدل ذلك الإناء فنظر إليه معروف الكرخي فأعجبه ما صنع فقال له معروف بغض الله إليك الدنيا.

– وعن مظفر بن سهل المقرئ قال سمعت علان الخياط (هما من رجال التصوف) وجرى بيني وبينه مناقب سري السقطي فقال علان كنت جالساً مع سري يوما فوافته امرأة فقالت يا أبا الحسن أنا من جيرانك أخذ ابني الطائف (عسس الليل) وأنا أخشى أن يؤذيه فان رأيت أن تجيء معي أو تبعث إليه.

---

(١) لقب بذلك لأنه كان ملازماً بيته لا يخرج منه إلا للجمعة والجماعة ولا يرى في غيرهما.

قال علان فتوقعت أن يبعث إليه فقام وكبر وطول في صلاته فقالت المرأة: يا أبا الحسن الله في هذا أخشى أن يؤذيه السلطان فسلم وقال لها أنا في حاجتك (أي أنه كان يدعو الله لها ليفرج عن ابنها) .

قال علان: فما برحت حتى جاءت امرأة إلى المرأة فقالت الحقي قد خلوا ابنك. قال علان وأي شيء يتعجب من هذا اشتري كر[1] لوز بستين دينارا وكتب في روزنامجه ثلاثة دنانير ربحه فصار كر اللوز بتسعين ديناراً فأتاه الدلال وقال أريد ذاك اللوز فقال خذه فقال بكم قال بثلاثة وستين ديناراً قال له الدلال إن اللوز قد صار الكر بتسعين فقال له قد عقدت بيني وبين الله عقداً لا أحله: ليس أبيعه إلا بثلاثة وستين ديناراً فقال له الدلال إني قد عقدت بيني وبين الله تعالى لا أغش مسلما لست آخذه منك إلا بتسعين ديناراً فلا الدلال اشترى منه ولا سري باعه فكيف لا يستجاب دعاء من هذا فعله؟.

– وعن ابن أبي الورد (من أصحاب بشر الحافي) قال دخلت على سري السقطي وهو يبكي ودورقه مكسور فقلت ما لك قال انكسر الدورق فقلت أنا اشتري لك بدله فقال لي تشتري بدله وأنا اعرف من أين الدانق الذي نشتري به الدورق ومن عمله ومن أين طينه وأي شيء أكل عامله حتى فرغ من عمله.

وعن سعيد بن عثمان بن السكن (من حفاظ الحديث) قال سمعت سري بن المغلس يقول غزونا أرض الروم فمررت بروضة خضرة فيها الخيار وحجر منقور فيه ماء المطر فقلت في نفسي لئن أكلت يوما حلالا فاليوم فنزلت عن دابتي وجعلت آكل من ذلك الخيار وشربت من ذلك الماء فإذا هاتف يهتف بي يا سري النفقة التي بلغت لها إلى ها هنا من أين؟

(١) مكيال يستعمل في العراق.

- يقول الجنيد: ما رأيت أعبد من السري، أتت عليه ثمان وتسعون سنة ما رأي مضجعاً[1] إلا في علة الموت.

- قال الجنيد: وكان السري يقول لنا ونحن حوله أنا لكم عبرة يا معشر الشباب اعملوا فإنما العمل في الشبيبة.

من أقواله:

- المتصوف اسم لثلاثة معانٍ: هو الذي لا يطفئ نور معرفته نور ورعه، ولا يتكلم بباطن في علم ينقضه عليه ظاهر الكتاب أو السنة، ولا تحمله الكرامات على هتك أستار محارم الله تعالى.
- مُنْذُ ثلاثين سنة وأنا في الاستغفار من قولي: الحمد لله مرة، وقيل كيف ذلك؟ قال: وقع حريق ببغداد، فاستقبلني رجلٌ فقال لي: نجا حانوتك، فقلت: الحمد لله، فمنذ ثلاثين سنة أنا نادم على ما قلت، حيث أردت لنفسي خيراً مما حصل للمسلمين.
- من لم يعرف قدر النعم سلبها من حيث لا يعلم.
- قليل في سنة خير من كثير في بدعة، فكيف يقل عمل مع تقوى؟.
- الأدب ترجمان العقل، ولسانك ترجمان قلبك، ووجهك مرآة قلبك، يتبين على الوجه ما تضمر القلوب.
- من علامة الاستدراج العمى عن عيوب النفس.
- رأيت الفوائد تَرِدُ في ظلم الليل.
- أجلد الناس من ملك غضبه، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله، ولن يكمل رجل حتى يؤثر دينه على شهوته، ولن يهلك حتى يؤثر شهوته على دينه.

(١) في ذلك إشارة إلى كمال مجاهدته، والتزامه الإقبال على الله تعالى بالقلب والجوارح.

- قلوب المؤمنين معلقة بالسوابق، وقلوب الأبرار معلقة بالخواتيم، هؤلاء يقولون بماذا يختم لنا، وأولئك يقولون ماذا سبق من الله لنا؟.
- من حاسب نفسه استحيا الله من حسابه، ومن عرف ما يطلب هان عليه ما يبذل.
- إن الله سبحانه، سلب الدنيا عن أوليائه، وحماها عن أصفيائه، وأجرها من قلوب أهل وداده؛ لأنه لم يرضها لهم.
- انقطع من انقطع عن الله بخصلتين، واتصل من اتصل بالله بأربع خصال فأما من انقطع عن الله فانه يتخطى إلى نافلة بتضييع فرض والثاني عمل بظاهر الجوارح لم يواطىء عليه صدق القلوب وأما الذي اتصل به المتصلون فبلزوم الباب والتشمير في الخدمة والصبر على المكاره وصيانات الكرامات.
- ثلاث من كن فيه استكمل الإيمان من إذا غضب لم يخرجه غضبه عن الحق واذا رضي لم يخرجه رضاه إلى الباطل وإذا قدر لم يتناول ما ليس له.
- لو أن رجلا دخل إلى بستان فيه من جميع ما خلق الله تعالى من الأشجار عليها من جميع ما خلق الله تعالى من الأطيار فخاطبه كل طائر منها بلغته وقال السلام عليك يا ولي الله فسكنت نفسه إلى ذلك كان في يدها أسيرا(١).
- الدهر ثلاثة أيام يوم مضى بؤسه وشدته وغمه لم يبق منه شيء واليوم الذي أنت فيه صديق مودع لك طويل الغيبة عنك سريع الرحلة عنك وغداً في يديك تأميله ولعلك من غير أهله.
- أمس أجل واليوم عمل وغداً أمل.
- أشتهي أن أموت ببلد غير بغداد، فقيل له: ولم ذلك؟ فقال: أخاف ألا يقبلني قبري فافتضح.

---

(١) أي أصبح أسير كلام الطيور، ويخشى على نفسه من الغرور، وهو استدراج فكل إنسان يعرف نفسه.

- دخلت على سري السقطي وهو في النزع فجلست عند رأسه فوضعت خدي على خده فدمعت عيناي فوقع دمعي على خده ففتح عينيه فقال لي من أنت قلت أنا خادمك الجنيد فقال مرحبا فقلت له أيها الشيخ أوصني بوصية انتفع بها بعدك قال إياك ومصاحبة الأشرار وأن تنقطع عن الله بصحبة الأخيار.
- توفي سري بن المغلس يوم الثلاثاء لستٍ خلون من رمضان سنة ثلاث وخمسين ومائتين.
- وعن أبي عبيد بن حربوية (كان قاضي مصر وفقيهها) قال حضرت جنازة سري السقطي فسررت فحدثنا رجل عن آخر أنه حضر جنازة سري السقطي فلما كان في بعض الليل رآه في النوم فقال له ما فعل الله بك قال غفر لي ولمن حضر جنازتي وصلى عليّ فقلت: فإني ممن حضر جنازتك وصلى عليك قال فاخرج درجاً فنظر فيه فلم ير لي فيه اسماً فقلت بلى قد حضرت قال فنظر فإذا اسمي في الحاشية رحمه الله ورضي عنه.

ثامناً– أبو يزيد البسطامي

– وهو أبو يزيد طيفور بن عيسى بن سروشان –وكان سروشان مجوسياً فأسلم– وكان لعيسى ثلاثة أولاد: أبو يزيد وهو أوسطهم، وآدم، وهو أكبرهم، وعلي وهو أصغرهم، وكانوا كلهم عباداً زهاداً، أما أبو يزيد فكان أجلهم حالاً، وهو من أهل بسطام(1)، وتوفي فيها سنة (٢٦١هـ/٨٧٥م) وله ثلاث وسبعون سنة.

– وسئل أبو يزيد: بأي شيء وجدْتَ هذه المعرفة؟ فقال: ببطن جائع، وبدن عار.

– وقيل: لم يخرج أبو يزيد من الدنيا حتى استظهر القرآن كلَّه.

– إبراهيم الهروي قال: سمعت أبا يزيد البسطامي يقول: غلطت في ابتدائي في أربعة أشياء: توهمت أني أذكره، وأعرفه، وأحبه، وأطلبه. فلما انتهيت رأيت ذكره سبق ذكري، ومعرفته تقدمت معرفتي، وطلبه لي أولاً حتى طلبته.

– قال منصور وسمعت أبا عمران موسى بن عيسى يقول: سمعت أبي يقول: قال أبو يزيد عملت في المجاهدة ثلاثين سنة فما وجدت شيئاً أشد علي من العلم ومتابعته، ولولا اختلاف العلماء لتعبت، واختلاف العلماء رحمة إلا في تجريد التوحيد.

– سئل: أبو يزيد عن ابتدائه زهده، فقال: ليس للزهد منزلة. فقلت: لماذا؟ فقال: لأني كنت ثلاثة أيام في الزهد، فلما كان اليومُ الرابع خرجت منه: اليوم الأول: زهدت في الدنيا وما فيها، واليوم الثاني: زهدت في الآخرة وما فيها، واليوم الثالث: زهدت فيما سوى الله، فلما كان اليوم الرابع لم يبق سوى الله.. فَهِمْتُ، فسمعت، هاتفاً يقول: يا أبا يزيد لا تقوى معنا. فقلت. هذا الذي أريده.

---

(١) بِسْطامُ: بلدة كبيرة بقومس على جادة الطريق إلى نيسابور منها وبها تفاح حسن الصبغ مشرق اللون يحمل إلى العراق يعرف بالبسطامي.

فسمعت قائلاً يقول: وَجدتَ، وجدت.

من أقواله:

- لو نظرتم إلى رجل أُعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء، فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وأداءِ الشريعة.
- لا يعرف نفسه من صحبته شهوته.
- وقد سئل ما علامة العارف؟ قال: ألا يفتر من ذكره ولا يمل من حقه، ولا يستأنس بغيره.
- قال مخاطباً ربه: هذا فرحي بك وأنا أخافك، فكيف فرحي بك إذا أمنتك.
- اطلع الله على قلوب أوليائه، فمنهم من لم يكن يصلح لحمل المعرفة صرفاً، فأشغلهم بالعبادة.
- ليس العجب ممن لم يجد لذة الطاعة، إنما العجب ممن وجد لذتها ثم تركها كيف صبر عنها.
- لم أزل ثلاثين سنة كلما أردت أن أذكر الله أتمضمض وأغسل لساني إجلالاً لله أن أذكره.
- ما دام العبد يظن أن في الخلق من هو شر منه فهو متكبر.
- أشد المحجوبين عن الله ثلاثة بثلاثة، أولهم: الزاهد بزهده، والثاني: العابد بعبادته، والثالث: العالم بعلمه. ثم قال: مسكين الزاهد، لو علم أن الله ﷻ سمى الدنيا كلها قليلاً فكم ملك من الدنيا؟ وفي كم زهد مما ملك؟ وأما العابد فلو رأى مِنَّةَ الله عليه في العبادة عرف عبادته في المنة، وأما العالم فلو علم أن جميع ما أبدى الله ﷻ من العلم سطراً واحداً من اللوح المحفوظ فكم علم هذا العالم من ذلك السطر؟ وكم عمل مما علم؟
- قعدت ليلة في محرابي فمددت رجلي فهتف بي هاتف من يجالس الملوك فينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب.

- الناس كلهم يهربون من الحساب ويتجافون عنه، وأنا أسأل الله تعالى أن يحاسبني فقيل له: لم؟ قال: لعله أن يقول لي فيما بين ذلك: يا عبدي، فأقول: لبيك. فقوله لي: عبدي أحب إلي من الدنيا وما فيها. ثم بعد ذلك يفعل بي ما يشاء.
- قال لرجل سأله: دلني على عمل أتقرب به إلى ربي ﷻ؟ فقال: أحبب أولياء الله تعالى ليحبوك فإن الله تعالى ينظر إلى قلوب أوليائه فلعله أن ينظر إلى اسمك في قلب وليه فيغفر لك.
- نظرت فإذا الناس في الدنيا متلذذون بالنكاح والطعام والشراب، وفي الآخرة بالمنكوح والملذوذ، فجعلت لذتي في الدنيا ذكر الله ﷻ وفي الآخرة النظر إلى الله ﷻ.

۞ ۞ ۞

تاسعاً– الجنيد بن محمد

– وهو أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخزار، كان يقال له القواريري، لأن أباه كان يبيع الزجاج، أصله من نهاوند، ومنشؤه ببغداد، صحب خاله السري السقطي والحارث المحاسبي، ومحمد بن علي القصاب، كان مقبولاً عند الجماعة كبيراً في طريقة القوم، سيد هذه الطائفة وإمامهم، وكان فقيهاً على مذهب أبي ثور وكان يفتي في حلقته وهو ابن عشرين سنة، لذلك كانوا يسمونه طاووس العلماء لجمعه بين علمي الظاهر والباطن، ولهذا كان أقرب رجال التصوف إلى قلوب الناس وعقولهم، وكان يؤكد الالتزام بظاهر الشرع ويقول: مذهبنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، وحكمه وجوامع كلمه كثيرة ينبئ عنها ما جمعه أبو نعيم في حلية الأولياء، توفي رحمه اللّه سنة (٢٩٧ هـ/٩١٠م) ودفن بجانب خاله بمقبرة الشونيزية ببغداد.

– قيل للجنيد: من أين استفدت هذا العلم؟ فقال: من جلوسي بين يدي الله ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة. وأومأ إلى درجة في داره.

– سمعت الأستاذ أبا عليّ الدقاق، رحمه الله، يحكي ذلك، وسمعته يقول: رؤي في يده سبحة، فقيل له: أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة؟! فقال: طريق به وصلت إلى ربي لا أفارقه.

– وعن أبي محمد المرتعش (أحد مشايخ العراق وزهادها) قال، قال الجنيد: كنت بين يدي سري السقطي ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون في الشكر فقال لي: يا غلام ما الشكر فقلت ألا تعصي الله بنعمه فقال لي: أخشى أن يكون حظك من الله لسانك، قال الجنيد: فلا أزال أبكي على هذه الكلمة التي قالها السري لي.

ومن أقواله:

- ما أخذنا التصوف عن القيل والقال، لكن عن الجوع وترك الدنيا، وقطع المألوفات والمستحسنات.

- الطرق كلها مسدودة عن الخلق، إلا على من اقتفى أثر الرسول عليه الصلاة والسلام.

- لو أقبل صادق على اللّه تعالى ألف ألف سنة، ثم أعرض عنه لحظة كان ما فاته أكثر مما ناله.

- من لم يحفظ القرآن الكريم، ولم يكتب الحديث لا يقتدى به في هذا الأمر، لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة.

- من نظر إلى ولي من أولياء اللّه فقبله وأكرمه، أكرمه اللّه على رؤوس الأشهاد.

- الغفلة عن الله ﷻ أشد من دخول النار.

- من عرف الله لا يسر إلا به.

- معاشر الفقراء إنما عرفتم بالله وتكرمون به فإذا خلوتم به فانظروا كيف تكونون معه.

- علامة إعراض العبد أن يشغله بما لا يعنيه.

- المروءة احتمال زلل الإخوان.

- قال لرجل سأله عن الطريق: الطريق توبة تحل الإصرار، وخوف يزيل الغرة، ورجاء يدعو إلى طريق الخيرات، ومراقبة الله في خواطر القلوب.

- قال رجل للجنيد: على ماذا يتأسف المحب من أوقاته؟ قال: على زمان بسطٍ أورث قبضاً، أو زمان أنس أورث وحشة، ثم أنشأ يقول:

قد كان لي مشرب يصفو   فكدرته يد الأيام حين

- وقال أبو محمد الحريري (أحد مشايخ الصوفية): كنت واقفاً على رأس الجنيد في وقت وفاته وكان يوم جمعة وهو يقرأ القرآن فقلت يا أبا القاسم ارفق بنفسك فقال: يا أبا محمد ما رأيت أحداً أحوج إليه مني في هذا الوقت وهو ذا تطوى صحيفتي.
- وعنه قال: حضرت عند الجنيد قبل وفاته بساعتين فلم يزل باكياً وساجداً فقلت له يا أبا القاسم قد بلغ بك ما أرى من الجهد فقال يا أبا محمد أحوج ما كنت إليه هذه الساعة فلم يزل باكياً وساجداً حتى فارق الدنيا.
- وعن فارس بن محمد (من أصحاب الجنيد) قال: كان أبو القاسم الجنيد كثير الصلاة ثم رأيناه في وقت موته وهو يدرس ويقدم إليه الوسادة فيسجد عليها فقيل له هلّا روحت عن نفسك فقال طريق وصلت به إلى الله لا أقطعه.
- وقال أبو بكر العطار (من رجال الحديث) حضرت الجنيد عند الموت في جماعة من أصحابنا قال فكان قاعداً يصلي ويثني رجله كلما أراد أن يسجد فلم يزل كذلك حتى خرجت الروح من رجله فثقل عليه حركتها فمد رجليه وقد تورمتا فرآه بعض أصدقائه فقال ما هذا يا أبا القاسم فقال هذه نعم – الله اكبر– فلما فرغ من صلاته قال له أبو محمد الحريري لو اضطجعت قال يا أبا محمد هذا وقت يؤخذ منه – الله اكبر– فلم يزل ذلك حاله حتى مات رحمه الله.

وتوفي يوم السبت في شوال وغسله أبو محمد الحريري وصلى عليه ولده وحزروا (قدروا) الجمع الذي صلى عليه فكانوا نحو ستين ألفاً.

وعن جعفر الخلدي (من أصحاب الجنيد) في كتابه عن أخبار العلماء قال: رأيت الجنيد في النوم فقلت له ما فعل الله بك قال: طاحت تلك الإشارات وغابت تلك العبارات وفنيت تلك العلوم ونفدت تلك الرسوم وما نفعنا إلا ركيعات كنا نركعها في السحر رحمه الله.

عاشراً– محمد الغزالي[1]

– هو أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي الشافعي المعروف بالغزالي (زين الدين، حجة الإسلام) ولد بطوس سنة (٤٥٠هـ /١٠٥٨م) وتوفي سنة (٥٠٥هـ/ ١١١١م) أي عاش خمساً وخمسين سنة فقط، و عرف بالغزالي وقد تشدد الزاي نسبة إلى حرفة والده وهي غزل الصوف، وقد تخفف نسبة إلى قريته التي ولد بها (غزالة في نواحي طوس).

– وهو متكلم، فقيه، أصولي، صوفي مشارك في أنواع من العلوم، له نحو مائتي مصنف في هذه العلوم المتعددة أشهرها: (إحياء علوم الدين) و(تهافت الفلاسفة) و(محك النظر) و(معارج القدس في أحوال النفس) و(الفرق بين الصالح وغير الصالح) و(مقاصد الفلاسفة) و(الوقف والابتداء) في التفسير، و(البسيط) في الفقه، و(المعارف العقلية)، و(المنقذ من الضلال)، و(بداية الهداية).

– مولده ووفاته في الطابران[2]، رحل إلى نيسابور ثم إلى بغداد فالحجاز فبلاد الشام فمصر وعاد إلى بلدته.

– ولقد كانت بيئته في طفولته وتربيته المنزلية الأولى ذات أثر واضح في تكوينه فيما بعد.

– فقد ولد في أسرة فقيرة متدينة، وحينما أحس أبوه بقرب أجله عهد برعاية ولديه أبي حامد وأخيه الأصغر منه المسمى أحمد إلى أحد أصدقائه من الصوفية.

– وقد قام هذا الرجل بواجبه في الإشراف على تربيتهما وتعليمهما ثم نصحهما بالانتقال إلى نيسابور، وهناك طلب الغزالي الفقه لتحصيل القوت، ثم ارتحل إلى أبي نصر الإسماعيلي (وهو

---

(١) عمر كحالة: معجم المؤلفين، ياقوت الحموي: معجم البلدان، الزركلي: الأعلام ول ديورانت: قصة الحضارة ترجمة محمد بدران، الغزالي: المنقذ من الضلال.

(٢) الطابران: إحدى مدينتي طوس بخراسان.

من كبار علماء زمانه) بجرجان[١]، ثم تم له الاتصال بإمام الحرمين (أبي المعالي الجويني) [٢]، فاشتغل عليه ولازمه، فظهر نبوغ الغزالي في فترة مبكرة، ثم جلس للإقراء، وحضر مجلس نظام الملك[٣]، فأقبل عليه نظام الملك، فعظمت منزلة الغزالي، وندب للتدريس في نظامية بغداد.

- وقد أصبح الغزالي من أعلام مذهب الشافعي في الفقه، وأحد أركان المدرسة الأشعرية، بالإضافة إلى تعمقه في الفلسفة والمنطق والأصول.

- ولم يجد فيها راحته القلبية حتى اجتمع بالإمام الزاهد المتصوف أبي علي الفضل بن علي الفارمذي الطوسي (من كبار رجال التصوف) فأقبل عليه وأخذ منه علم التصوف وأخذ يطالع كتب التصوف فتعرف على كنه مقاصدهم، ثم دخل مدخلهم، وذاق أحوالهم، وسار في طريقهم.

- ويتحدث الغزالي عن تجربته الصوفية في كتابه المنقذ من الضلال بعد أن فرغ من علوم الشريعة بكتاب الأربعين، وعلوم الفلسفة القديمة في كتاب مقاصد الفلاسفة وكذلك التهافت يقول واصفاً

---

(١) جرجان: مدينة عظيمة مشهورة بقرب طبرستان. بناها يزيد بن المهلب بن أبي صفرة، وهي أقل ندى ومطراً من طبرستان، يجري بينهما نهر تجري فيه السفن، بها فواكه كثيرة، وهي بين السهل والجبل والبر والبحر. [القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد]

(٢) الجويني: إمام الحرمين، أبو المعالي الجويني، عبد الملك بن أبي محمد بن عبد الله بن يوسف، الفقيه الشافعي ، أحد الأئمة الأعلام، عاش ستين سنةً، وتفقّه على والده، وجاور بمكة في شبيبته أربعة أعوام، ومن ثم قيل له إمام الحرمين، وكان من أذكياء العلماء، وأحد أوعية العلم، توفي في ربيع الآخر بنيسابور، وكان له نحو من أربعمئة تلميذ، رحمه الله. [الذهبي: العبر في خبر من غبر]

(٣)نظام الملك: أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، الملقب بقوام الدين، نظام الملك: وزير حازم عالي الهمة. أصله من نواحي طوس. وسمع الحديث الكثير، واشتغل بالأعمال السلطانية، فاتصل بالسلطان إلب أرسلان، فاستوزره، فأحسن التدبير وبقي في خدمته عشر سنين. ثم أصبح وزيراً لابنه وأسس المدرسة النظامية في بغداد، وتوفي سنة (٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م). [انظر: الأعلام للزركلي]

التصوف والصوفية: (ثم إني لما فرغت من هذه العلوم أقبلت بهمتي على طريق الصوفية، وعلمت أن طريقتهم إنما تتم بعلم وعمل، وكان حاصل علومهم قطع عقبات النفس، والتنزه عن أخلاقها المذمومة وصفاتها الخبيثة، حتى يتوصل بها إلى تخلية القلب عن غير الله تعالى وتحليته بذكر الله.

وكان العلم أيسر علي من العمل، فابتدأت بتحصيل علمهم من مطالعة كتبهم مثل: قوت القلوب لأبي طالب المكي رحمه الله، وكتب الحارث المحاسبي، والمتفرقات المأثورة عن الجنيد والشبلي وأبي يزيد البسطامي قدس الله أرواحهم وغيرهم من المشايخ، حتى اطلعت على كنه مقاصدهم العلمية، وحصلت ما يمكن أن يحصل من طريقهم بالتعلم والسماع. فظهر لي أن أخص خواصهم، ما لا يمكن الوصول إليه بالتعلم بل بالذوق والحال وتبدل الصفات، فعلمت يقيناً أنهم أرباب أحوال لا أصحاب أقوال، والقدر الذي أذكره لينتفع به، هو أني علمت يقيناً أن الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، بل لو جُمع عقل العقلاء، وحكمة الحكماء، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ليغيروا شيئاً من سيرهم وأخلاقهم ويبدلوه بما هو خير منه لم يجدوا إلى ذلك سبيلاً، وإن جميع حركاتهم وسكناتهم في ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به، فأيقنت أنهم الفرقة الناجية.

وماذا يقول القائلون في طريقة أول شروطها: تطهير القلب بالكلية عما سوى الله تعالى، وعمادها ومفتاحها الجاري منها مجرى الإحرام في الصلاة: استغراق القلب بالكلية بذكر الله، وآخرها الفناء في الكلية بالله).

– ثم أقبل الغزالي على العبادة والسياحة، فخرج إلى الحجاز فحج، ورجع إلى دمشق فاستوطنها عشر سنين ثم سار إلى القدس والإسكندرية، ثم عاد إلى وطنه بطوس، ثم إن الوزير فخر الدين

ابن نظام الملك طلبه إلى نظامية نيسابور، فأجاب إلى ذلك، ثم عاد إلى وطنه، وابتنى إلى جواره خانقاه[1] للصوفية ومدرسة.

- ومن أراد أن يتعرف على أقوال وأعمال هذا العالم الفاضل فعليه أن يرجع إلى مؤلفاته الكثيرة في شتى العلوم الإسلامية.

- هذا وإن الدارس لعصر هذا الإمام الفاضل، وما اشتهر به هذا العصر من انتشار الفلسفة الدخيلة على العالم الإسلامي التي كادت تؤثر على أفكار المسلمين وتحرفهم عن جادة الصواب يدرك السبب الذي دفع هذا المجدد إلى الرد على هؤلاء الفلاسفة بمؤلفاته المتعددة التي كانت سبباً في عودة المسلمين إلى جادة الصواب، والتمسك بتعاليم الإسلام النابعة من القرآن والسنة، فكان حقاً حجة الإسلام، وحجة المسلمين.

- ولابد لكل طالب علم في كل زمان ومكان أن تحتوي مكتبته كتابه الجامع للعلوم المتعددة (إحياء علوم الدين) الذي يجد في الطالب كل ما يحتاجه من نفائس علوم الدين المتعددة.

وأما في مجال التصوف فلقد أضاف الغزالي للفكر الإسلامي من خلال تصوفه تجديداً وتصويباً وتنويراً في علوم التصوف أذكر منها ما يلي:

١- أعاد للعبادة جانبها الروحي من خشوع ورهبة، بعد أن حولها بعض الفقهاء إلى مجرد طقوس شكلية.

٢- حبب التصوف للناس بإزالة ما لحق به من فكر دخيل، مع إثباته أن المكاشفة تصل إلى ما لم يصل إليه العقل.

---

(١)خانقاه: وهو رباط الصوفية ومتعبدهم فارسية أصلها خانه كاه.

٣- كان المتصوفة قد استكانوا إلى الحب الإلهي وأغراهم الاطمئنان فأدى بهم إلى التقصير، فأعاد الغزالي للتصوف الخوف من اللّه على طريقة الحسن البصري.

٤- فلسف العبادات بإظهار حكمة التشريع فصارت قراءة الفقه أكثر إمتاعاً من عرض الفقهاء له.

٥- رفض ما دخل في التصوف من تطرف وخروج عن تعاليم الشريعة بتأثير الفلسفات الغربية بالإضافة إلى ما دخله من شعوذة وسحر وهذيان لا قيمة له إلا في نظر العامة.

٦- التركيز على تطهير الباطن وتصفية القلب وعدم الانخداع بالمظاهر، والقشور لأن ذلك يؤدي إلى انتكاس النفس ووقوعها في الرياء.

- **وأخيراً**: كان اعتناق الغزالي لمذهب التصوف نصراً باهراً للصوفية، فأخذ أهل السنة من بعده بالتصوف السني النابع من القرآن والسنة والبعيد عن التطرف أو الخروج عن تعاليم الشريعة، والبعيد عن الشعوذة والسحر والهذيان، والتركيز على تطهير الباطن، وتصفية الباطن وعدم الانخداع بالمظاهر والقشور لأن ذلك يؤدي إلى انتكاس النفس في الرياء.

۞ ۞ ۞

الباب السابع:

أهم الطرق الصوفية

١- الطريقة النقشبندية.

٢- الطريقة القادرية.

٣- الطريقة الرفاعية.

٤- الطريقة الشاذلية.

الطرق الصوفية

– إن الدارس والمحقق في الطرق الصوفية يجد أن منشأ هذه الطرق كان على أيدي أئمة من كبار العلماء اشتهروا في زمانهم، وعرفوا بعلمهم الغزير، وإيمانهم العميق، وبرزوا بالشريعة والحقيقة والطريقة[1]، وقد أخذ كلٌ منهم طريقته وتربّى على يد عالمٍ سلك هذا الطريق، وهذا أخذ وتربّى على يد عالمٍ سلك هذا الطريق، وهكذا، إلى أن تصل هذه السلسلة إلى عهد التابعين ثم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، كما سنرى ذلك من خلال دراستنا لأهم هذه الطرق، وهي:

١– الطريقة النقشبندية.

٢– الطريقة القادرية.

٣– الطريقة الرفاعية.

٤– الطريقة الشاذلية.

– والمقصود بالطرق الصوفية ليس فقط طريقة الذكر وما يتعلق به من هيئات وكيفيات وأوراد وأذكار متعددة، وإنما المقصود من الطرق الصوفية الطرق التي مؤداها علم بالشريعة، وتنور بالحقيقة، وسلوك تام مطابق لهما، ويتحقق ذلك من خلال ما يقوم به شيخ الطريقة من تربية لمريديه بأساليب متعددة فحين يحصل اللقاء الجامع بين الشيخ ومريديه يقوم الشيخ في هذا اللقاء بتفسير آية أو شرح حديث، ثم يتم التعليق على الآية أو الحديث بما أفاض الله على هذا الشيخ

---

(١) الشريعة: هي الأحكام المنزلة عن النبي ﷺ التي فهمها العلماء من الكتاب والسنة نصاً أو استنباطاً.

الحقيقة: هي علم الباطن والمشاعر القلبية والحقائق الإيمانية المتصلة بالشريعة.

الطريقة: هي العمل بالشريعة والأخذ بعزائمها والبعد عن التساهل فيها و امتثال الأوامر الإلهية واجتناب المنهيات ظاهراً وباطناً، فهي السلوك الذي يظهر في الشريعة والحقيقة.

المربي من مواعظ وقصص وعبر وحكم وأمثال، مما يؤثر ذلك في سلوك المريدين وتغيير أحوالهم بما يتناسب مع الشريعة والحقيقة والسلوك، ثم بعد هذا الدرس النظري يكون هناك درس عملي جماعي يمارس فيه ذكر الله ﷻ.

– يبتدئ هذا الدرس بقراءة عشر من القرآن الكريم، ثم التوجه إلى الله ﷻ بالاستغفار، ثم قراءة سورة الفاتحة و سورة الإخلاص وسورتي المعوذتين وسورة الانشراح، ثم الصلاة على النبي ﷺ بصيغ متعددة وبعدد محدود ثم الابتداء بذكر الله ﷻ إما باسمه الأعظم (الله) أو بصفاته (لا إله إلا الله) أو بتسبيحه أو تحميده أو تكبيره أو بأذكار أخرى مستمدة من القرآن والسنة.

– ويختم المجلس بقراءة عشر من القرآن والصلاة على النبي العدنان ﷺ والدعاء.

– كل ذلك في جو إيماني يغسل النفوس، ويزيل الهموم، وينور القلوب، ويشرح الصدور، ويزيد في الإيمان.

– وأئمة هذه الطرق ظهروا ما بين القرنين السادس والثامن، فكانوا قريبي عهد بالسلف الصالح، حرصوا أشد الحرص على الاستفادة منهم والتمسك بما تمسكوا به من تعاليم القرآن والسنة، مبتعدين عن كل بدعة تُبعِدُ عن الدين وكل ضلالة تؤدي إلى النار.

– ثم انتشرت هذه الطرق في بلاد العالم، وتعددت أسماؤها حسب أسماء شيوخها، وإن وجد في بعضها شيء من البدع التي تخالف الشرع، فإنما هي بدعٌ ظهرت من المريدين الذين لم يتمسكوا بحقائق الطريقة، فالخطأ منهم لا من الطريقة.

– ومن أخذ بطرقهم فعليه أن يتمسك بحقيقة هذه الطريقة وجوهرها، وأن يبتعد عن كل بدعة يراها مخالفة للقرآن والسنة، وأن يعرف أن هذه البدع من زيادة بعض المريدين لا من أصل هذه الطريقة.

الطريقة النقشبندية[1]

(١)انظر د.محمد أحمد درنيقة: الطريقة النقشبندية وأعلامها.

- تنسب هذه الطريقة إلى الخليفة الراشدي الأول سيدنا أبي بكر الصديق ﷺ إذ كان يعدُّه - أصحاب هذه الطريقة- المؤسس الأول، وهم بذلك يرجعونها إلى الرسول ﷺ.

- وقد استقت هذه الطريقة مبادئها وأسسها التي ميزتها عن بقية الطرق الصوفية بفضل تعاليم أربع شخصيات:

أولاً- الصحابي الجليل سلمان الفارسي: (ت٣٦هـ\ ٦٥٦م)

ثانياً- أبو يزيد طيفور البسطامي واسمه طيفور بن عيسى بن آدم بن سروشان: ولد في خرسان (ت٢٤٦هـ\ ٨٧٧م) ولم يعرف مكان دفنه.

ثالثاً- عبد الخالق الغجدواني: (ت. ٥٧٥ هـ./١١٧٩ م.) ولد بقرية غجدوان القريبة من بخارى ونشأ بها وتوفي ودفن بها أيضاً، وهو الذي وضع (الختم) النقشبندي أي طريقة الذكر، ومن المعلوم أن النقشبندية يولون أهمية كبرى لهذا الختم.

رابعاً- محمد بهاء الدين النقشبندي الأويسي البخاري المعروف بشاه نقشبند: وهو شيخ هذه الطريقة بلا منازع والتي أخذت اسمها من اسمه فأصبحت تعرف بالنقشبندية: ولد (٧١٧هـ/ ١٣١٧م) بقصر العارفان وهو قرية بالقرب من بخارى أصبح الشيخ محمد بابا السماسي والشيخ الأمير كلال، وقد اقتصر الذكر على الذكر الخفي وهذا النوع من الذكر أهم ما يميز الطريقة النقشبندية عن سواها من الطرق الصوفية توفي ليلة الاثنين ثالث شهر ربيع الأول (٧٩١هـ/ ١٣٨٨م) ودفن في بستانه كما أوصى.

- ومن آثاره عدة رسائل:

١- الأوراد البهائية وقد قام أتباع الشيخ بشرحها وتسميتها منبع الأسرار.

٢- تنبيه الغافلين.

٣- سلك الأنوار.

٤- هدية السالكين وتحفة الطالبين.

- كما اشتهر بنظم بعض الأبيات الحكمية بالفارسية قام مريدوه بتعريبها منها[(١)]:

أتينــاك بالفقــر لا بالغنــى وأنت الذي لم تــزل محسنا

من كان ذا عقل تبرأ من فتى يؤخر فعل اليوم منه إلى غد

- وقد كان زاهداً متقشفاً حريصاً على الكسب الحلال فكان يأكل خبز الشعير الذي يزرعه بنفسه، وكان يلبس جبة من الصوف، وكان محباً للفقراء يصنع لهم الطعام بيده، ويخدمهم ويواسيهم لذلك أحبه الجميع واعترفوا بفضله[(٢)].

- وقد عرفت الطريقة النقشبندية منذ نشأتها حتى الآن بعدة أسماء:

١- فمن عهد أبي بكر ﷺ حتى أبي يزيد البسطامي كانت تسمى **صديقية**.

٢- ومن عهد أبي يزيد حتى عبد الخالق الغجدواني كانت تسمى **طيفورية** نسبة للاسم الأول لأبي يزيد.

٣- ومن الغجدواني إلى محمد بهاء الدين كانت تسمى **خواجكانية** نسبة إلى ختم (ذكر) الخواجكان الذي أدخله الغجدواني.

---

(١)عبد المجيد الخاني: الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية ص١٣١.

(٢)المصدر السابق ص١٣٥.

٤- ومن محمد بهاد الدين إلى الآن أصبحت تعرف بالنقشبندية، وهي كلمة مؤلفة من جزءين: (**نقش** وهو الحفر، و**بند** أي القلب ومعناه ربط وبقاء من غير محو فالكلمة تشير إلى تأثير الذكر في القلب وانطباعه فيه) [١].

(يرى النقشبندية أن طريقتهم أقرب الطرق وأسهلها على المريد للوصول إلى درجة التوحيد وهي طريقة الصحابة على أصلها لم تزد ولم تنقص فهي تدعو إلى العبودية التامة ظاهراً وباطناً مع الالتزام التام بآداب السنة النبوية وهي تحض على العزائم وتجنب الرخص في جميع الحركات والسكنات في العادات والعبادات والمعاملات، كما أنها متحررة من الابتداع والانحرافات والشطحات والرقص وسفاسف السماع وليس فيها كثرة الجوع وكثرة السهر، وبالتالي فإنها سليمة من كدرات جهلة المتصوفة، لأنها ملتزمة بآداب الشريعة التي تحث على الاعتدال وفضيلة الوسط)[٢].

(ومدار الطريقة عندهم يقوم على:

أولاً- التحقق بكمال الإيمان بالله ورسوله، وبما جاء به الرسول ﷺ بحيث تظهر نورانية تلك الحقيقة في جميع أعضاء المريد، ولا يتسنى ذلك إلا بملازمة طاعة الله ﷻ، وابتغاء مرضاته، ومتابعة الرسول ﷺ، ومخالفة النفس الأمارة.

ثانياً- التحقق بكمال الإسلام المعبر عنه بالتزام العبد بجميع الأحكام الشرعية مع إظهار العجز والافتقار والذل والانكسار والتسليم من حيث الظاهر والباطن، ولا يحصل كمال الإسلام إلا بمجاهدة النفس وبأن تتبّع السنة النبوية، وتعمل بالعزيمة، وتتجنب الرخصة.

---

(١)محمد سليمان: الحديقة الندية.

(٢)الكمشخالني: جامع الأصول ص١٣٦.

ثالثاً: التحقق بكمال الإحسان أي تصفية العمل من طلب عوض أو قصد غرض أو رياء، وبكلمة هي الإخلاص أي أن يكون العمل خالصاً لوجه الله ﷻ) [1].

– (وللطريقة النقشبندية قدم راسخة في إنقاذ البشر من عالم الشرور لما فيها من التعاليم العالية، فغايتها تهذيب النفوس، وإيصالها إلى الماهية الغالية من الإيمان) [2].

– وبالجملة فهي: (أم الطرائق ومعدن الأسرار الصديقية والحقائق، وهي الطريق الأقرب الأسلم الأحكم الأوضح، والمشرب الأعلى الأصفى المصون عن قدح كل قادح) [3].

– وقد انتشرت هذه الطريقة في أنحاء العالم الإسلامي كله، وإليها ينتسب كثيرٌ من العلماء المشهورين في هذا العالم و من أشهرهم في بلاد الشام: الشيخ عيسى الكردي وتلامذته ومنهم الشيخ محمد أمين الكردي الزملكاني، والشيخ محمد أمين كفتارو، ثم الشيخ أحمد كفتارو رحمهم الله.

۞ ۞ ۞

الطريقة القادرية[4]

(١)أسعد صاحب: بغية الواجد ص٢٥.

(٢)عبد الله الدهلوي: منحة الرحمن، ص٣١.

(٣)محمد سليمان: الحديقة الندية: ص١٧.

(٤)انظر: د.محمد أحمد درنيقة: الطريقة القادرية وأعلامها.

– مؤسس الطريقة القادرية الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهو محيي الدين عبد القادر بن أبي صالح موسى بن عبد الله بن يحيى الزاهد بن محمد بن داود بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن بن علي بن أبي طالب ﷺ، أمه: أم الخير فاطمة بنت الشيخ عبد الله الصومعي الحسيني الزاهد فهو حسني من جهة الأب حسيني من جهة الأم.

– (ولد الشيخ عبد القادر عام (٤٧٤هـ /١٠٧٧م) في جيلان أو كيلان فعرف بالجيلاني أو الكيلاني، وجيلان إقليم فارسي يقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين اشتق اسمها من الجيالي بمعنى الوحل، وذلك لكثرة المستنقعات التي تغمر الإقليم) [(١)].

– ظل الشيخ عبد القادر في بلدته جيلان ثمانية عشر عاماً تلقى فيها بعض مبادئ العلوم الشرعية فقصد بغداد حيث كانت عنواناً لحضارة علمية، فكانت مجمعاً للعلماء والفلاسفة، ومركزاً للفقهاء والعلماء والمحدثين، ومنتدى للشعراء والكتاب وأصحاب التراجم والسير والتاريخ، ومحراباً للزهاد والصوفية، أمضى الشيخ عبد القادر في بغداد أكثر من سبعين سنة عاصر خلالها خمسة من الخلفاء العباسيين وهم المستظهر بأمر الله والمسترشد والراشد والمقتفي لأمر الله والمستنجد بالله، هذه الفترة التي كانت ملأى بالحوادث الخطيرة حيث كان الصراع عنيفاً بين الخلفاء العباسيين وبين سلاطين آل سلجوق الذين كانوا يطمحون إلى بسط نفوذهم وسيطرتهم على الدولة العباسية، وكثر في هذا الوقت حب الدنيا، والتكالب على شهواتها وزخارفها وسيطر النفاق والحقد، والغل والحسد، والكراهية والبغضاء، إلى غير ذلك من الآفات والمفاسد الاجتماعية.

– فلما رأى الشيخ عبد القادر هذه الانحرافات، وأدرك أن هذه الأمة بحاجة ملحة إلى دعوة دينية تخفف من الغلو في حب الدنيا، والشغف بلذاتها، والإقبال على مظاهرها، وتوقظ في النفوس

---

(١)أحمد عطية الله :القاموس الإسلامي.

روح الإيمان، وتثير عقيدة الآخرة، وتدعو إلى تحريك القلوب حباً لله وحده وحنيناً إليه وطلباً لرضوانه.

- ومن أجل أن يحقق الشيخ عبد القادر هذه الأهداف أقبل على طلب العلم بهمة عالية وحرص شديد فكان يتعلم في اليوم ما يتعلمه أقرانه في أسبوع فأتقن العلوم السائدة في عصره على مشاهير مشايخ بغداد آن ذاك، فحصل علوم القرآن والأصول والفروع وعلم الحديث وقرأ الأدب وأخذ علوم التصوف عن الشيخ حماد بن مسلم الدباس وعن القاضي ابن سعيد المخرمي الذي له سلسلة من المشايخ تصله بالشبلي فالجنيد فالسري السقطي فمعروف الكرخي فداود الطائي فحبيب العجمي فالحسن البصري فأمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ثم حبب إليه شيخه حماد الدباس المجاهدات والرياضات، كان هذا الشيخ قدوة لمشايخ بغداد، فقام الشيخ عبد القادر بهذه المجاهدات والرياضات حتى صفا قلبه، ونال مراده، ومالت نفسه إلى إرشاد الخلق إلى الحق ﷻ فسلمه شيخه أبو سعيد مدرسته بباب الأزج ببغداد، فقام الشيخ عبد القادر بالمهمة خير قيام ولاقى قبولاً منقطع النظير من جماهير بغداد، وأقبل عليه الناس من كل حدب وصوب حتى إن المدرسة ضاقت بهم، فقام الأغنياء منهم بشراء الدور والأماكن المجاورة وتمت توسعتها، وما لبثت أن نسبة إليه.

- (وتصدر بها للتدريس والاجتهاد في الوعظ مع الاجتهاد في العلم والعمل وجمع الله قلوب عباده على حبه، وألهج ألسنهم بالثناء عليه، وانتهت إليه رئاسة العلم والتربية والإصلاح والإرشاد والدعوة إلى الله ﷻ بالعراق، وقصده الناس من الآفاق، وكان يحضر مجالسه في بعض الأحيان الخليفة والملوك والوزراء، فيجلسون متأدبين خاشعين أما العلماء والفقهاء، فلا يأتي عليهم حصر، وقد عد في بعض مجالسه أربعمائة محبرة) (١).

---

(١)الندوي: رجال الفكر ص٢٥٤.

– (في هذه المجالس كان الشيخ يدرس التفسير والحديث والمذهب والخلاف والأصول والنحو ويقرأ القرآن بالقراءات وكان يفتي على مذهبي الإمامين (الشافعي وأحمد بن حنبل) وكانت فتواه تعرض على علماء العراق فتعجبهم) (١).

– (كان الشيخ عبد القادر يبدأ درسه بذكر آية قرآنية في موضوع معين ثم يورد الأحاديث النبوية التي تعين على فهمها، ثم يذكر أقوال السلف الصالح في تفسيرها ثم يدلي بدلوه في هذا الموضوع بما يثير إعجاب الجماهير ويبث فيهم روح الإيمان ونور اليقين فيتوب على يديه ألوف العصاة والمذنبين ويسلم الكثير من اليهود والنصارى) (٢).

– توفي الشيخ عبد القادر في بغداد في رمضان سنة ٥٦١هـ تموز ١١٦٧م، وقد جاوز التسعين وقبيل وفاته سأله ابنه عبد الوهاب النصيحة فقال: (عليك بتقوى الله، ولا تخف أحداً سوى الله، ولا ترجو أحداً سوى الله، وكل الحوائج إلى الله، ولا تعتمد إلا عليه، واطلبها جميعاً منه، ولا تثق بأحدٍ سوى الله) (٣).

– وقد صلى عليه ولده عبد الوهاب مع إخوته وحشد كبير من تلامذته ومريديه وأصحابه، ثم دفن برواق مدرسته بباب الأزج ببغداد.

– (ثم ما لم لبث أن تحول ضريحه إلى زوايا عظيمة لتخريج رجالات القادرية، أخذ من توالى على حكم بغداد في توسعة هذه الزوايا والعناية في تزيينها وزخرفتها حتى أضحت مزاراً ومعلماً من مزارات بغداد ومشاهدها)(٤).

---

(١)الشعراني الطبقات جزء١ ص١٢٧

(٢) محمد التادفي الحنبلي: قلائد الجواهر ص٦.

(٣) عبد القادر الجيلاني: فتوح الغيب على هامش قلائد الجواهر ص١٣٠.

(٤) أسعد صاحب في بغية الواجد ص٢٠٩.

- ترك الشيخ عبد القادر عدة مؤلفات تمتاز بالدقة العلمية، والفهم السليم لمرامي الشريعة الإسلامية والتحليل العميق لمشاكل المسلمين في عصره، وأشهر هذه المؤلفات:

١- الغنية لطالبي الحق ﷻ.

٢- الفتح الرباني والفيض الرحماني، ويضمُّ المواعظ التي كان يلقيها على تلامذته في مدرسته ببغداد.

٣- فتوح الغيب مطبوع على هامش قلائد الجواهر للتاد.

٤- الفيوضات الربانية في المآثر والأوراد القادرية، جمع الشيخ محمد سعيد القادري.

- (اشتهر الشيخ عبد القادر بحسن أخلاقه وعلو همته وتواضعه لله تعالى وسخائه وكرمه وإيثاره، وكان يجالس الفقراء ويؤاكلهم ويحنو عليهم، كان يحفظ الود، ويتجاوز عن السيئات، ويتفقد من غاب من تلامذته، ويسأل عنهم) [١].

- (ومن تواضعه انه كان يقف للصغير والجارية وذلك مع جلالة قدره وعلو منزلته، وبالمقابل لم يكن ليقف بباب وزير أو سلطان طلباً لدنيا أو سعياً وراء جاه أو منفعة) [٢].

- (وكان حنبلي المذهب لكنه لم يكن متعصباً لأن همه الأوحد الوصول إلى الله سبحانه وتعالى ونيل رضوانه، فكان يقول: اترك التعصب في المذهب واشتغل بشيء ينفعك في الدنيا والآخرة)[٣].

- يصفه العالم ابن رجب الحنبلي فيقول:

---

(١)الندوي: رجال الفكر ص٢٥٥.

(٢)عمر فروخ: التصوف في الإسلام ص٧٩.

(٣)الجيلاني: الفتح الرباني ص٢٣.

(شيخ العصر، وقدوة العارفين، وسلطان المشايخ، وسيد أهل الطريقة في وقته، صاحب المقامات والكرامات، والعلوم والمعارف، والأحوال المشهورة) (١).

- ويصفه ابن السمعاني:

(إمام الحنابلة وشيخهم في عصره، فقيه، صالح، دينٌ، خيرٌ، كثير الذكر، دائم الفكر، سريع الدمعة) (٢).

- وقال عنه ابن حجر العسقلاني الشافعي:

(كان فقيهاً، زاهداً، عابداً، يتكلم إلى الناس ويرغبهم في الزهد والتوبة، ويحذرهم من العقوبة على المعصية، فكان يتوب على يده من الخلق ما لا يحصى كثرته، وله كرامات مستفيضة) (٣).

- كما وصفه الإمام النووي بالعبارات التالية:

(جميل الصفات، شريف الأخلاق، كامل الأدب والمروءة، كثير التواضع، دائم البشر، وافر العلم والعقل، شديد الاقتفاء لكلام الشرع وأحكامه، معظماً لأهل العلم، مكرماً لأرباب الدين والسنة، مبغضاً لأهل البدعة والأهواء، محباً لمريدي الحق مع دوام المجاهدة ولزوم المراقبة إلى الموت، وكان له كلام عال في علوم المعارف، سخي الكف، كريم النفس على أجمل طريقة) (٤).

- وضع الشيخ عبد القادر الجيلاني رحمه الله الأسس والمبادئ للتربية الروحية، ووضع بعض الصلوات والأدعية والأوراد ليرددها السالكون، وهي جميعاً مستمدة من كتاب الله ﷻ ومن سنة

---

(١) ابن رجب: الذيل، جزء١، ص٢٠٥.

(٢) المصدر نفسه والصفحة نفسها.

(٣)محمد التادفي الحنبلي: قلائد الجواهر ص١٣٥.

(٤)المصدر نفسه: ص١٣٨.

رسول الله ﷺ، فالشيخ عبد القادر من الصوفية المعتدلين الذين كرسوا حياتهم للدعوة والإيمان، وترك الفسوق والعصيان، والإقبال على الله ﷻ لنيل رضاه، ولم يطلب من مريديه ولا تلاميذه استعمال الآلات الموسيقية وضرب الشيش وأكل الجمر خلال حلقات الذكر، فهذه الأمور من البدع التي أدخلها بعض المريدين بعد وفاة الشيخ.

- ولقد دعا الشيخ عبد القادر رحمه الله إلى اتحاد القول والفعل ومعانقة الإخلاص وتفويض الأمر لله والرضا بقضائه وموافقة الكتاب والسنة في كل حال ووارد وخطرة، وفي ذلك يقول:

(اتبعوا ولا تبتدعوا، وأطيعوا ولا تخالفوا، واصبروا ولا تجزعوا، واثبتوا ولا تمزقوا، وانتظروا ولا تيأسوا، واجتمعوا على الأمر ولا تفرقوا، وانتبهوا من الذنوب ولا تتلطخوا، وعن باب مولاكم لا تبرحوا)(١).

- (ولقد رأى أن المعروف هو كل ما وافق الكتاب والسنة والعقل، وأن المنكر هو ما خالف هذه المصادر)(٢).

۞ ۞ ۞

الطريقة الرفاعية(٣)

- (مؤسس هذه الطريقة الشيخ أحمد الرفاعي، وهو أبو العباس أحمد بن أبي الحسن علي بن يحيى بن ثابت بن حازم بن أحمد بن علي بن رفاعة الرفاعي الحسيني البطائحي المغربي أصلاً الشافعي مذهباً، ورفاعة هذا اسمه حسن المكي ولقبه رفاعة، هاجر من مكة إلى المغرب عام(٣١٧هـ/

---

(١) الشعراني الطبقات الكبرى، جزء١ص١٢٩.

(٢)الجيلاني: الغنية جزء١،ص٤٧.

(٣)انظر: د.محمد أحمد درنيقة: الطريقة الرفاعية وأعلامها.

٩٢٩م) وهي السنة التي قتل فيها القرامطة أمير مكة وقاموا بنهب وهدم أجزاء من الكعبة المشرفة، وينتهي نسب رفاعة إلى الحسين بن علي بن أبي طالب.

– التحق رفاعة بإحدى القبائل العربية بالقرب من إشبيليه بالأندلس، وظل أولاده يتناسلون هناك إلى عهد يحيى جد الشيخ أحمد، فكان يحيى أول قادم من هذه الأسرة إلى العراق حيث وصل البصرة عام (٤٥٤هـ/ ١٠٥٨م)، وقد اشتهر بالزهد، وعلوّ الهمة، تزوج بنت الشيخ حسن النجاري وولد له علي أبو الحسن والد الرفاعي) [(١)].

– في عام (٥٠٠هـ /١١٠٦م) ولد أحمد الرفاعي في قرية حسن بالبطائح بالقرب من واسط بالعراق، وفي السابعة من عمره توفي والده ببغداد فكفله خاله الشيخ منصور البطائحي، وقد درس القرآن وحفظه ورتله على الشيخ عبد السميع الحربوني، ثم انتقل مع والدته وإخوته وخاله إلى قرية نهر دقلي حيث تتلمذ على الشيخ أبي الفضل علي القارئ الواسطي (وهو من كبار المتصوفة وعلماء زمانه) الذي قام بتربيته وتأديبه وتعليمه، كما تلقى الفقه على المذهب الشافعي عن الشيخ عبد الملك الحربوني (فقيه زمانه).

– وفي العشرين من عمره أجازه الشيخ أبو الفضل بعلوم الشريعة والطريقة ولقبه بأبي العلمين (الظاهر والباطن).

– (وفي الثامنة والعشرين من عمره سلمه خاله منصور مشيخة رواق (أم عَبيدة) –وكانت زمن الرفاعي مأهولة بالسكان وموقعها في البطحاء قرب قضاء الرفاعي من محافظة الناصرية بالعراق– فامتثل أوامر خاله، وأقام في تلك القرية، أخذ بالإرشاد، فكان يقرأ في كل يوم صباحاً ومساءً

(١)المصدر نفسه.

دروس الفقه والتفسير والحديث والعقائد، كما كان يعظ الناس كل اثنين وخميس بعد صلاة الظهر حيث كان يقبل على مجالس وعظه الجم الغفير من الناس) [1].

– وكان إذا جلس على كرسيه في الدرس أحاطت به أئمة العلماء وفحول الخطباء والمرشدون والكثير من الخواص والعوام، فإذا أخذ بالتحدث جرى العلم على لسانه كالبحر المتدفق فيذهل العارفين ببلاغته وسعة علمه، ويخرس الجامدين والمارقين بقوة حججه، فالأدباء تأخذ نصيبها من فصاحته، والعلماء من معارفه، والفلاسفة من تحقيقه وحكمه.

– وكان الرفاعي يقرأ القرآن ويجوده على أحسن وجه، وقد أتقن هذا الفن على شيخه علي القاريء الواسطي، وكان الرفاعي في شبابه يتجنب الأقران منصرفاً إلى رياضة الذكر ومجاهد النفس وترويضها حتى تترقى في مقامات الطريق (حتى انتهت إليه الرئاسة في علوم الطريق وشرح أحوال القوم وكشف مشكلات منازلاتهم، فتخرج بصحبته الجمع الكثير وأثنى عليه العارفون، وقدمه السالكون) [2].

– (وفي عام ٥٥٥هـ/ ١١٥٦م قام الرفاعي بأداء فريضة الحج مع جموع غفيرة من مريديه، ومما يذكره الرواة أنه وقف تجاه قبر الرسول ﷺ وقال: السلام عليك يا جدي وأنشد:

في حالة البعد روحي كنت أرسلها   تقبل الأرض عني فهي نائبتي

وهذه دولة الأشباح قد حضرت   فامدد يمينك قد تحظى بها شفتي) [3]

– وقد قيل أنه حدثت له حالة روحية شعر بها أن النبي قد أخرج يده فقبلها.

---

(١)أحمد الرفاعي: البرهان المؤيد ص٤.

(٢)عبد الحكيم عبد الباسط: سماع وشراب عند أشرف الأقطاب ص٣٠.

(٣) أبو الهدى الصيادي: العقد النضيض في آداب الشيخ والمريد ص٤٥.

- (مرض الشيخ أحمد الرفاعي مرضاً في بطنه استمر نحو شهر ثم توفي في الثاني عشر من جمادى الأولى عام ٥٧٨هـ ١١٨٢م، ودفن بأم عبيدة في قبة جده لأمه)[١].

- وكان يوم وفاته مشهوداً إذ احتشدت الجموع لتشييعه من كل المدن والقرى وبلغت مراثيه أكثر من ألف قصيدة، وقد ترك الشيخ الرفاعي رحمه الله مؤلفات كثيرة ومتنوعة فقد معظمها إبان هجوم التتار على العراق وتدميرهم للحضارة الإسلامية بالعراق، وأشهر ما بقي منها:

١- البرهان المؤيد: وهو عبارة عن مجالس وعظه،و قد جمعه ودونه تلميذه شرف الدين بن الشيخ عبد السميع الواصد، وهو من الكتب المهمة في بيان أصول الطريق الرفاعية.

٢- حالة أهل الحقيقة مع الله: ويتضمن أربعين مجلساً في كل خميس مجلس، ويبدأ الرفاعي مجلسه بذكر حديث نبوي ثم يأخذ في شرحه بما أوتي من علوم الصوفية وأقوالهم مستشهداً بالآيات القرآنية.

٣- المصباح المنير في ورد السيد الرفاعي الكبير.

٤- السر المصون وهو حزب الرفاعي.

٥- معاني بسم الله الرحمن الرحيم.

٦- تفسير سورة القدر.

٧- الطريق إلى الله.

- ومن أهم مصنفاته المفقودة: شرحه لكتاب التنبيه لأبي إسحاق الشيرازي في فروع الفقه الشافعي، وقد شرحه الرفاعي في ستة مجلدات كبيرة.

---

(١)الرافعي: سواد العينين ص٨٣.

– (ولم يسلم الرفاعي من الدس، فقد تجرأت جماعة من الخارجين عن تعاليمه فوضعت كتاب الفتح المبين، وزعمت أنه من مواعظ الرفاعي وكلماته المأثورة، وقد ذكروا فيه أقوالاً لا يمكن أن تصدر عن شيخ ملتزم بأوامر الشرع محارب للشطحات والبدع، وقد حرص المنصفون من المترجمين لحياة الرفاعي على نبذها وإهمالها) [1].

– فقد ذكر الإمام أحمد الرفاعي تحت عنوان الرقص والسماع ما يلي: (إيش أعمل بالسماع الذي يرقص فيه الراقص بغير قلب، ونجاسة النفس لطخته، كيف يحسب برقصه ونقصه من الذاكرين؟

ورُبَّ تالٍ تلا القرآن مجتهداً   بين الخلائق والقرآن يلعنه

– ثم قال: سمى القوم الهز بالذكر: رقصاً أن وارد الهِزة من الروح، فنسبوا الرقص للروح لا للجسم، وإلا فأين الراقصون؟ وأين الذاكرون؟ طلبُ هؤلاء حق وطلب هؤلاء ضلال.

سارت مشرقة وسرت مغرباً   شتان بين مشرق ومغرب

الراقصون كذابون، والذاكرون مذكورون[2] بين الملعون والمحبوب بون عظيم، إذا دخلتم مجالس الذكر فراقبوا المذكور، واسمعوا بأذن واعية)[3].

– (أخذ الرفاعي الإجازة في التصوف من شيخه علي القاريء الواسطي وهو من ابن كامخ الواسطي، وهو من علي بن تركان، وهو من أبي علي الروذباري، وهو من علي العجمي، وهو من أبي بكر الشبلي، وهو من أبي القاسم الجنيد البغدادي، وهو من خاله السريّ السقطي، وهو من

---

(١)أبو الهدى الصيادي: التاريخ الأوحد ص٨٤.

(٢)أي مذكرون عند الله تعالى الذي يقول: (أذكروني أذكركم)؟

(٣) مجموع الفتاوى جزء ٢ ص٢٢٣.

أبي محفوظ معروف الكرخي، وهو من داود الطائي، وهو من حبيب العجمي، وهو من الحسن البصري، وهو من الإمام علي بن أبي طالب، وهو من النبي ﷺ)[1].

- (وقد تأسى الشيخ أحمد الرفاعي رحمه الله بالرسول الكريم ﷺ، فأخذ عنه الأخلاق الحميدة والصفات الرحيمة فقد كان رحمه الله هيناً ليناً، حسن الخَلق، كريم الخُلق حلو المكالمة لطيف المعاشرة لا يمله جليسه حمولاً للأذى وفياً إذا عاهد جواداً من غير إسراف متواضعاً من غير ذلة كاظماً للغيظ من غير حقد أعلم أهل عصره بكتاب الله وسنة رسوله.

وكان يعود المرضى، ويغسل ثيابهم، ويحمل إليهم الطعام، ويأكل معهم ويجالسهم ويسألهم الدعاء، وكان يخرج إلى الطريق ينتظر العميان حتى إذا جاؤوا أخذ بأيديهم، وكان يعطف على المسنين ويوصي بهم خيراً، وكان يعفو ويصفح عمن يسيء إليه) [2].

الطريقة الشاذلية[3]

(١)أحمد الرفاعي: البرهان المؤيد ص٧٠.

(٢) الشعراني: الطبقات الكبرى جزء١ ص٤٣.

(٣)انظر: د.محمد أحمد درنيقة: الطريقة الشاذلية وأعلامها.

- تنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها الشيخ علي بن عبد الله أبي الحسن الشاذلي الحسني، ولد ببلدة غمارة القريبة من مدينة سبتة بالمغرب الأقصى عام (٥٩٣هـ ١١٩٦م) درس ببلدته العلوم الدينية فبرع فيها، ثم أخذت نفسه تتوق إلى التعمق في المعارف والعلوم والكشوفات، فبدأ التفتيش على شيخ خبير بمعالم الطريق، ولما كانت بغداد آنذاك مركز الحضارة الإسلامية فقد قصدها أبو الحسن عله يجد فيها ضالته المنشودة، وهناك التقى بمشاهير علمائها وأوليائها لا سيما أبي الفتح الواسطي الذي قال فيه أبو الحسن: (لما دخلت العراق اجتمعت بالشيخ الصالح أبي الفتح الواسطي فما رأيت بالعراق مثله) [١].

- ولما أسرَّ أبو الحسن للواسطي بالهدف من حضوره للعراق أشار عليه بالعودة إلى بلاد المغرب للسلوك على الشيخ أبي محمد عبد السلام بن مشيش[٢]، فرجع أبو الحسن إلى المغرب حيث اتصل بابن مشيش وفي ذلك يقول: (لما قدمت عليه، وهو ساكن مغارة برباطه في رأس الجبل، اغتسلت في عين في أسفل الجبل وخرجت عن علمي وعملي، وطلعت إليه فقيراً، وإذا به هابطٌ علي فلما رآني قال: مرحبا بعلي بن عبد الله ..... وذكر لي نسبي إلى الرسول ﷺ ثم قال: يا علي طلعت إلينا فقيراً عن علمك وعملك وستأخذ منا غنى الدنيا والآخرة، فأخذني منه الدهش، وأقمت عنده أياماً إلى أن فتح الله على بصيرتي، ورأيت لها خرق عادات من كرامات وغيرها) [٣].

- وقد ساعده الشيخ ابن مشيش على اجتياز عقبات الطريق وما فيها من مقامات وأحوال بسهولة ويسر، كما زوده بالعديد من الوصايا التي بهرته وجعلته يقبل على التمسك بالشريعة والفناء في محبة الله سبحانه وتعالى، ولعل أهمها الوصية الجامعة التالية: (لا تنقل قدميك إلا حيث

---

(١)عبد الحليم محمود: المدرسة الشاذلية وإمامها أبو الحسن ص٢٢.

(٢) وهو صوفي مشهور في المغرب العربي تتلمذ على عبد الرحمن المدني وكان يؤثر العزلة.

(٣)محمد المدني: الأنوار القدسية ص٣١.

ترجو ثواب الله ﷻ، ولا تجلس إلا حيث تأمن من معصية الله ﷻ، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ﷻ، ولا تصطفي لنفسك إلا من تزداد به يقيناً) (١).

- وبعد أن أمضى أبو الحسن مدة في الأخذ عن الشيخ ابن مشيش أمره شيخه بالرحيل إلى بلدة شاذلة أولاً، ثم إلى تونس فالمشرق العربي طالباً منه الصبر على ما سيصادفه من محن وابتلاءات، وقد أوصاه بتنزيه لسانه عن ذكر الناس، وقلبه عن عبادة أصنامهم وتماثيلهم، ودعاه إلى حفظ الجوارح وأداء الفرائض وتذكير الناس بحقوق المولى عليهم، كما أمره بتلاوة الدعاء التالي:

(اللهم أرحني من ذكر الناس، ومن العوارض من قبلهم، ونجني من شرهم، وأَغْنِني بخيرك عن خيرهم، وتولني بالخصوصية من بينهم) (٢).

- ارتحل أبو الحسن إلى بلدة شاذلة القريبة من تونس فعرف من ذلك الحين بالشاذلي، وعرفت طريقته الصوفية بالشاذلية.

- (اختلى الشاذلي مدة في جبل الزعفران القريب من شاذلة، يجاهد النفس في مغارة بأعلى الجبل) (٣).

- في هذه المغارة كان الشاذلي يتضرع إلى ربه يحدوه الشوق والمحبة، ويعمر قلبه اليقين، وهذه الخلوة ضرورية عند أهل الطريق حتى يستكمل المريد معالم شخصيته، وبعد ذلك ينطلق إلى الدعوة والإرشاد تشبهاً بما كان يفعله النبي ﷺ قبل البعثة في غار حراء لاسيما خلال شهر رمضان من كل عام.

- وبعد أن أمضى الشاذلي فترة الخلو توجه إلى مدينة تونس حيث أقام في دار مسجد البلاط مع جماعة من أتباعه منهم: أبو الحسن علي بن مخلوف السقلي، أبو عبد الله الصابوني، أبو محمد

---

(١)حسن الملطاوي: الصوفية في إلهامهم ص١٨٨.

(٢) عبد الحليم محمود: المدرسة الشاذلية: ص٢٦.

(٣)محمد المدني: الأنوار القدسية ص٢٧.

عبد العزيز الزيتوني، وغيرهم كثير، وقد التف حوله المريدون الأمر الذي دفع قاضي المدينة ابن البراء إلى الدس على الشاذلي لدى سلطان تونس أبي زكريا، وقد بلغ هذا الدس ذروته عندما تمكن الشاذلي من إفحام ابن البراء وغيره من فقهاء تونس الذين ناظروه في علوم التفسير والفقه والحديث، فما كان من ابن البراء إلا أن أوغر صدر السلطان على الشاذلي، ثم تأكد السلطان من صدق الشاذلي وإخلاصه في الدعوة إلى الله ﷻ فاعتذر له، ولما عزم الشاذلي على ترك تونس لأداء فريضة الحج، حاول السلطان ثنيه عن عزمه مخافة أن يسمع الناس أن تونس تضيق ذرعاً بالأولياء والصالحين، فوعده الشاذلي بالعودة مجدداً إلى تونس، ولما دخل الشاذلي وأصحابه مصر في طريقهم إلى الحجاز كان ابن البراء قد أرسل إلى سلطان مصر بأنه سيصل إلى دياره من يشوش عليه البلاد كما شوش على التونسيين، لكن السلطان بعد أن اجتمع بالشاذلي وحادثه وأعجب به لم يأبه لهذه الدعوة بل سارع إلى تكريمه وتسهيل مروره مع أصحابه إلى الديار المقدسة.

- وبعد أداء الفريضة رجع الشاذلي إلى تونس فتتلمذ على يديه عدد كبير من أبنائها في طليعتهم أبو العباس المرسي، ثم عاد إلى الإسكندرية عام (٦٤٢هـ /١٢٤٤م) عن طريق الساحل ماراً بطرابلس الغرب، فلما نزل الإسكندرية استقبله أهلها بالحفاوة والتكريم، وخصص له السلطان برجاً أوقفه عليه وعلى ذريته من بعده، هذا البرج كان بمثابة الزاوية المركزية للشاذلية، ومنه انتشر مشايخ هذه الطريق يؤسسون الزوايا الشاذلية في مختلف أنحاء العالم الإسلامي.

- كان الشاذلي يجمع مريديه في هذا البرج كل ليلة لإقامة الأذكار وللوعظ والإرشاد وعند الانتهاء كان يتوجه إلى خلوته.

- (ولم يقصر أبو الحسن الشاذلي نشاطه العلمي والروحي على مدينة الإسكندرية وحدها بل كان دائم الرحلة إلى المدن المصرية فتردد على دمنهور، ثم زار دمياط والمنصورة.... وتردد كثيراً على

القاهرة، في كل هذه المدن كان الشيخ يعقد حلقاته المعتادة للدرس والوعظ لتفقيه الناس في أمور دينهم ولنشر مبادئه ودعوته) [١].

- أصيب الشاذلي عام (٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م) بانكفاف البصر لكثرة مطالعته وانصرافه إلى الدرس، لكن ذلك لم يدفعه إلى تغيير عادته حيث كان يؤدي فريضة الحج عاماً ويقيم آخر، وعندما كان يحج كان تلامذته في شتى أنحاء العالم يجتمعون به في الحجاز ليشكل منهم وفد الشاذلية.

- (وفي عام (٦٥٦هــ/ ١٢٥٨م) انطلق وفد الشاذلية لأداء فريضة الحج وفي إحدى ليالي شهر شوال من العالم ذاته جمع أصحابه وأوصاهم بأمور كثيرة كما أوصاهم بحفظ وترداد أحزابه، ثم اختلى بالشيخ أبي العباس المرسي، وأوعز إلى أصحابه بأن أبا العباس سيكون خليفته في مشيخة الطريقة من بعده، وبات الشاذلي في ذكر الله والتضرع إليه حتى وقت السحر فسكت وظن الجميع أنه قد نام فكلموه فلم يتكلم فحركوه فلم يتحرك فوجدوه ميتاً فدفنوه بحميثرا، في برية عيذاب في واد على طريق الصعيد، وقد أكمل الوفد بعد مراسم الدفن طريقه إلى الحج برئاسة خليفته المرسي) [٢].

- (كان الشاذلي يرتدي الثياب الحسنة على غير عادة معظم الصوفية كما كان يتناول الطعام الشهي ويشرب الماء البارد لأنه تمسك بقاعدة: اعرف الله ثم كن كيف شئت، وكان فصيح اللسان عذب الكلام لا يمله السامع، حافظاً للقرآن الكريم، متبعاً للسنة

---

(١)جمال الدين الشيال: أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي ص١٨٠.

(٢) ابن الملقن: طبقات الأولياء ص٤٥٩.

النبوية، متقناً للعلوم الدينية بالإضافة إلى العلوم الصوفية، ولم يكن ليقبل المريد ما لم يتبحر في العلوم الشرعية ويجتاز مناظراتها بنجاح.

وكان جواداً كريماً يسعى جهده في قضاء حوائج الناس، والتخفيف من وَطْءِ المصائب والكوارث التي تنزل بهم، فكان يتردد إلى الأمراء والولاة شافعاً ومدافعاً.

كان يعمل في الحرث والغرس والحصاد وتربية الماشية حيث يأخذ ما يحتاج إليه ثم يتصدق بالباقي على الفقراء والمحتاجين، وكان عالماً ورعاً، بحراً عميق الغور، ومربياً ممتازاً، تتلمذ على يديه صفوة رجال الفكر والعلم، وأسس أعظم مدرسة فكرية في المجتمعات الصوفية) [١].

- (لم يترك الشاذلي كتباً بالرغم من اهتمامه بالعلم ومطالعته الكثيرة وفقهه في مختلف مجالاته، وعندما سأل مرة: (لِمَ لا تضع كتاباً في الدلالة على الله، وعلى علوم القوم؟ أجاب: كتبي أصحابي) فقد اعتبر تربية المريدين أفضل من تأليف الكتب، وتدوين المصنفات، ومع ذلك فقد ترك الشاذلي ثروة عظيمة من حكم ووصايا وأحزاب[٢] وأدعية رواها عنه مريدوه والعلماء ونشروها في كتب الصوفية) [٣].

---

(١) عبد الله اليافعي: مرآة الجنان جزء٤ ص١٤٦.

(٢) الحزب: دعاء يعبر به الصوفية عن خلجاتهم وخواطرهم وهو غير مخصوص بوقت بل يقرأه الصوفي متى شاء وكيفما أراد.

(٣) فاطمة اليشروطية: رحلة إلى الحق ٤٨.

- (وقد تفرعت الشاذلية إلى عدة فروع منها: القاسمية، والمدنية، والسولامية، والقاوقجية، والفيضية، والإدريسية، والجوهرية، والوفائية، والعزمية، والحامدية، والمحمدية، والهاشمية إلى غير ذلك، وهي تحمل أسماء مشاهير مشايخها والمجددين فيها)[1].

- وما زالت الطريقة الشاذلية تنتشر في العالم الإسلامي إلى زماننا الحاضر، وينتسب إليها العديد من كبار العلماء والأولياء والصالحين، من أشهرهم: ابن عطاء الله السكندري[2]، وجلال الدين عبد الرحمن السيوطي[3]، والشيخ عبد الحليم محمود[4].

۞ ۞ ۞

---

(١) أبو الوفا: مدخل إلى التصوف الإسلامي ص٢٤٢.

(٢) توفي (٧٠٩هـ ١٣٠٩م).

(٣) توفي (٩١١هـ ١٥٠٥م).

(٤) شيخ الأزهر المشهور توفي (١٤١٠هـ ١٩٩٠م).

المراجع والمصادر

١- القرآن الكريم

٢- كتب الأحاديث النبوية: البخاري، مسلم، أحمد، الترمذي، النسائي، ابن ماجه....

٣- كتب التفاسير المتعددة (القرطبي، ابن كثير، الخازن، الرازي، البغوي..).

٤- آثار البلاد وأخبار العباد: القزويني

٥- أحسن المحاسن: الطبراني

٦- إحياء علوم الدين: أبو حامد الغزالي

٧- أدب الدنيا والدين: الماوردي

٨- الاعتصام: الشاطبي

٩- اعتقادات فرق المسلمين والمشركين: الرازي

١٠- الأعلام: الزركلي

١١- أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي: جمال الدين الشيال

١٢- إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان: ابن قيّمِ الجوزية

١٣- أفعال الرسول ودلالتها على الأحكام التشريعية: د.محمد سليمان الأشقر

١٤- الإكمال: ابن ماكولا

١٥- الانتصار لطريق الصوفية: أحمد صديق الغماري

١٦- الأنوار القدسية: محمد المدني

١٧- الإيضاح والمجموع: النووي

١٨- إيقاظ الهمم في شرح الحكم: ابن عجيبة

١٩- البحر الرائق: أحمد فريد

٢٠- البحر الرائق في الزهد والرقائق: ابن نجيم

٢١- البداية والنهاية: ابن كثير

٢٢- البرهان المؤيد: أحمد الرفاعي

٢٣- بستان الواعظين ورياض السامعين: ابن الجوزي

٢٤- بغية الواجد: أسعد صاحب

٢٥- بين التصوف والحياة: عبد الباري الندوي

٢٦- تاريخ الإسلام: د.حسن إبراهيم حسن

٢٧- تاريخ الجزائر العام: عبد الرحمن الجيلاني

٢٨- تاريخ أهل التصوف: أبو عبد الرحمن السلمي

٢٩- التاريخ الأوحد: أبو المدى

٣٠- تأييد الحقيقة العلية:	جلال الدين السيوطي
٣١- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي:	المباركفوري
٣٢- تحفة المحبين والأصحاب في معرفة ما لمدنيين من أنساب:	الأنصاري
٣٣- تدابير القدر:	محمد شيت خطاب
٣٤- تذكرة الحفاظ:	الذهبي
٣٥- التربية الروحية:	د. محمد شيخاني
٣٦- تصدير كتاب نور التحقيق:	حامد إبراهيم محمد صقر
٣٧- التصوف الإسلامي:	عمر فروخ
٣٨- التعرف لمذهب أهل التصوف:	أبو بكر محمد الكلاباذي
٣٩- تنوير القلوب:	محمد أمين الكردي
٤٠- التوسل أنواعه وأحكامه نقله عيد العباسي وقال إنها مقالات عـــن:	الشيخ ناصر الألباني
٤١- الثقافة النبوية:	مصطفى الحمصي
٤٢- ثمار القلوب من المضاف والمنسوب:	الثعالبي
٤٣- الجانب العاطفي من الإسلام:	محمد الغزالي

٤٤- جامع الأصول: الكمشخانلي

٤٥- جامع العلوم والحكم بشرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم: ابن رجب الحنبلي

٤٦- الجامع لأحكام القرآن: الكمشخانلي

٤٧- جلاء الأفهام: ابن قيم الجوزية

٤٨- الجواب الكافي: ابن قيم الجوزية

٤٩- حاشية ابن عابدين: ابن عابدين

٥٠- حاشية رد المحتار: ابن عابدين

٥١- حالة أهل الحق: أحمد الرفاعي

٥٢- حجة الله على العالمين: النبهاني

٥٣- الحدائق الوردية في حقائق أجلاء النقشبندية: عبد المجيد الخاني

٥٤- الحديقة الندية: محمد سليمان

٥٥- حقائق عن التصوف: عبد القادر عيسى

٥٦- حقيقة التصوف: أبو سعيد التونسي

٥٧- حكايا الصوفية: أبو اليسر عابدين

٥٨- حلية الأولياء: أبو نعيم الأصبهاني

٥٩- خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر: المحبي

٦٠- خلاصة التصانيف في التصوف: أبو حامد الغزالي

٦١- دائرة معارف الشعب

٦٢- الدر الثمين والورد المعين: محمد أحمد القاسي

٦٣- الدر المختار وعليه حاشية ابن عابدين: الحصفكي

٦٤- الذيل على صفات الحنابلة على ترجمة ابن القيم: ابن رجب الحنبلي

٦٥- رجال الفكر والدعوة في الإسلام: أبو الحسن الندوي

٦٦- رحلة إلى الحق: فاطمة اليشروطية

٦٧- الرسالة القشيرية: أبو القاسم القشيري

٦٨- رسالة المقاصد: النووي

٦٩- رسائل ابن عابدين: ابن عابدين

٧٠- رسائل المسترشدين: المحاسبي

٧١- الرضا: محمد خالد ثابت

٧٢- الرضا عن الله بقضائه: ابن أبي الدنيا

٧٣- روائع إقبال: أبو الحسن الندوي

٧٤- زاد المعاد: ابن القيم

٧٥- سماع وشراب عند أشرف الأقطاب: عبد الحكيم عبد الباسط

٧٦- سواد العينين: الرافعي

٧٧- سير أعلام النبلاء: الذهبي

٧٨- سير السلف الصالح: الأصبهاني

٧٩- شذرات الذهب: عبد الحي الحنبلي

٨٠- شرح العقيدة الطحاوية: محمد ناصر الألباني

٨١- شرح كلمات الصوفية: نقلاً عن الموسوعة اليوسفية

٨٢- الشفاء للقاضي عياض: شرح ملا علي القاري

٨٣- الشفا بتعريف حقوق المصطفى: أبو الفضل عياض البحصبي

٨٤- الصبر والثواب عليه: ابن أبي الدنيا

٨٥- الصوفية إلهامهم: حسن الملطاوي

٨٦- طب القلوب: ابن قيم الجوزية

٨٧- طبقات الأولياء: ابن الملقن

٨٨- طبقات الحنابلة: ابن أبي يعلى

٨٩- الطبقات الكبرى: ابن سعد البصري

٩٠- طبقات الشعراء: ابن المعتز

٩١- طبقات الصوفية: السلمي

٩٢- الطريق إلى اللّه: أبو سعيد الخراز

٩٣- الطريقة الرفاعية وأعلامها: د.محمد أحمد درنيقة

٩٤- الطريقة الشاذلية وأعلامها: د.محمد أحمد درنيقة

٩٥- الطريقة القادرية وأعلامها: د.محمد أحمد درنقية

٩٦- الطريقة النقشبندية وأعلامها: د.محمد أحمد درنقية

٩٧- العبر في خبر من غبر: الذهبي

٩٨- عدة الصابرين: ابن القيم

٩٩- العقد الفريد: ابن عبد ربه الأندلسي

١٠٠- العقد النضيد في آداب الشيخ والمريد: أبو الهدى الصيادي

١٠١- العهد الوثيق لمن أراد سلوك أحسن الطريق: السبكي

١٠٢- عوارف المعارف: الإمام السهرودي

١٠٣- عين العلم وزين العلم: شرح ملا علي القاري

١٠٤- عيون الأخبار: ابن قتيبة الدّنيوري

١٠٥- غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب: السفاريني

١٠٦- الغنية: عبد القادر الجيلاني

١٠٧- الفتاوى الحديثة: ابن حجر

١٠٨- فتاوى ورسائل: محمد عبد الوهاب

١٠٩- الفتح الرباني: الجيلاني

١١٠- فتوح الغيب على هامش قلائد الجواهر: الجيلاني

١١١- الفتوحات المكية: ابن عربي

١١٢- الفروع: ابن مفلح

١١٣- الفقه المالكي: العلامة العدوي

١١٤- فوات الوفيات: محمد بن شاكر الكتبي

١١٥- فيض القدير: المناوي

١١٦- القاموس الإسلامي: أحمد عطية الله

١١٧- قصة الحضارة: ول ديوارنت ترجمة محمد بدران

١١٨- قلائد الجواهر: محمد التدافي الحنبلي

١١٩- قوت القلوب: أبو طالب المكي

١٢٠- قواعد التصوف: أحمد زروق الفاسي

١٢١- الكامل في التاريخ: ابن الأثير

١٢٢- كرامات الأولياء: أبو محمد الخلال

١٢٣- كشف الخفاء ومزيل الإلباس: العجلوني

١٢٤- كشف الظنون: حاجي خليفة

١٢٥- الكنوز النورانية القادرية: مخلف العلي القادري

١٢٦- لسان الميزان: ابن حجر

١٢٧- لطائف المنن والأخلاق: عبد الوهاب الشعراني

١٢٨- صفة الصفوة: أبو الفرج الجوزي

١٢٩- لمحات من التصوف وتاريخه: السائح علي حسين

١٣٠- اللمع: أبو نصر السرَّاج الطوسي

١٣١- لوامع الأنوار الإلهية: السفاريني

١٣٢- مبادئ الإسلام: أبو الأعلى المودودي

١٣٣- مجلة العشرة المحمدية: د.أحمد علوش

١٣٤- مجمع الحكم والأمثال: أحمد قبش

١٣٥- مجموعة الفتاوى: أحمد بن تيمية

١٣٦- محاسبة النفس: ابن أبي الدنيا

١٣٧- محاضرات الأولياء: الراغب الأصفهاني

١٣٨- مختصر تاريخ دمشق: ابن منظور

١٣٩- مختصر منهاج القاصدين: ابن قدامة المقدسي
١٤٠- مدارج السالكين: ابن قيم الجوزية
١٤١- مدخل إلى التصوف الإسلامي: أبو الوفا التفتنازي
١٤٢- المدرسة الشاذلية وإمامها: أبو الحسن عبد الحليم محمود
١٤٣- المدينة الندية: محمد سلمان
١٤٤- مرآة الجنان: عبد الله اليافعي
١٤٥- المسلمون في الهند: أبو الحسن الندوي
١٤٦- مطالع المسرات ودلائل الخيرات: علاء الفاسي
١٤٧- المعارف: ابن قتيبة
١٤٨- معالم السلوك: الحبيب علي الجفري
١٤٩- معالم الطريق إلى الله: محمود أبو الفيض المنوي
١٥٠- معجم البلدان: ياقوت الحموي
١٥١- معجم المؤلفين: عمر كحالة
١٥٢- معجم ما استعجم: أبو عبيد الأندلسي
١٥٣- معجم المناهي ومعه فوائد في الألفاظ الشيخ بكر أبو زيد
١٥٤- معراج التشوف إلى حقائق التصوف: ابن عجيبة

١٥٥- معيد النعم ومبيد النقم: عبد الوهاب سبكي

١٥٦- مفتاح الفلاح في ذكر الكريم الفتاح: تاج الدين ابن عطاء السكندري

١٥٧- مفتاح دار السعادة: ابن قيم الجوزية

١٥٨- مقدمة ابن خلدون: ابن خلدون

١٥٩- منارات السائلين: أبو بكر الرازي

١٦٠- منحة الرحمن: عبد الله الدهلوي

١٦١- المنقذ من الضلال: الغزالي

١٦٢- من كنوز الإسلام: محمد فايز المط

١٦٣- موقف أئمة الحركة السلفية من التصوف والصوفية: عبد الحفيظ مكي

١٦٤- موسوعة التاريخ الإسلامي: أحمد الشلبي

١٦٥- موسوعة التصوف الإسلامي: محمود حمدي زقزوق

١٦٦- موسوعة التراث الإنسانية: الناشر: وزارة الثقافة المصرية

١٦٧- ميزان الاعتدال: الإمام الذهبي

١٦٨- ميزان العمل: أبو حامد الغزالي

١٦٩- النجوم الزاهرة من ملوك مصر والقاهرة: ابن تغري بردي

١٧٠- نشر المحاسن الغالية: اليافعي

١٧١- النصرة النبوية على هامش
شرح الرائية للفاسي: مصطفى إسماعيل المدني

١٧٢- نوابغ الفكر الإسلامي: أنور الجندي

١٧٣- نور التحقيق: حامد صفر

١٧٤- هدية العارفين: الألباني

١٧٥- هكذا تكلم الأولياء والصالحون: أحمد حسين كعكو

١٧٦- الوابل الصيب من الكلم الطيب: ابن قيم الجوزية

١٧٧- الوافي بالوفيات: الصفدي

١٧٨- الوصايا: المحاسبي

١٧٩- وقفات مع سلفنا الصالح: محمد ياسر القضماني

١٨٠- وهو يتولى الصالحين: محمد الاسكندري

١٨١- اليواقيت والجواهر: الشعراني

مؤلفات المربي الدكتور محمد خير فاطمة

أولاً- منشورات دار الخير:

١- الآداب الإسلامية للناشئة ثلاثة أجزاء الجزء الأول (المرحلة الابتدائية) الجزء الثاني (المرحلة الإعدادية) الجزء الثالث (المرحلة الثانوية) (يمكن توزيعه في دورات القرآن).

٢- الآداب الإسلامية للناشئة مجلد (للوالدين والدعاة) (يمكن توزيعه هدية لهم).

٣- الأخلاق الإسلامية للناشئة ثلاثة أجزاء الجزء الأول (المرحلة الابتدائية) الجزء الثاني (المرحلة الإعدادية) الجزء الثالث (المرحلة الثانوية) (يمكن توزيعه في دورات القرآن).

٤- الأخلاق الإسلامية للناشئة مجلد (للوالدين والدعاة) (يمكن توزيعه هدية لهم).

٥- منهج الإسلام في تربية عقيدة الناشئ (تحتاجه كل أسرة في تربية أبنائها).

٦- منهج الإسلام في تزكية النفس (يُعَدّ منهجاً في التربية والتوجيه يحتاجه كل داعٍ في تربية من يدعوهم كما يحتاجه كل مسلم في تزكيته لنفسه).

٧- الجواهر الإيمانية (جزءان في مجلد) (للخطباء والمدرسين والدعاة).

٨- الزواج المبارك (لكل راغبٍ في أن يكون زواجه مباركاً، وهو من أفضل الكتب التي توزع في مناسبات الزواج).

٩- تعلم مع أويس الفقه (تعليم الأطفال مبادئ الفقه التي يحتاجونها أو تعليم الوالدين مبادئ الفقه الأساسية لأولادهم) (يمكن توزيعه في دورات القرآن).

١٠- البرنامج اليومي للمسلم الحق (قي كل شؤون دينه ودنياه وآخرته يحتاجه كل داعٍ لتربية من يدعوه كما يحتاجه كل مسلم يرسم لنفسه برنامجاً إيمانياً).

١١- معرفة الله (الطريق لمعرفة الله عَزَّ وَجَلَّ عقلاً وقلباً يحتاجه كل مسلم وداعٍ).

١٢- الوصايا القيمة لكل فتاة مؤمنة (يرسم الطريق الصحيح الذي يجب أن تسير عليه الفتاة المؤمنة في حياتها) (يمكن توزيعه على الطالبات وتدريسه من قبل المشرفات كما يمكن تقديمه هدية لهنّ في المناسبات المختلفة).

١٣- الاعتراف بالجميل جميل (دعوة للإحسان إلى الآخرين ورد الجميل عليه) (يمكن تقديمه هدية في مناسبات متعددة كعيد الأم وعيد المعلم).

١٤- رسالة من الميت للمعزين (يصلح أن يوزع في التعازي).

١٥- رسالة العشر الأخير من رمضان (يمكن توزيعه في شهر رمضان).

١٦- عمرة تقدر بالعمر (جزءان) (يحتاجه كل من أراد أن يؤدي عمرة لا تنسى).

١٧- أدعية مكة (يحتاجه كل من أراد أن يؤدي عمرة في مواقف الدعاء).

ثانياً- منشورات دار العصماء:

١- أولادي قرة عيني (يحتاجه كل من الوالدين لأنه يرسم الطريقة المثلى في تربية الأبناء من مرحلة الحمل إلى نهاية المراهقة).

٢- اتباع لا ابتداع (يحتاجه كل داعٍ ومسلم للرد على كثير من الشبهات).

٣- المولد النبوي اتباع لا ابتداع (يرد على كل الشبه التي تتعلق بالاحتفال بالمولد النبوي) (يمكن تقديمه هدية في مناسبات المولد).

٤- الأمل (يضع الأمل الفسيح في قلب المسلم في مواجهة الصعاب والعقبات) (يمكن توزيعه في مناسبات الأفراح أو عيادة المرضى).

٥- إلى الحبيب خذوني (زادُ من أراد أن يزور النبي ﷺ في المدينة المنورة والبرنامج المثالي الذي يجب أن يطبق هناك).

٦- ميتة حسب الطلب (يمكن أن يوزع في مناسبات التعزية).

٧- دعاء الإفطار (تحتاجه كل أسرة في شهر رمضان في دعائها عند الإفطار) (يمكن توزيعه على الأرحام والأقارب والجيران وفي مجالس الدعوة في شهر رمضان).

٨- بادر واغتنم (دعوة لضرورة اغتنام دقائق الحياة بأفضل الحسنات).

٩- رسالة وليالٍ عشر (برنامج المسلم في الأيام العشر الأوائل من ذي الحجة) (يمكن توزيعه على الأرحام والأقارب والجيران وفي مجالس الدعوة في هذه المناسبة).

١٠- دليل العمرة (يحتاجه من أراد أن يؤدي عمرة مقبولة مثالية).

١١- دليل الحج (يحتاجه من أراد أن يؤدي الحج على أعلى مستوى).

١٢- رحلة الحج على بصيرة (يحتاجه من أراد أن يؤدي الحج ليتعرف على البرنامج الحقيقي المنفذ في رحلة الحج دون التباس أو خداع).

١٣- الوسائل التعليمية (يفيد كل معلم في جميع مراحل التعليم).

الفهرس

الموضوع	الصفحة

١١- حاجتنا إلى التصوف.

١٢- منهج التصوف.

الباب الثاني: أنواع التصوف

١- التصوف السني.

٢- التصوف البدعي.

٣- التصوف الفلسفي.

الشطح.

الباب الثالث:السلوك في طريق التصوف

١- البحث عن العالم المربي، والمرشد المزكي.

٢- مصاحبة عباد الله الصالحين وأوليائه المقربين.

٣- أداء الفرائض بكمالها و التقرب إلى الله بنوافلها.

٤- الإكثار من ذكر الله في كل الأحوال

مع الصلاة على النبي ﷺ.

٥- السعي على سلامة القلب و صلاحه

٦- التزام المقامات والأحوال التي تُبّلِغه

الطريق وتدله عليه.

الباب الرابع: أهم المقامات و الأحوال

١- التوبة

٢- المحاسبة

٣- المحبة

٤- التقوى

٥- الإخلاص

٦- الاستقامة

٧- الزهد

٨- الرضا

٩- الشكر

١٠- الصبر

الباب الخامس: أبحاثٌ في التصوف

١- أولياء الله.

٢- كرامات الأولياء.

٣- التوسل.

الباب السادس: من أعلام التصوف (حسب وفاتهم)

١- الحسن البصري.(ت ١١٠هـ)

٢- إبراهيم بن أدهم.(ت١٦١هـ/ ٧٧٨م)

٣- الفضيل بن عياض. (ت١٨٧هـ/٨٠٣م).

٤- شقيق البلخي. (ت ١٩٤هـ/٨١٠م)

٥- بشر الحافي. (ت ٢٢٧هـ/٨٤١م)

٦- حاتم الأصم. (ت٢٣٧هـ/٨٥١م)

٧- سري السقطي. (ت ٢٥٣هـ/٨٦٧م)

٨- أبو يزيد البسطامي. (ت ٢٦١هـ/٨٧٥م)

٩- الجنيد بن محمد.(ت٢٩٧هـ/ ٩١٠م)

١٠- محمد الغزالي. (ت٥٢٠هـ)

الباب السابع: أهم الطرق الصوفية

١- الطريقة النقشبندية.

٢- الطريقة القادرية.

٣- الطريقة الرفاعية.

٤- الطريقة الشاذلية.

المراجع والمصادر.

مؤلفات المربي الدكتور محمد خير فاطمة.